

أجاثا كريستي



الأربعة الكبار

مكتبة علي بن صالح الرقمية

أجاثا كريستي



الأربعة الكبار

رواية بوليسية

1927



كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

نبذة عن المؤلفة

تُعرف أجاثا كريستي في كل أنحاء العالم باسم "ملكة الغموض"، ولقد حققت مبيعات كتبها ما يربو على مليار نسخة باللغة الإنجليزية إضافة إلى مليار نسخة أخرى ترجمت إلى مائة لغة أجنبية، وهي تعد أكثر كاتبة نشرت لها كتب على مر العصور على مستوى كل اللغات، ولم يفقها في المبيعات إلا كتب شكسبير، وقد قامت بتأليف ثمانين كتاباً، ما بين روايات ومجموعات من القصص القصيرة في الجريمة، كما قامت بتأليف تسع عشرة مسرحية، وست روايات تحت اسم ماري ويستماكوت.

ولقد كتبت أجاثا كريستي روايتها الأولى "السر الغامض في ستايلز" قرب نهاية الحرب العالمية الأولى، والتي كانت تعمل خلالها في الجيش كمرضة. وقد قامت في هذه الرواية بابتكار شخصية هيركيول بوارو، ذلك المحقق البلجيكي ضئيل الجسم الذي صار أشهر محقق في روايات الجرائم بعد شيرلوك هولمز - وقد نشرت الرواية أخيراً بواسطة دار نشر Bodley Head في عام 1920.

وفي عام 1926، وبعد أن اعتادت تأليف رواية واحدة كل عام، قامت أجاثا كريستي بتأليف روايتها العظيمة "من الذي قتل السيد روجر أكرويد؟"، تلك الرواية التي كانت أول رواية تنشرها لها دار النشر Collins والتي أسست علاقة ربطت بين الكاتب والناشر دامت لخمسين عاماً ونتج عنها ما يزيد على سبعين رواية، كما كانت رواية "من الذي قتل السيد روجر أكرويد؟" هي أولى رواياتها التي يتم تمثيلها مسرحياً - تحت عنوان Alibi - واستمر عرضها بنجاح على مسرح "ويست إند" في "لندن" لمدة طويلة. وقد تم افتتاح مسرحية - "مصيصة الفئران" - أشهر مسرحياتها على الإطلاق في عام 1952 وهي المسرحية المعروفة بكونها صاحبة أطول فترة عرض في التاريخ.

وقد منحت أجاثا كريستي لقب "فارسة صاحبة مقام رفيع" في عام 1971، وتوفيت في عام 1976. ومنذ ذلك الحين ظهرت عدة مؤلفات لها منها تلك الرواية التي حققت أعلى المبيعات Sleeping Murder وظهرت لاحقاً في نفس عام وفاتها. بعد ذلك نُشرت السيرة الذاتية لها، ثم مجموعة القصص القصيرة Miss Marple's Final Cases و While the Light Lasts و Proplem at Pollensa Bay وفي عام 1998 تم تحويل أول مسرحية لها وهي Black Coffee إلى رواية بواسطة مؤلف آخر هو "تشارلز أوزبورن".

الفصل الأول

ضيف غير متوقع

عادة ما كنت ألتقى بالعديد من الأشخاص الذين يستمتعون بعبور القناة؛ وهم رجال يمكنهم الجلوس على مقاعدهم فى القارب بهدوء، وعند الوصول ينتظرون حتى يتم ربط القارب، وبعدها يبدأون فى جمع متعلقاتهم بلا ضوضاء أو ارتكاب أية أخطاء عند النزول من القارب، أما أنا شخصياً، فكنت لا أستطيع أن أحذو حذوهم، فمنذ اللحظة الأولى التى أصعد فيها إلى سطح القارب أشعر بأن الوقت أضيق من أن أستقر فى أى مكان، فقد اعتدت حمل متاعى فى كل مكان أذهب إليه، وإذا ذهبت لتناول الطعام فى البهو فإننى أنتهى بسرعة، وكان يغمرنى شعور بعدم الراحة لخشيتى أن يصل القارب إلى البر فجأة بينما أنا مازلت فى الأسفل أتناول الطعام، وربما يكون كل ذلك ميراثاً ناجماً عن الإجازات القصيرة التى كان المرء يأخذها أثناء الحرب، حيث كان المرء هناك يشعر بأهمية كبرى للوقوف قرب البوابات، وأن يكون أول من يهبط من القارب حتى لا يهدر أية دقائق غالية من أيام الإجازة الثلاثة أو الخمسة.

وفى هذا الصباح من شهر يوليو، وبينما كنت واقفاً بجوار الحاجز الخشبى للقارب أرقب مرتفعات دوفر تقترب، كنت أتعجب من هؤلاء الركاب الذين جلسوا فى مقاعدهم هادئين، ولم يرفعوا رءوسهم ليشاهدوا أول معالم مسقط رأسهم، ربما كانت حالتهم تختلف عن حالتى بلا شك، فإن كثيراً منهم ذهبوا إلى باريس فقط لقضاء إجازتهم، بينما قضيتُ أنا عاماً ونصف العام فى مزرعة فى الأرجنتين. لقد نجحت حياتى هناك واستمتعنا - زوجتى وأنا - بالحياة الحرة السهلة التى تميز قارة أمريكا الجنوبية. ورغم ذلك فقد اجتاحتنى المشاعر الفياضة عندما رأيت الشاطئ يقترب ويقترب.

لقد مكثت فى فرنسا خلال اليومين الماضيين للقيام ببعض الأعمال، وأنا فى طريقى إلى لندن حيث يجب أن أقضى هناك عدة أشهر - أنا وهى - حيث يجب أن أرى أصدقائى القدامى، وتحديدًا أحدهم، وهو رجل ضئيل له رأس يشبه البيضة، وله عينان خضراوان، إنه هيركيول بوارو! لم أشر فى آخر خطاب لى من الأرجنتين إلى مسألة سفرى الذى تحدد بالفعل بسرعة، نتيجة لظروف العمل. وأمضيت الكثير من الوقت وأنا أتخيل - فى مرح - سعادته وذهوله عند رؤيتى.

إنه - كما أعرف - لا يكون فى الغالب بعيداً عن مقره الرئيسى، لقد انتهى الوقت الذى كانت القضايا تؤدى به إلى أن يقطع إنجلترا من أقصاها إلى أدناها، لقد أصبح

شهيرا، ولم يعد يسمح لأية قضية بأن تستهلك كل وقته لقد صار كل هدفه - بمرور الوقت - أن يعرف بأنه "محقق استشارى" مثل أى طبيب استشارى فى شارع هارلى، لقد سخر كثيراً من الفكرة السائدة عن أن الإنسان يجب أن يجرى وراء القضايا مثل الكلاب البوليسية، ويتنكر لتتبع المجرمين ويتوقف عند كل أثر لكى يفحصه.

كان يقول لى وقتها: "لا عزيزى هاستنجز، لقد تركنا ذلك لـ"جيرود" وأصدقائه. إن الطرقاتى يتبعها هيركيول بوارو نجلس من خلالها فى استرخاء بمقاعدنا الوثيرة، وبذلك نستطيع أن نرى الأشياء التى يغفل عنها الآخرون، كما أننا لا نقفز إلى الاستنتاجات مثلما يفعل" جاب الموقر".

رغم ذلك فلا تزال تراودنى المخاوف من أن أجده فى مكان بعيد. وعندما وصلت إلى لندن تركت متاعى فى أحد الفنادق وتوجهت بسيارة إلى العنوان القديم. يا لها من ذكريات موجعة تلك التى استرجعتها! لقد كنت أتوق بشدة لتحية مالكة العقار الذى كنت أعيش فيه، لكننى سارعت وأخذت أرتقى السلالم بسرعة، بحيث تجاوزت كل درجتين فى خطوة واحدة ثم طرقت باب بوارو.

أتانى الصوت المألوف من الداخل يقول: "ادخل".

فاندفعت داخلاً ووقف بوارو فى مواجهتى وكان يحمل حقيبة صغيرة سقطت منه أرضاً بدوى عال عندما رآنى.

أخذ بوارو يصيح: "صديقى هاستنجز! صديقى هاستنجز!".

ثم اندفع ناحيتى وهو يحتضننى باتساع ذراعيه. كان حديثنا مفككا يفتقد إلى الترتيب والمنطق وهو عبارة عن صياح وأسئلة متلهفة وإجابات ناقصة ورسائل من زوجتى، وتفسيرات لأسباب رحلتى بحيث اختلط كل ذلك ببعضه البعض.

وفى النهاية وبعدما هدأنا نوعاً ما سألته: "هل شغل أحد غرفتى القديمة؟ فأنا أحب أن أقيم معك مرة ثانية".

تغيرت ملامح بوارو إلى الدهشة والمفاجأة ثم قال:

"يا إلهى! أية ظروف غير مواتية أنت بك الآن. انظر حولك".

ولأول مرة لاحظت ما يحيط بى، ففى مواجهة الحائط كان هناك صندوق كبير عتيق، وبالقرب منه كانت هناك مجموعة من حقائب الثياب المرتبة بعناية حسب الحجم من الأكبر إلى الأصغر. ولم أخطئ فى استنتاجى.

سألته: "أنت راحل؟".

أجابنى قائلاً: "نعم".

عدت أسأله: "إلى أين؟".

قال: "إلى أمريكا الجنوبية".

صحت متسائلاً: "ماذا؟".

فأجابني: "نعم، إنها مفارقة مضحكة، أليس كذلك؟ إنها ريو التي سوف أذهب إليها. وكل يوم أقول لنفسى لن أذكر شيئاً فى خطاباتي... ولكن أوه! ستكون مفاجأة لهاستنجز الطيب عندما يجدنى أمامه".

سألته من جديد: "لكن متى سوف تذهب؟".

نظر بوارو إلى ساعته وقال: "خلال ساعة".

قلت له: "أتذكر أنك قلت فى السابق إنه لا شىء يمكن أن يغريك بالذهاب فى رحلة بالبحر؟".

أغلق بوارو عينيه وارتعد، ثم قال: "لا تتكلم عن هذا الأمر أمامى يا صديقى، لقد أكد لى طبيبى أن المرء لا يمكن أن يموت بسبب هذه الرحلة، وأنها يجب أن تكون الأخيرة، أى أننى يجب ألا أعود أبداً إلى مثل ذلك الأمر".

ثم دفعنى إلى أحد المقاعد وقال: "تعال. سوف أخبرك كيف جرى الأمر كله، هل تعرف من هو أغنى رجل فى العالم؟ أغنى حتى من روكفلر؟ إنه آيب رايلاند".

سألته: "الأمريكي ملك الصابون؟".

قال: "تماماً، لقد حادثنى أحد سكرتيريه، وأخبرنى أن هناك عمليات احتيال كبيرة تجري فى إحدى الشركات فى ريو، وطلب منى أن أتحقق من الأمر هناك ولكنى رفضتُ وقلتُ له إنه إذا وُضعتُ الحقائق أمامى فسوف أعطيه رأى خبير. لكنه قال إنه غير قادر على ذلك، وبالتالي أصبحت الطريقة الوحيدة لكى أعرف الحقائق هى أن أذهب إلى هناك، وفى الظروف الطبيعية كان هذا كفيلاً بأن يغلق الطريق أمام الأمر، ففكرة الذهاب إلى مكان ما من أجل التحري هى أمر من غير الممكن أن يُقدم عليه هيركيول بوارو. لكن مبلغ المال الذى عُرِضَ على كان كبيراً، حتى إنها المرة الأولى التى أقع فيها تحت إغراء المال فقط، كان الأمر يستحق... إنها ثروة. كما كان هناك عامل جذب آخر هو أنت يا صديقى. لقد كنت خلال نصف العام المنصرم رجلاً عجوزاً وحيداً. فقلت فى نفسى: لم لا؟ لقد بدأت أشعر بالملل من حل تلك المشكلات الغبية. لقد حققت شهرة كافية، لذا، فقد حدثت نفسى قائلاً: دعنى آخذ تلك الأموال وأستقر إلى جوار صديقى القديم".

شعرتُ بالدهشة من الدلالات التى حملتها وجهة نظر بوارو الذى تابع قائلاً: "لهذا وافقت، وفى خلال نصف ساعة يجب أن ألحق بالقطار المتجه إلى الميناء. إن ذلك هو أحد ملامح سخرية الحياة، أليس كذلك؟ لكننى يجب أن أعترف لك يا هاستنجز بأنه لو لم يكن المبلغ المعروض كبيراً لكنت قد ترددت؛ لأننى كنت قد بدأت تحقيقاً صغيراً

خاصاً. أخبرنى؛ ما الذى تعنيه عامة عبارة "الأربعة الكبار"؟.

أجبتة قائلاً: "أعتقد أن أصلها يرجع إلى مؤتمر فرساي، كما أن هناك "الأربعة الكبار" فى عالم السينما كما أن هذا المصطلح يستخدمه القوم غير ذوى الشأن".

قال بوارو مفكراً: "أفهم ذلك. لقد مرت بى هذه العبارة فى ظروف لا تتفق مع أى من تلك المعانى، يبدو أنها تشير إلى عصابة من المجرمين الدوليين أو شىء من هذا القبيل، فقط...".

قلتُ له بعد أن لاحظت ترده: "فقط ماذا؟".

فقال: "فقط أعتقد أنها تعنى شيئاً على نطاق واسع إنها فكرة شخصية لا أكثر. لكن يجب أن أحزم حقائبى، فالوقت يمر".

قلت مستحثاً إياه: "لا تذهب. ألغ رحلتك ثم تعال معى على نفس القارب عند عودتى".

شد بوارو قامته فى اعتداد ونظر إلى معاتباً ثم قال: "آه. أنت لا تفهم! لقد أعطيتُ كلمة. أنت تعرف معنى ذلك؛ معنى كلمة هيركيول بوارو، لا شىء يمكنه أن يوقفنى الآن إلا الموت".

فغمغمت فى حزن: "وهذا أمر مستبعد الحدوث إلا إذا دخل فى الساعة الحادية عشرة ضيوف غير متوقع مجيئهم".

قلتُها مقتبساً تلك العبارة المأثورة وعلى وجهى شبح ابتسامة، وفى اللحظة التى قلت ذلك بدا على كلينا الفزع إذ سمعنا صوتاً يأتى من الحجرة الداخلية.

صحت قائلاً: "ما هذا الصوت؟".

قال بوارو فى سرعة: "يا إلهى! يبدو أن "ضيوفك غير المتوقعين" قد جاءوا إلى حجرة نومى".

سألته: "ولكن كيف يمكن لأحد أن يدخل هناك؟ لا يوجد باب يؤدى من خارج المنزل إلى تلك الحجرة".

أجابنى قائلاً: "ذاكرتك ممتازة يا هاستنجز، والآن إلى الاستنتاجات".

قلتُ فى سرعة: "النافذة، لكنه بذلك يكون لصاً، أليس كذلك؟ لكن للوصول إليه يجب أن يكون قد قفز قفزة هائلة. ويمكننى القول إن ذلك مستحيل الحدوث".

وقفت على أطراف أصابعى وأخذت أتحرك فى اتجاه باب الحجرة عندما أوقفنى صوت عبث فى مقبض الباب من الناحية الأخرى.

انفتح الباب فى ببطء ووقف على عتبته رجل. كان مغطى من رأسه حتى قدميه

بالطين والغبار فيما كان وجهه نحيفاً هزياً. حلق فينا للحظة ثم ترنح وسقط فأسرع إليه بوارو وفحصه ثم قال لى: "أحضر بعض الشراب، بسرعة".

صبتُ بعضاً من الشراب فى كوب وأحضرتة وتمكن بوارو من إعطاء الرجل قليلاً منه، ثم استطعنا معا حمله ووضعناه على الأريكة، وفى دقائق قليلة فتح عينيه ونظر حوله نظرة خاوية.

سأله بوارو: "ماذا تريد سيدى؟".

فتح الرجل شفثيه وتكلم فى صوت آلى غريب: "سيد هيركيول بوارو، 14 شارع فاراواى".

قال بوارو: "نعم. نعم. أنا هو".

لم يبد على الرجل أنه فهم إذ واصل الحديث بنفس نبرة الصوت تقريباً: "سيد هيركيول بوارو، 14 شارع فاراواى".

حاول بوارو أن يجعله يتكلم إلا أنه كان فى بعض الأحيان لا يرد على الأسئلة مطلقاً أو يكرر نفس العبارة".

هنا أشار لى بوارو أن أجرى مكالمة هاتفية وقال: "أحضر دكتور ريدجواى".

لحسن الحظ كان الطبيب فى منزله، ولما كان ذلك المنزل فى إحدى المناطق القريية فلم تمض دقائق إلا وكان قد حضر وبدأ فى العمل.

تساءل الطبيب: "حسناً، ما الأمر؟".

شرح له بوارو الأمر باختصار وبدأ الطبيب فحص زائرننا الغريب الذى بدا غير واع لوجود الطبيب أو لوجودنا.

تنحى الطبيب بعدما انتهى من فحص الرجل ثم قال: "إنها حالة غريبة".

قلتُ متسائلاً: "حمى مُخية؟".

صاح الطبيب رافضاً ذلك فى ازدراء وقال: "حمى مُخية! حمى مُخية! لا يوجد شىء كذلك، إنه من اختراع مؤلفى الروايات. لا. هذا الرجل تعرض إلى صدمة من نوع ما. لقد جاء إلى هنا تحت تأثير فكرة معينة. وهى أن يجد سيد هيركيول بوارو فى 14 شارع فاراواى، وأخذ يردد هذه الكلمات بصورة آلية دون حتى أن يعرف معناها".

فقلت فى لهفة: "لعله فقد القدرة على الكلام نتيجة تعرضه لإصابة فى رأسه".

لم يرفض الطبيب هذا الرأى بنفس الدرجة التى رفض بها رأى السابق، فلم يعلّق لكنه أعطى الرجل ورقة وقلماً رصاصياً وقال: "لنر ماذا سيفعل بهما".

للحظات قليلة لم يفعل الرجل أى شىء بالورقة والقلم، إلا أنه فجأة بدأ فى الكتابة

كالمحموم، وفجأة أيضا توقف عن الكتابة وترك الورقة والقلم يسقطان منه أرضاً.

فالتقطهما الطبيب وهز رأسه وقال: "لا شيء هنا. فقط الرقم 4 مكتوب عشرات المرات. كل مرة أكبر من سابقتها. أعتقد أنه أراد أن يكتب 14 شارع فاراواي. إنها حالة مثيرة. مثيرة جداً. هل يمكنكما أن تحتفظا به هنا حتى عصر اليوم؟ أنا مضطر إلى الذهاب إلى المستشفى الآن لكنني سأعود عصرا وأخذ كل الترتيبات اللازمة له، إنها حالة مثيرة جداً ينبغي ألا أضيعها".

شرحتُ للطبيب مسألة سفر بوارو وحقيقة أنني عرضتُ أن أصحبه إلى ساوث هامبتون، فقال الطبيب: "جيد، اتركاه هنا، لا يمكنه أن يحدث أى أضرار. إنه يعاني من إجهاد كامل. ربما ينام فى نهاية الأمر حوالى 8 ساعات. سيكون لى كلمة مع السيدة ذات الوجه الباسم صاحبة العقار، وسأطلب منها أن تبقيه تحت نظرها".

ثم اندفع خارجاً فى عجلة معروفة عنه. أما بوارو فقد واصل ترتيب أمتعته وعينه على الساعة وقال:

"الوقت، إنه يجرى بسرعة لا تُصدق. والآن يا هاستنجز. لا تقل إننى تركتُك دون أى شيء لتفعله. مشكلة مثيرة جداً. رجل من المجهول. من هو؟ ماذا يكون؟ آه. أنا مستعد للتضحية بعامين من عمري مقابل أن تبحر تلك السفينة غدا بدلا من اليوم. يوجد أمر غريب هنا، مثير جداً. لكن المرء يجب أن يكون لديه وقت، الوقت. ربما تمر أيام أو حتى شهور قبل أن يتمكن هذا الرجل من إخبارنا بأى شيء".

طمأنته قائلاً: "سأفعل ما بوسعى يا بوارو، سأحاول أن أكون بديلاً كفوفاً".

قال: "نعم.. إلا أنه وضح من طريقة رده على أنه غير مقتنع.

فالتقطت قطعة الورق وقلتُ فى مرح وأنا أنقر على الكلام المكتوب بالقلم الرصاص: "لو كنت أكتب قصة لكنتُ قد أضفت هذا اللغز إلى آخر نوادرِك ولكنك أسميته (لُغز الأربعة الكبار)".

ثم أجفلتُ عندما خرج الرجل فجأة من حالة الذهول التى كان عليها، فاعتدل فى جلسته وقال فى صوت واضح ومحدد: "لى تشانج ين".

كان الرجل فى حالته هذه يشبه من استيقظ من نومه فجأة، فأشار لى بوارو ألا أتكلم بينما استمر الرجل فى حديثه. كان يتكلم بصوت واضح، وكان هناك شيء فى طريقة كلامه جعلنى أعتقد أنه يقتبس ما يقول من تقرير مكتوب أو محاضرة.

كان يقول: "يعتبر لى تشانج ين العقل المدبر للأربعة الكبار، إنه القوة الدافعة والمسيطرة. لذلك اعتبرته رقم واحد. الرقم اثنان نادرا ما تتم الإشارة له بالاسم لكن يتم تمثيله بحرف ال-S الذى يتخلله خطان بشكل طولى، وهى علامة الدولار. ومن ذلك يمكن التخمين أنه أمريكى وبالتالي يمثل قوة الثروة، ولا يبدو أن هناك شكاً فى

أن الرقم ثلاثة امرأة فرنسية الجنسية، من المحتمل أن تكون إحدى محظيات رجال الطبقة الراقية، ولكن هذا الأمر غير مؤكد، أما الرقم أربعة..."

ثم ترنح صوته وانهار، فانحنى عليه بوارو وقال مستحثاً إياه: "نعم، الرقم أربعة؟" كانت عينا بوارو مثبتتين على وجه الرجل، وكانت تغلب على وجه الرجل أمارات الخوف. وتبدو ملامحه مشوهة.

قال الرجل لاهثاً: "المدمر"، ثم ارتج جسده وسقط للخلف كما لو كان قد مات.

همس بوارو: "يا إلهي. لقد كنتُ على حق إذن. لقد كنتُ على حق".

سألته: "هل تعتقد أن....؟".

قاطعنى قائلاً: "أحمله إلى السرير في حجرتي. ليس لدى دقيقة واحدة لأضيعها، ليس لأننى أرغب في الذهاب؛ فلو كان الأمر كذلك لتخلّيت عنه بضمير مستريح، بل يعود الأمر إلى أننى قد قطعت وعداً بالذهاب، تعال يا هاستنجز!".

تركنا الرجل في رعاية السيدة بيرسون. ثم انطلقنا بالسيارة واستطعنا اللحاق بالقطار بصعوبة. كان بوارو يتقلب بين الصمت والثرثرة. فقد كان أحياناً يجلس ناظراً من النافذة كشخص ضاع في حلم، ثم فجأة ينتابه نشاط مفاجئ فيبدأ في صب الأوامر والنواهي على رأسى مؤكداً أهمية الاستجابة الفورية.

ران علينا الصمت بعدما مررنا بمحطة وكينج، كان من المقرر ألا يتوقف القطار إلا في ساوث هامبتون، إلا أنه حدث أن توقف فجأة بعدما وصلتته إشارة بذلك.

فصاح بوارو فجأة: "يا إلهي! ألف لعنة! لكننى كنتُ أبله، لقد رأيتُ الأمر بوضوح أخيراً. إنها العناية الإلهية وحدها التى أوقفت القطار، اقفز يا هاستنجز. أقول لك اقفز".

وفى لحظة كان قد فتح باب العربة وقفز بجوار خط السكك الحديدية وهو يقول لى: "ألقِ بالحقائب ثم بعد ذلك اقفز أنت".

أطعته فى الوقت المناسب فبمجرد أن وقفت إلى جواره كان القطار قد بدأ فى التحرك، فقلت له فى شئ من الغضب: "والآن يا بوارو، ربما ستقول شيئاً عن هذا الموضوع".

قال لى: "لقد رأيتُ النور أخيراً يا صديقى".

فقلتُ له: "حقاً؟ لقد أوضح لى ذلك أموراً كثيرة".

رد على قائلاً: "يجب أن يكون كذلك. لكننى أخشى... أخشى كثيراً ألا يكون كذلك. إذا استطعت أن تحمل حقيبتين، فأعتقد أنه يمكننى أن أحمل الباقي".

الفصل الثانى

رجل من مستشفى الأمراض العقلية

لحسن الحظ كان القطار قد توقف بالقرب من إحدى المحطات. ولم نَسِرْ إلا قليلاً حتى وصلنا إلى أحد الجراجات، حيث استطعنا الحصول على سيارة وبعد حوالى ساعة ونصف الساعة كنا نذهب الطريق نهبا عائدين إلى لندن. وعندها - وليس قبلها - تكرم بوارو وبدأ فى إشباع فضولى.

قال لى: "أنت لا تفهم، أليس كذلك؟ لقد كنتُ كذلك أنا أيضاً، لكننى الآن أستطيع أن أرى الأمور يا هاستنجز، لقد تم إبعادى عن الطريق عمداً".
صحتُ قائلاً: "ماذا؟".

قال: "نعم. ببراعة. لقد تم اختيار المكان والطريقة بمهارة، لقد كانوا خائفين منى".
سألتُه: "من هم؟".

أجابنى قائلاً: "هؤلاء الأربعة العباقرة الذين شكلوا عصابة خارجة عن القانون، صينى وأمريكى وفرنسية و... آخر، ادعُ الله أن نعود فى الوقت المناسب يا هاستنجز".

عدتُ أسأله: "هل تعتقد أن هناك خطراً يتهدد زائرنا؟".

قال: "أنا متأكد من ذلك".

حيثنا سيدة بيرسون عند وصولنا. وبعيدا عن تعبيرها عن دهشتها من رؤية بوارو، أخذنا نسألها عن أية أخبار لكنها أكدت لنا أن أحداً لم يتصل وأن زائرنا لم يصدر أية حركة.

تنهدنا فى ارتياح وصعدنا إلى الشقة وعبر بوارو الردهة وذهب إلى الحجرة الداخلية؛ بعدها نادانى فى صوت غريب مهتز:

"هاستنجز، إنه ميت".

أسرعت إلى الداخل. كان الرجل يرقد فى الوضع الذى تركناه عليه إلا أنه كان ميتاً، كان ميتاً منذ بعض الوقت، اندفعت خارجاً للبحث عن طبيب. كنت أعلم أن ريدجواى لن يكون قد عاد من عمله بعد، لكننى استطعت العثور على أحدهم وعدت به على الفور إلى المنزل.

قال الطبيب: "إنه ميت بالفعل، يا للرجل المسكين هل كان هذا الرجل صديقكم؟".

قال بوارو مراوغاً: "شئ من هذا القبيل، ما سبب الوفاة؟".

أجابه الطبيب: "من الصعب تحديد ذلك. ربما كانت نوبة قلبية، هناك علامات اختناق. هل هناك مصدر للغاز مفتوح؟".

رد بوارو قائلاً: "لا. إننا نستخدم الكهرباء فى الإضاءة، ولا يوجد شئ آخر".

فتابع الطبيب قائلاً: "كما أن النافذتين مفتوحتان. لقد تُوِّفى منذ حوالى ساعتين. يجب أن تبلغوا الأشخاص المعنيين، ألن تفعلوا ذلك؟".

رحل الطبيب وقام بوارو بإجراء بعض المكالمات الهاتفية الضرورية، وفى النهاية قام بما أثار دهشتى، إذ اتصل بصديقنا القديم المفتش جاب وسأله إن كان يستطيع الحضور.

وبمجرد أن انتهينا من هذه الإجراءات، ظهرت السيدة بيرسون وقد اتسعت عيناها مثل أطباق الفناجين وقالت:

"لدينا هنا رجل من أنويل، من مستشفى الأمراض العقلية، هل أدخله؟".

وافقناها على ذلك، وظهر رجل ضخم الجثة قال لنا فى بشاشة:

"صباح الخير أيها السيدان. لدى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أن لديكم أحد طيورى هنا. لقد فر ليلة أمس، لقد فعلها حقاً".

قال بوارو: "لقد كان هنا".

عاد الحارس يسأل ببعض القلق: "لا تقل لى إنه فر من جديد، هل فعل ذلك حقاً؟".

رد بوارو قائلاً: "بل مات".

بدا على الرجل الارتياح أكثر من أى شئ آخر.

وقال: "حقاً؟ حسناً. أعتقد أن هذا أفضل لجميع الأطراف".

سأله بوارو: "هل كان خطراً؟".

أجابه الرجل: "تعنى أنه يمكن أن يقتل؟ أوه. كلا، لم يكن مؤذياً، بل كانت لديه عقدة الاضطهاد. كان لديه الكثير من المعارف من الصين، ولقد وضعوه فى العزل الانفرادى فى المستشفى. الكثيرون يتشابهون فى هذه النقطة".

ارتعدت لدى سماعى ذلك.

بينما سأله بوارو: "وكم بقى فى العزل الانفرادى؟".

أجابه الرجل: "تقريباً، عامان حتى الآن".

قال بوارو فى هدوء: "أفهم ذلك. ألم يخطر ببال أحد أنه قد يكون عاقلاً؟".
ضحك الحارس.

ثم قال متسائلاً: "إذا كان عاقلاً كما تقول، فما الذى سيدفعه إلى البقاء فى مستشفى الأمراض العقلية؟ كلهم يقولون إنهم عقلاء بالطبع كما تعلم".

لم يرد بوارو، وأخذ الرجل كى يشاهد الجثمان، وسرعان ما تعرف عليه.

ثم قال فى شىء من القسوة: "إنه هو. كان رجلاً غريب الأطوار، أليس كذلك؟ حسناً أيها السيدان، إن أفضل ما أفعله الآن هو الرحيل للقيام بالترتيبات اللازمة. لن تنزعجوا من الجثة أكثر من ذلك، لكننى أجرؤ على القول إنه فى حالة ما تم إجراء تحقيق فسوف يتم استدعاؤكما فيه، طاب صباحكما".

ثم حيانا بانحناء خشنة، وغادر الغرفة فى ثققل.

بعد ذلك بدقائق وصل جاب مفتش سكوتلانديارد بأناقته المعهودة وقال:

"هأنذا سيد بوارو، ما الذى أستطيع أن أفعله لك؟ كنت أعتقد أنك فى طريقك اليوم إلى الشواطئ المرجانية أو إلى مكان هنا أو هناك".

سأله بوارو: "صديقى العزيز جاب، كنت أريد أن أعرف ما إذا كنت قد شاهدت هذا الرجل من قبل".

دخل غرفة النوم مع جاب الذى حلق إلى جثة الرجل الراقدة على الفراش، وقد بدت على وجهه علامات الحيرة وقال:

"دعنى أفكر. إنه يبدو لى مألوفاً. أنا على الدوام أفخر بذاكرتى. ليرحمنى الله، إنه ميرلنج! إنه أحد رجال المخابرات وهو ليس من رجالنا، غادر إلى روسيا قبل 5 سنوات، ولم يسمع عنه أحد بعدها إطلاقاً، وكان الاعتقاد السائد أن البلاشفة قد قتلوه".

قال بوارو بعدما رحل جاب: "الأمور واضحة الآن، ماعدا حقيقة أنه مات ميتة طبيعية".

ثم وقف وأخذ يتطلع إلى الجثة الراقدة بلا حراك وقد انعقد حاجباه فى عدم رضا، وهبت ريح هزت ستائر النافذة، فنظر إليها بوارو فى حدة وسألنى:

"هل فتحت النافذة عندما وضعت الجثة على السرير يا هاستنجز؟".

أجبتة قائلاً: "لا، لم أفعل، كما أتذكر فإن النوافذ كانت مغلقة".

رفع بوارو رأسه فجأة وقال:

"مغلقة، والآن هي مفتوحة. ماذا يعنى ذلك؟".

قلتُ مقترحاً: "أحدهم دخل من خلالها".

قال بوارو موافقاً: "محتمل"، لكنه كان يتكلم بلا اهتمام ودون اقتناع ثم قال بعد دقيقة أو اثنتين:

"ليس هذا تحديداً ما أفكر فيه يا هاستنجز. لو كانت نافذة واحدة فقط المفتوحة لم يكن الأمر ليخدعنى، ولكن لأن النافذتين كانتا مفتوحتين فإن الأمر أثار فضولى".

ثم أسرع إلى الحجرة الأخرى وقال:

"إن نافذة حجرة الجلوس مفتوحة أيضاً بالرغم من أننا كنا قد تركناها هي أيضاً مغلقة، آه".

ثم انحنى على الرجل الميت وتفحص جوانب فمه بدقة، ثم نظر بحدة وقال:

"لقد تم تكميمه يا هاستنجز، لقد تم تكميمه وبعد ذلك تسميمه".

قلت متعجباً وأنا أشعر بالصدمة: "يا إلهى، أعتقد أننا سوف نكشف الغموض الذى يحيط بالأمر بعد إجراء الفحص الطبى على الجثة".

لكن بوارو قال: "لن نكتشف شيئاً. لقد قُتلَ بعدما استنشق حمضاً قوياً. لقد وضعه القاتل أسفل أنفه تماماً ثم هرب من نفس المكان الذى جاء منه لكنه قبل ذلك فتح كل النوافذ، إن حمض الهيدروسيانيك سريع التطاير، إلا أنه ذو رائحة نفاذة مثل رائحة اللوز المر، وبالتالي فإنه بدون رائحة يمكن تتبعها، وبدون أى دليل على حدوث لعبة قذرة، فإن الأطباء سيقررون أن الوفاة طبيعية، لقد كان هذا الرجل يعمل فى المخابرات يا هاستنجز، واختفى فى روسيا منذ 5 أعوام".

قلتُ متسائلاً: "وفى العامين الأخيرين كان فى المصحة العقلية. فماذا عن الأعوام الثلاثة السابقة؟".

هز بوارو رأسه وأمسك ذراعى قائلاً:

"الساعة يا هاستنجز. انظر إلى الساعة".

توجهت ببصرى إلى رف الموقد حيث الساعة، فوجدتها متوقفة عند الرابعة.

قال بوارو: "يا صديقى. لقد عبث أحدهم بها، فلا يزال أمامها 3 أيام حتى تتوقف، إذ إنها ساعة من الطراز الذى يعمل بشكل متواصل لثمانية أيام. هل فهمت؟".

أجبتهُ بسؤال: "لكن لماذا يفعلون ذلك؟ لماذا يحاولون الإيحاء بأن الجريمة قد تمت فى الساعة الرابعة؟".

قال بوارو: "لا. لا. رتب أفكارك يا صديقى. حاول أن تستخدم خلاياك الرمادية

الصغيرة. تخيل أنك ميرلنج، ربما سمعتَ شيئاً وتعرف أن نهايتك باتت محتومة ولديك فقط الوقت الكافى لكى تترك إشارة، إنها الساعة الرابعة يا هاستنجز، الرقم أربعة، المدمر، آه! يالها من فكرة".

ثم اندفع إلى الحجرة الأخرى وأمسك بالهاتف وطلب هاونيل، وسأل:
"مستشفى الأمراض العقلية؟ نعم؟ لقد فهمت أن حادثة هروب وقعت اليوم، ما الذى تقول؟ لحظة من فضلك، هل يمكنك أن تكرر ما قلت؟ آه! تماماً".

ثم وضع السماعة والتفت إلى وقال:
"هل سمعت يا هاستنجز؟ لم يهرب أحد".
قلتُ متسائلاً: "لكن الرجل الذى جاء... الحارس؟".
قال بوارو: "أنا مندهش. مندهش جداً".
سألته: "هل تقصد...؟".

وقبل أن أكمل السؤال، قال: "رقم أربعة، المدمر".
حدقتُ إلى بوارو بذهول وبعد ذلك بدقيقة أو دقيقتين تماكنت نفسى وقلت له: "سوف نتعرف عليه من جديد يا بوارو، فى أى مكان، إن شخصيته مميزة".
رد بوارو قائلاً: "حقاً يا صديقى؟ أعتقد العكس. لقد كان فظاً وتبدو عليه إمارات الاحتيال، وكان وجهه ذا لون أحمر بشارب كثيف وصوت أجش. أعتقد أنه تخلص الآن عن تلك الهيئة. وبعيداً عن ذلك فلم تكن هناك علامات مميزة فى عينيه أو أذنيه، بالإضافة إلى أنه كان يستخدم طاقماً من الأسنان الصناعية. إن التعرف عليه لن يكون سهلاً كما تعتقد. فى المرة القادمة...".

قاطعته قائلاً: "هل تعتقد أنه ستكون هناك مرة قادمة؟".

فبدت على وجهه سمات الجدية وقال: "إنها مبارزة حتى الموت يا صديقى. أنت وأنا فى جانب والأربعة الكبار فى جانب آخر. لقد فازوا بالجولة الأولى، لكنهم فشلوا فى خططهم لإبعادى عن الطريق. وفى المستقبل عليهم أن يضعوا فى حساباتهم هيركيول بوارو!".

الفصل الثالث

المزيد عن لى تشانج ين

ليوم أو يومين بعد الزيارة التى قام بها مسئول المستشفى المزيف إلى منزل بوارو، ظل يراودنى أمل ضعيف فى أن يعيد الزيارة، وقد رفضتُ أن أغادر المنزل ولو للحظة واحدة. وحسبما وصل إليه تفكيرى فإن هذا الزائر ليس لديه أى مبرر ليشك فى أننا كشفنا تنكره، لذلك فقد اعتقدت أنه سيعود ويأخذ الجثة، إلا أن بوارو سخر من أفكارى وقال:

"يا صديقى. إن شئتَ فاجلس فى انتظار المستحيل، لكن بالنسبة لى فأنا لا أضيع وقتى فى هذه الأشياء".

فقلت معارضاً إياه: "حسناً بوارو. إذن لماذا تحمّل مخاطرة المجيء إلى هنا؟ إذا كان قد قرر أن يأتى فيما بعد ليتخلص من الجثة، فأنا أرى مبرراً لما سيفعله، فهو بذلك سيزيل دليل إدانته، لكن استمرار الوضع على ما هو عليه يجعله وكأنه لم يحقق أى مكسب".

هز بوارو كتفيه بطريقته الفرنسية استهزاء بما أقول، ثم قال: "ولكنك لا تنظر إلى الأمر بعينى رقم أربعة يا هاستنجز. أنت تتحدث عن الدليل، لكن أى دليل نملك ضده؟ حقاً لدينا الجثة ولكن ليس لدينا أى دليل حتى على أن القتل لقى مصرعه بالسم؛ لأن ذلك السم لا يترك أثراً. وأيضاً فإننا لا نستطيع العثور على شخص يشهد بأن أحدهم دخل الشقة فى غيابنا، كما أننا لم نعثر على أى أثر لتحركات صديقنا الراحل ميرلنج...".

"لا يا هاستنجز. رقم أربعة لم يترك أى أثر، وهو يعرف ذلك، يمكننا أن نقول إن زيارته كانت زيارة استكشافية، ربما كان يريد أن يتأكد تماماً أن ميرلنج قد مات، لكن الأمر الأكثر احتمالاً - كما أعتقد هو - أنه جاء ليرى هيركيول بوارو ويتبادل الحديث مع الخصم الوحيد الذى يجب عليه أن يخشاه".

بدت لى أسباب بوارو مليئة بالخيلاء والغرور، إلا أننى لم أشأ أن أناقش الأمر.

سألته: "وماذا عن التحقيق؟ أعتقد أنك سوف توضح الأمور كلها هناك وسوف تعطى الشرطة الوصف الكامل لرقم أربعة".

لكنه قال: "وإلام سيؤدى ذلك؟ هل لدينا ما يمكن أن يؤثر فى هيئة قضائية يشكها

بريطانيون متصلبون من مواطنيك؟ هل وصفنا لرقم أربعة سيكون ذا قيمة؟ لا. سوف نتركهم يعتبرون الأمر مجرد "موت عارض". ومن يدري ما سيحدث بعد ذلك، على الرغم من أنني لا أعلق آمالا كبيرة على هذا. ولعل القاتل الذكي يهنئ نفسه الآن على أنه خدع هيركيول بوارو فى الجولة الأولى".

كان بوارو على حق كما هى العادة، فلم يحضر ذلك الرجل من مستشفى الأمراض العقلية، ولم يثر التحقيق الذى أدليت فيه بشهادتى - والذى لم يحضره بوارو - الاهتمام العام.

ولما كان بوارو قد أنهى كافة أموره المعلقة قبل مجيئى بسبب رحلته المفترضة إلى أمريكا الجنوبية، فلم تكن لديه أية قضايا بين يديه حالياً، وهو ما أجبره على البقاء فى المنزل. لكننى على الرغم من ذلك لم أتمكن من أخذ الكثير من المعلومات منه، حيث ألقى بنفسه فى المقعد ذى الذراعين وأفشل كل محاولاتي لفتح حوار معه.

وذات صباح بعد الجريمة بحوالى أسبوع سألتنى إن كنت أوافق على أن أصبحه فى زيارة يود القيام بها، فشعرتُ بالسُرور، ذلك لأننى كنتُ أشعر أنه يرتكب خطأ بمحاولته حل المشكلة بالعمل المنفرد وكنت أريد أن أناقش القضية معه، إلا أنني وجدته غير راغب فى الحديث، حتى إنه لم يرد على عندما سألته عن وجهتنا.

إن بوارو يحب أن يبدو غامضاً ولن يعطينى أية معلومة حتى آخر لحظة، وفى هذه الأجواء أخذنا حافلة ثم قطارين، وفى النهاية وصلنا إلى مكان قرب الضواحي الجنوبية الكئيبة للندن، وهنا وافق أخيراً على أن يوضح لى الأمور.

قال لى: "نحن الآن ذاهبان إلى أكثر رجال إنجلترا معرفة بالحياة السفلية للصين".

سألته: "حقاً! من هو؟".

أجابنى: "رجل لم تسمع عنه من قبل، السيد جون إنجلترا، إنه مجرد موظف حكومى متقاعد ذى ذكاء متوسط يعيش فى منزل مليء بالتحف الصينية التى يضجر بها أصدقائه ومعارفه. لكننى تأكدت من ذوى المعرفة أنه لا يوجد أحد يستطيع أن يمنحنى المعلومات التى أريدها أكثر من جون إنجلترا".

بعد لحظات كنا نرتقى سلالم "زهور الغار" وهو الاسم الذى يُطلق على منزل السيد إنجلترا، وبالنسبة لى لم ألحظ وجود أية أكاليل من الغار تحيط بالمنزل أو توجد بداخله، وهذا ما جعلنى أعتقد أنه تمت تسميته وفق الأساليب المتبعة لتسمية المنازل فى الضواحي الجنوبية.

استقبلنا خادم يحمل الملامح الصينية وأدخلنا إلى حيث يجلس سيده، كان السيد إنجلترا رجلاً مربع الجسد تميل بشرته إلى الصفرة، وكانت له عينان عميقتان تنفذان إلى شخصية محدته، وقد نهض لتحييتنا وهو يضع جانباً خطاباً مفتوحاً كان يقرؤه لحظة دخولنا، ثم أشار إليه بعد التحية وقال لنا وهو يلتفت إلى بوارو:

"اجلسا رجاء، لقد أخبرنى هاسلى أنك تريد بعض المعلومات وأننى يمكن أن أكون ذا نفع فى الموضوع".

قال بوارو: "تماماً سيدى. أسألك فقط إن كنت تعرف شيئاً عمن يدعى لى تشانج ين؟".

قال إنجلز: "هذا أمر غريب، غريب جداً حقاً. كيف عرفت بهذا الاسم؟".

سأله بوارو بدوره: "إذن أنت تعرفه؟".

أجابه إنجلز: "لقد قابلته ذات مرة. وعرفتُ عنه بعض الأمور، لكن ليس بالقدر الذى كنتُ أريد. لكن ما أثار دهشتى هو أن هناك أحداً فى إنجلترا غيرى سمع بهذا الاسم. إنه رجل عظيم المكانة فى مجاله فى الطبقة الحاكمة فى الصين، لكن هذا ليس صلب الموضوع هناك سبب قوى يدعو للاعتقاد أنه الرجل الذى يقف وراء كل ذلك".

سأله بوارو: "وراء ماذا؟".

أجابه الرجل: "كل شىء، التوتر الذى يسود العالم، اضطرابات العمال التى تقلق كل البلاد والثورات التى تندلع فى بعضها. هناك بعض الناس - ليسوا أولئك الذين يحبون إثارة الذعر - ولكن ممن هم واثقون تماماً مما يقولون، هؤلاء يرون أن هناك قوة تقف خلف الستار تحرك كل تلك الأحداث ولا تهدف فقط إلى انحلال الحضارة الإنسانية. فى روسيا كما تعلم هناك الكثير من الإشارات التى تقول إن لينين وتروتسكى لم يكونا إلا اثنتين من العرائس الخشبية يحركهما عقل آخر، ليس لدى أى دليل يمكنه أن يقنعك بما سأقول، إلا أننى أعتقد أن لى تشانج ين هو ذلك العقل".

اعترضت على ذلك قائلاً: "لا أظن ذلك. أليست تلك فكرة جامحة؟ كيف يمكن لصينى أن يسيطر على الروس؟".

نظر إلى بوارو فى غضب وقال:

"بالنسبة لك يا هاستنجز فإن كل شىء لا تستطيع تصوره يعد فكرة مستبعدة، أما بالنسبة لى فأنا أوافق مع السيد إنجلز، من فضلك استمر فى كلامك سيدى".

واصل إنجلز حديثه قائلاً: لست أدري تحديداً ما هو الهدف الذى يسعى إلى تحقيقه من كل ذلك، إلا أن المرض الذى أصاب عقله قد أصاب عقولاً كثيرة من قبله منذ زمن أكبر، منذ الإسكندر حتى نابليون، إنه السعى إلى السلطة والرغبة فى الشعور بالتفوق الشخصى، وفى الأزمنة الحديثة صارت الجيوش ضرورية من أجل غزو الأراضى، إلا أنه فى القرن الحالى يكون لدى رجل مثير للقلق مثل لى تشانج ين وسائل أخرى. لدى من الأدلة ما يؤكد أنه يملك ما لا حصر له مما يستخدمه فى الرشاوى والدعاية، كما أنه توجد إشارات على أنه يتحكم فى بعض السلطات العلمية التى تتفوق على كل ما حلم به العالم".

كان بوارو يتابع حديث إنجلز بكل اهتمام قبل أن يسأله:
"وفى الصين؟ هل يتحرك هناك أيضاً؟".

هز السيد إنجلز رأسه فى تأييد قوى لما قاله بوارو، ثم قال:

"إنه يتحرك هناك، وأقول ذلك على الرغم من أننى لا أملك دليلاً يمكنه أن يصلح دليلاً فى المحاكم، حيث أتكلم على مسئوليتى الشخصية. أنا أعرف كل شخص يتحكم فى الصين اليوم. وعلى ذلك فإننى أستطيع أن أقول لك إن كل شخص يظهر فى الحياة العامة فى الصين هو رجل شخصيته ضعيفة أو رجل بلا شخصية على الإطلاق. إنهم عرائس خشبية ترقص بخيوط تحركها يد أعلى منها، وصاحب هذه اليد هو لى تشانج ين، إنه العقل الذى يسيطر على الشرق الأقصى اليوم. نحن لا نفهم الشرق الأقصى ولن نفهمه، لكن لى تشانج ين هو الروح المحركة له. إنه لا يظهر إطلاقاً فى الأضواء. بل إنه لا يتحرك من قصره فى بكين. إنه فقط يحرك الخيوط، يحرك الخيوط وبعدها تسير الأمور فى الخارج".

سأله بوارو: "ألا يوجد أحد يردعه؟".

مال سيد إنجلز بجسده للأمام وقال فى بطة:

"حاول أربعة رجال فى الأعوام الأربعة الماضية، وهم رجال مخلصون وأذكاء وأقوياء الشكيمة، كان يمكن لأى واحد منهم أن يفسد شئون لى تشانج ين فى وقت ما"، ثم صمت.

قلت مستحثاً إياه: "وماذا حدث إذن؟".

تابع سيد إنجلز قائلاً: "حسناً، لقد ماتوا، أحدهم كتب مقالاً وذكر فيه أن اسم لى تشانج ين مرتبط بالمظاهرات التى شهدتها بكين، وفى غضون يومين قتل طعنًا بالسكين فى الشارع، ولم يتم الإمساك بقاتله. وما فعله اثنان آخران كان مماثلاً. حيث ذكرا اسم لى تشانج ين فى مقالة أو فى حوار مرتبط بالمظاهرات، وخلال أسبوع من قولهما ذلك كانا قد لقيا مصرعهما؛ أحدهما مات مسموماً والآخر مات بالكوليرا. كانت حالة فردية ليست ضمن وباء عام. والرابع وجد ميتاً فى سريرته، إلا أن سبب موته لم يتم تحديده، إلا أن أحد الأطباء الذين رأوا الجثة قال لى إنها كانت محترقة بشدة كما لو أن القتل قد تعرض لتيار كهربى ذى قوة غير طبيعية".

هنا قال له بوارو: "وماذا عن لى تشانج ين؟ بالطبع لم يكن هناك أى دليل يقود إليه. فقط إشارات. أليس كذلك؟".

هز سيد إنجلز كتفيه.

ثم قال: "أوه. إشارات. نعم. بالتأكيد. ذات مرة وجدت رجلاً يريد أن يتكلم، شاب كيميائى صينى كان ربيباً لـ"لى تشانج ين"، جاءنى هذا الكيميائى ذات يوم، ولاحظت

أنه كان على أعتاب الانهيار العصبى. وأشار إلى تجربة كيميائية اشترك فيها فى قصر لى تشانج ين تحت إشراف أحد أفراد الطبقة الحاكمة فى الصين. كانت التجربة قد أجريت على الحمّالين، وقد شهدت أقسى درجات الاستهانة بالحياة الإنسانية. كانت أعصابه محطمة تماماً وكان فى حالة من الرعب تثير الشفقة وقد وضعته فى حجرة بالطابق الأعلى من منزلى على أمل أن أتكلم معه فى اليوم التالى، إلا أنها كانت بالطبع خطوة غبية منى".

سأله بوارو: "كيف تمكنوا منه؟".

أجابه سيد إنجلز: "هذا ما لم أعرفه قط. لقد احترق منزلى كله وكنت سعيد الحظ لأننى تمكنت من النجاة بحياتى. وأثبتت التحقيقات أن نيراناً ذات قوة غير عادية اشتعلت فى الطابق الأعلى وتفحمت بقايا صديقى الكيميائى حتى أصبحت رماداً".

ومن الطريقة التى تكلم بها السيد إنجلز شعرت أنه وصل إلى قمة انفعاله كما لاحظ هو أيضاً أن العاطفة قد جرفته فى أثناء الكلام، إذ ضحك معتذراً وقال: "لكن بطبيعة الحال ليس لدى أى دليل. وبالطبع ستقول على مثل الآخرين؛ أننى مجنون بهذه الفكرة".

قال بوارو فى هدوء: "على العكس. لدينا من الأسباب الكثير لكى نصدق قصتك. نحن أيضاً لدينا اهتمام بـ لى تشانج ين".

قال سيد إنجلز: "من الغريب أنك تعرفه. لم أتخيل أن يكون فى إنجلترا من يمكنه أن يكون قد سمع به. أود أن أعرف الكيفية التى سمعت بها عنه إذا لم يكن فى الأمر مشكلة".

أجابه بوارو: "إطلاقاً سيدى، لقد فر أحد الرجال إلى منزلى حيث كان يعانى من صدمة شديدة، لكنه استطاع أن يخبرنا عما أثار اهتمامنا بـ لى تشانج ين، لقد وصف أربعة أشخاص. الأربعة الكبار. عصابة لم يحلم أحد بوجودها حتى اليوم. رقم واحد فيها لى تشانج ين. رقم اثنان أمريكى غير معروف. رقم ثلاثة امرأة فرنسية غير معروفة. رقم أربعة يمكن القول إنه الذراع المتحركة للعصابة وهو المدمر، وقد مات مصدر تلك المعلومات. أخبرنى سيدى: هل هذا التعبير معروف لك "الأربعة الكبار"؟".

رد سيد إنجلز قائلاً: "لا. ليس مرتبطاً بـ لى تشانج ين. لا أستطيع أن أقول ذلك. لكننى سمعته أو قرأته مؤخراً. وأيضاً كان مرتبطاً بشيء غير مألوف، أوه، لقد تذكرت".

ثم نهض وتوجه إلى خزانة خشبية مصقولة ومطلية بعناية، كانت تحفة رائعة الصنع. ثم عاد وفى يده خطاب وقال:

"ها هو، خطاب من أحد العاملين فى النقل البحرى فى شنغهاى، والذين تعاملت معهم فى السابق. رجل عجوز له تاريخ سيئ وغارق الآن فى الشراب، لقد حسبت أن ما فى

الخطاب ناجم عن تأثير الشراب"، وبدأ يقرأ الخطاب بصوت عالٍ:

سيدي العزيز، ربما لا تذكرني. لكنك قدمت لي معروفاً ذات مرة في شنغهاي، وأرجو أن تقدم لي معروفاً آخر الآن. لدى مال أريد أن أخرج من البلاد. أنا هنا في مخبأ جيد، لكنهم قد يجدونني في أية لحظة. أقصد الأربعة الكبار، إنها مسألة حياة أو موت. لدى الكثير من المال، لكنني لا أجرؤ على الاقتراب منه خشية أن أنبهم إلى مكانه، أرسل لي مائتي دولار في خطاب وسأردهما لك شاكراً. أقسم على ذلك.

خادمكم المطيع،

جوناثان والي.

واصل سيد إنجلز كلامه قائلاً: "الخطاب يحمل ختماً من جرانايت بانجلو، هوباتون، دارتمور. أخشى أن تكون هذه مجرد محاولة للاستيلاء على هذا المبلغ الذي بالكاد أستطيع توفيره. إذا كان هذا الخطاب ذا نفع لكم... ثم مد يده لنا به.

قال له بوارو: "شكراً جزيلاً سيدي. سنقصد هوباتون في التو واللحظة".

سأله سيد إنجلز: "عزيزي، إن هذا الأمر مثير جداً، فهل يمكنني أن أرافقكما إذا لم يكن هناك اعتراض؟".

قال بوارو: "سيكون ذلك من دواعي سروري، لكننا يجب أن نرحل الآن، وسوف نصل إلى دارتمور مع حلول المساء تماماً، هذا كل ما في الأمر".

لم يؤخرا جون إنجلز أكثر من دقيقتين، وبعد قليل كنا في القطار المنطلق من بادنجتون إلى الريف الغربي. كانت هوباتون بلدة صغيرة تقع في واد على حافة المستنقعات. كانت على بعد 9 أميال من مورتونامبستيد. وقد وصلنا إلى هوباتون في حوالي الثامنة مساءً، ولأننا كنا في يوليو فإن ضوء النهار كان لا يزال موجوداً.

سرنا بالسيارة في الشوارع الضيقة في البلدة، وتوقفنا لنسأل أحد العجائز الريفيين عن هدفنا.

فقال وهو يفكر: "جرانايت بانجلو، أنتم تريدون جرانايت بانجلو؟ مضبوط؟".

أشار الرجل إلى منزل ريفي رمادي صغير في نهاية الشارع وقال:

"هذا هو جرانايت بانجلو، هل تريدون أن تقابلوا المفتش؟".

سأله بوارو في حدة: "أي مفتش؟ ماذا تعني؟".

عاد الرجل يقول: "أنتم لم تسمعوا عن جريمة القتل إذن؟ كان أمراً صعباً، يقولون إنه كانت هناك برك من الدماء".

غمغم بوارو قائلاً: "يا إلهى. أين مفتشكم هذا؟ يجب أن أقابله فوراً".

بعد ذلك بخمس دقائق كنا عند المفتش ميدوز، كان المفتش فى بادئ الأمر متعنتاً، إلا أنه لان بمجرد أن سمع باسم المفتش جاب من سكوتلانديارد.

قال المفتش: "نعم سيدى. قُتلَ هذا الصباح، كان عملاً فظيلاً. لقد اتصلوا بـ "موريتون" وجئتُ على الفور. يبدو أمراً غامضاً. كان رجلاً عجوزاً فى حدود السبعين من العمر، وكان مغرمًا بالشراب. كان ممدداً على أرضية حجرة المعيشة وعلى رأسه آثار ضربة وقد ذُبح من الوريد إلى الوريد. كانت الدماء تغطى المكان كما يمكنكم أن تستنتجوا. لقد أخبرتنا طاهيته - وهى سيدة تدعى بيتسى أندروز - أن سيدها كان لديه عدد من التماثيل الصينية المصنوعة من حجر اليشم الكريم، وقال لها ذات مرة إنها مرتفعة القيمة. إلا أن تلك التماثيل اختفت، مما يجعل الأمر يبدو بالطبع وكأنه جريمة قتل وسرقة. إلا أن هناك الكثير من الأمور التى تجعل من الصعب القبول بهذا الاستنتاج، والفقيد كان لديه اثنان من الخدم فى المنزل، السيدة بيتسى أندروز، وهى امرأة من هوباتون، وخادم خشن الطباع يدعى روبرت جرانت. كان جرانت قد ذهب إلى المزرعة ليحضر اللبن مثلما يفعل كل يوم بينما خرجت أندروز لتزور إحدى جاراتها، وقد ظلت بالخارج لمدة 20 دقيقة، وهى بالتأكيد الفترة التى وقعت فيها الجريمة ولقد عاد جرانت إلى المنزل أولاً ودخل من الباب الخلفى الذى كان مفتوحاً - لا أحد يغلق الأبواب هنا خاصة فى وضوح النهار مهما كانت الأسباب - وبعد ذلك توجه إلى حجرته ليقرأ الصحف ويدخن ولم يخطر بباله أن هناك شيئاً غير طبيعى قد حدث - أو على الأقل هذا ما يدعيه، بعد ذلك عادت بيتسى ودخلت غرفة المعيشة ورأت ما حدث فأطلقت صرخات توقظ الموتى، إلى هنا والأحداث تبدو متسقة مع بعضها، لقد دخل أحد الأشخاص إلى المنزل بينما كان الاثنان بالخارج وقتل الرجل العجوز المسكين. إلا أنه خطر فى ذهنى أن القاتل يجب أن يكون أحد المعروفين للقتيل. ذلك لأنه يجب أن يسير فى الشارع الرئيسى بالبلدة أو يتسلل من منزل أحد الجيران، فـ "جرانايت بانجلو" حوله الكثير من المنازل فكيف حدث أن أحداً لم يلحظ تسلل القاتل إلى المنزل؟".

ثم توقف المفتش فى زهو.

قال بوارو: "نعم. لقد فهمت ما تقصد. أرجوك أكمل".

تابع المفتش قائلاً: "حسناً سيدى. قلت لـنفسى، "هناك الكثير من الشبهات". وبدأت فى النظر حولى. تلك التماثيل الثمينة. هل هناك من يعتقد أنها ذات أهمية؟ وفى كل الأحوال فإنه من الجنون محاولة القيام بذلك فى وضوح النهار. لنفرض أن الرجل العجوز صاح طلباً للنجدة؟".

قال السيد إنجلز: "أعتقد سيدى، أن الكدمة التى على الرأس قد حدثت قبل الوفاة".

وافقه المفتش قائلاً: "هذا صحيح، فى البداية ضربه على الرأس وبعدها قام القاتل بذبحه، هذا واضح تماماً، لكن كيف جاء إلى هنا؟ إنهم هنا يلاحظون قدوم أى غريب، ثم أتانى التفسير فجأة، لم يأت أحد إلى هنا. لقد نظرت جيداً حولي، فقد أمطرت السماء أمس وكان هناك الكثير من الآثار تدخل وتخرج من المطبخ، كان فى غرفة النوم زوجان من الآثار فقط (بيتسى أندروز توقفت عند باب الحجرة) لذا فالأولى كانت للسيد والى حيث كان يرتدى خفاً منزلياً، أما الثانية فقد كان لرجل سار فى الدماء ثم تتبع آثاره الدموية. اعذرونى على ذلك التعبير".

قال سيد إنجلز وهو يبتسم ابتسامة خفيفة: "لا عليك، المعنى واضح".

فتابع المفتش روايته قائلاً: "تتبع الآثار حتى المطبخ، وليس بعد ذلك. هذه هى النقطة الأولى، على عتبة باب جرانت كانت هناك بقعة خفيفة. بقعة من الدماء. وكانت هذه هى النقطة الثانية، أما النقطة الثالثة فهى أنه عندما أخذت حذاء جرانت عالى الرقبة - الذى كان قد خلعه - ووضعت على الآثار وجدتهما متطابقين. لقد كانت عملية داخلية. أخذت جرانت إلى الحجز. ماذا تعتقد أننى وجدت فى الجيب الداخلى لمعطفه؟ لقد وجدت التماثيل وتذكرة رحيل، لقد ظهر أن جرانت هو إبراهيم بيجز الذى كان قد أدين فى جريمة اقتحام أحد المنازل قبل خمسة أعوام".

توقف المفتش وقد بدت عليه علامات النصر ثم سألنا:

"ما رأيكم فى ذلك أيها السادة؟".

قال بوارو: "أعتقد أنها قضية واضحة جداً. واضحة بصورة مفاجئة فى الواقع. هذا الرجل الذى يدعى بيجز أو جرانت يجب أن يكون غيباً جداً أو غير متعلم. أليس كذلك؟".

قال المفتش: "إنه كذلك، طراز خشن فظ من المعتاد وجوده، ولا يدرى شيئاً عما يمكن أن تعنيه آثار الأقدام".

قال بوارو: "من الواضح أنه لم يقرأ قصصاً بوليسية! شيء جيد أيها المفتش، أهنتك. هل يمكننا أن نلقى نظرة على مسرح الجريمة؟".

وافق المفتش قائلاً: "سأخذكم إلى هناك. أريدكم أن تروا آثار الأقدام".

فقال بوارو: "وأنا أيضاً أريد أن أراها. نعم. نعم. إنه أمر مثير، أمر غاية فى البراعة".

توجهنا من فورنا إلى مسرح الجريمة. سار فى المقدمة إنجلز والمفتش فيما جعلت بوارو يسير فى المؤخرة لأننى أردت أن أتحدث معه بعيداً عن مسامع المفتش فقلت له:

"ماذا تعتقد يا بوارو؟ هل تعتقد أن فى الأمر ما هو أكثر مما تراه العين؟".

أجاب بوارو: "هذا هو السؤال. لقد قال والى بكل وضوح فى خطابه إن الأربعة الكبار فى أثره. ونحن نعلم أن الأربعة الكبار ليسوا مجرد وسيلة لتخويف الأطفال. وعلى الرغم من أن كل شيء يقول إن جرانت قد ارتكب الجريمة، إلا أن السؤال هو لماذا قام بذلك؟ هل من أجل تلك التماثيل؟ أم أنه عميل للأربعة الكبار؟ أعترف أن هذا الاحتمال الأخير يبدو هو الأقرب للصحة، ومهما تكن قيمة تلك التماثيل فإنه من غير المحتمل أن يلاحظ رجل من طبقة جرانت أهميتها إلى الدرجة التى يرتكب جريمة من أجلها (وهذا أمر يجب أن يكون قد خطر بذهن المفتش) كان يمكنه سرقة تلك الأشياء وإخفاؤها بدلاً من ارتكاب جريمة وحشية كهذه. آه، أخشى أن يكون صديقنا القادم من ديفونشاير لم يستخدم خلاياه الرمادية. لقد اختبر مقاس الآثار ولم يهتم بالنظر فى أفكاره وإعادة ترتيبها بالأسلوب الأمثل والمنهج المناسب".

الفصل الرابع

أهمية فخذ الخروف

أخرج المفتش مفتاحاً من جيبه وفتح باب جرانيت بانجلو، كان الطقس صحواً وجافاً، لذا لم يكن من المتوقع أن تترك أقدامنا أثاراً، ومع ذلك فقد مسحناها جيداً على الحصيرة التي كانت موجودة أمام المدخل.

جاءت امرأة من الجوار وتحدثت مع المفتش الذي استدار إلينا ثم قال:

"قم بجولتك سيد بوارو وشاهد كل ما يمكن مشاهدته، وسأعود بعد 10 دقائق. بالمناسبة هذا هو حذاء جرانت، لقد أحضرته لكى تقارنوه بالأثار".

ذهبنا إلى غرفة المعيشة، فيما ابتعد صوت خطوات المفتش. وعلى الفور لفت انتباه إنجلز بعض التحف الصينية التي كانت موجودة فى أحد أركان الغرفة وذهب لفحصها، كان يبدو عليه عدم الاهتمام بما يقوم به بوارو. ومن جانبى، كنت أراقب بوارو وقد احتبست أنفاسى من فرط الإثارة. كانت الأرضية مغطاة بالمشمع الأخضر الداكن، الذى كان مناسباً جداً لكشف آثار الأقدام. كان هناك باب صغير فى نهاية الحجرة يقود إلى المطبخ الصغير، والذى كان به - هو الآخر - باب صغير يقود إلى حجرة غسيل الأوانى (والتي كان بها الباب الخلفى للمنزل كله). كذلك كان فى حجرة المعيشة باب يقود إلى حجرة نوم جرانت. فى هذه الأثناء كان بوارو يحادث نفسه وقد أنهى فحص الأرضية وكان يقول:

"هنا كانت الجثة ترقد. بقعة الدماء الكبيرة وكل الدماء المتناثرة توضح ذلك. آثار الخف المنزلى وحذاء عالى الرقبة (مقاس 9) كما تلاحظ، إلا أن المشهد كله مرتبك. ثم هناك أثران يأتیان ويذهبان من المطبخ. ومهما يكن القاتل فإنه قد سلك ذلك الطريق. هل لديك حذاء جرانت يا هاستنجز؟ أعطنى إياه". قارن بوارو الحذاء مع الآثار بدقة ثم قال: "حسناً، كل الآثار تعود لنفس الشخص، روبرت جرانت، لقد جاء من هذا الطريق ثم قتل الرجل وعاد إلى المطبخ، لقد داس فى الدماء، هل ترى تلك الآثار التى تركها بينما كان يغادر المكان؟ لا يمكن العثور على شئ فى المطبخ، فالقرية كلها قد خاضت فيه. ثم عاد إلى حجرته. لا، قبل ذلك عاد إلى مسرح الجريمة. هل كان ذلك لكى يحصل على التماثيل الثمينة؟ أم أنه نسى شيئاً ربما يدل على أنه القاتل؟".

قلتُ مقترحاً: "ربما قتل الرجل فى المرة الثانية التى عاد فيها؟".

قال بوارو: "يا صديقى. أنت لا تلاحظ شيئاً. هناك آثار قادمة من المطبخ فوق الآثار التى ذهبت إلى المطبخ وهذا معناه أنه عاد، وإننى أتساءل عن السبب الذى دفعه لذلك. هل عاد ليأخذ التماثيل بعدما أعاد التفكير فى الأمر؟ الأمر كله عبثى وغبى".

قلتُ: "لقد أدخل نفسه فى طريق مسدود".

رد بوارو قائلاً: "أليس كذلك؟ لقد قلتُ لك يا هاستنجز إن الأمر يخالف المنطق، إنه يتعارض مع ما تشعر به خلاياى الرمادية. دعونا نذهب إلى حجرة النوم. آه. نعم. هناك بقعة دماء صغيرة على عتبة الباب، وكذلك جزء من آثار قدمين ملطختين بالدماء. إنها آثار روبرت جرانت تلك التى كانت حول الجثة ولا أحد غيره، روبرت جرانت هو الوحيد الذى مشى بالقرب من المنزل من الخارج".

لكننى قلتُ فجأة: "ماذا عن السيدة العجوز؟ لقد كانت فى المنزل بينما كان جرانت فى الخارج يشتري اللبن، ربما تكون قد ارتكبت الجريمة وبعدها خرجت ولن تترك أقدامها آثاراً إذا لم تكن قد غادرت المنزل".

قال بوارو: "تخمين جيد يا هاستنجز. لقد كنت أتساءل إذا ما كان بمقدورك التوصل إلى تلك الفرضية. لقد فكرتُ فيها بالفعل لكننى استبعدتها. بيتسى أندروز امرأة من القرية ومعروفة جيداً فى هذه الأنحاء، ولا يمكن أن تكون على صلة بالأربعة الكبار. وبالإضافة إلى ذلك فإن والى العجوز كان رجلاً قوياً بكل المقاييس. إن تلك الجريمة من فعل رجل لا امرأة".

قلتُ: "لا أعتقد أن الأربعة الكبار كان لديهم كائن شيطاني مختبئ فى السقف، هبط وذبح الرجل العجوز ثم ارتفع مرة أخرى؟".

علق بوارو قائلاً: "مثل سلم يعقوب؟ أنا أعلم يا هاستنجز أن لديك خيالاً خصباً لكننى أناشذك أن تجعله يلزم حدوده".

انزويت جانباً فى ارتباك، بينما استمر بوارو فى فحص الغرف والدواليب وقد علا وجهه تعبير عميق من عدم الرضا. وفجأة صدر عنه صوت يعبر عن الانفعال كان أشبه بنباح كلب صيد. اندفعت باتجاهه لأرى ماذا هناك. كان يقف داخل خزانة حفظ اللحوم فى وضع درامى وقد أمسك فى يده فخذ خروف.

صحتُ قائلاً له: "بوارو العزيز. ما الذى جرى؟ هل أصابك الجنون فجأة؟".

قال لى: "انظر إلى هذا الفخذ، أرجوك، انظر جيداً".

نظرتُ إليه بأقصى ما أستطيع من دقة لكنه بدا لى فخذ خروف عادى جداً. قلتُ ذلك لـ بوارو، فرماني بنظرة مذهولة وقال:

"لكنك لم تر هذا وهذا... وهذا...".

وكان يوضح كل كلمة "هذا" من التى كان يقولها بإشارة إلى بعض الأجزاء فى الفخذ ويزيح بيده بعض قطع الثلج.

لقد اتهمنى بوارو للتو بأننى واسع الخيال، لكننى الآن أعتقد أنه أوسع خيلاً منى، هل يعتقد بالفعل أن بللورات الثلج تلك هى سم قاتل؟ كان هذا هو التفسير الوحيد الذى استطعت الوصول إليه لكى أبرر حماسه غير الطبيعى.

أوضحت له الأمر فى أدب قائلاً: "هذه قطعة لحم مجمدة. مستوردة من نيوزيلندا".

نظر إليها للحظة أو اثنتين ثم انفجر ضاحكاً بصورة غريبة وقال: "يا لك من مدهش يا صديقي! يظن أنه يعرف كل شيء، كل شيء! هذا هو صديقي هاستنجز".

ثم وضع فخذ الخروف فى مكانها وغادر دولاب حفظ الطعام ونظر من النافذة وقال: "هذا هو صديقنا المفتش قادم. هذا جيد. لقد رأيتُ كل ما يجب رؤيته". ثم أخذ يطرُق فوق المائدة وهو غارق فى التفكير ثم سألنى بعدها فجأة: "فى أى يوم من أيام الأسبوع نحن؟".

أجبته مندهشاً: "الاثنين. لماذا...؟".

قاطعنى قائلاً: "آه، الاثنين. يوم سيئ من أيام الأسبوع. من الخطأ أن تُرتكب جريمة كهذه يوم الاثنين".

وبينما نحن عائدان إلى حجرة المعيشة نقر على الزجاج المعلق على الحائط ونظر فى مقياس الحرارة وقال: "جو معتدل، 70 درجة على مقياس فهرنهايت. إنه يوم نموذجى للصيف الإنجليزى".

كان إنجلز لا يزال يفحص قطعاً من الخزف الصينى فسأله بوارو: "لم لا تبدو متحمساً لهذا التحقيق يا سيدي؟".

ابتسم إنجلز ببطء وقال:

"إنه ليس من مهمى، أنا خبير فى بعض الأمور. لكن ذلك ليس من بينها. لذلك وقفت فى المؤخرة وابتعدت عن الطريق. لقد تعلمت الصبر فى الشرق الأقصى".

دخل المفتش مندفعاً إلى داخل الحجرة وهو يعتذر عن غيابه الطويل، ولقد أصر على أن يصحبنا مرة أخرى إلى الأعلى لكننا فى النهاية استطعنا أن نرحل.

قال له بوارو ونحن نسير فى شوارع القرية: "أشكر لك تهذيبك أيها المفتش، لكننى أريد منك طلباً واحداً آخر".

سأله المفتش: "ربما تريد أن ترى الجثة سيدي؟".

قال بوارو: "أوه. يا عزيزى. لا! ليس لدى أدنى اهتمام بالجثة. أريد رؤية روبرت

جرانت".

هنا قال المفتش: "سيكون عليك أن تعود إلى موريتون لرؤيته يا سيدى".

قال بوارو: "جيد، سأفعل ذلك. لكننى يجب أن أقابله وأكلمه على انفراد".

وضع المفتش شفته السفلى على العليا ثم قال: "لا أستطيع ضمان ذلك يا سيدى".

عاد بوارو يقول: "إذا استطعت أن تتصل بسكوتلانديارد فإنه يمكنك أن تحصل على الصلاحيات الكاملة اللازمة لذلك".

قال له المفتش: "لقد سمعتُ عنك. وأعرف أنك قدمتَ لنا الكثير من الخدمات الآن وسابقاً. إلا أن ما تطلبه يعد انتهاكا كبيرا للقواعد".

قال بوارو فى هدوء: "ومع ذلك فإنه ضرورى، إنه ضرورى لهذا السبب. جرانت ليس هو القاتل".

صاح المفتش مندهشاً: "ماذا؟ من يكون إذن؟"

أجابه بوارو: "القاتل كما أتخيل هو شاب دخل إلى جرانايت بانجلو بمركبة يقودها جوادان. دخل إلى المنزل وارتكب الجريمة. وغادر وقاد مركبته مبتعداً، كان عارى الرأس وثيابه عليها بعض الدماء".

قال المفتش: "لكن... لكن البلدة كلها كانت ستراه".

لكن بوارو قال: "ليس تحت ظروف معينة".

عاد المفتش يقول: "ربما إذا كان الوقت ليلاً، لكن الجريمة ارتُكبتْ فى وضح النهار".

اكتفى بوارو بالابتسام فتابع المفتش كلامه قائلاً: "والجواد والعربة سيدى. كيف يمكنك أن تفسر لى الأمر؟ هناك الكثير من العربات ذات العجلات التى تمر فى الطرقات ولا توجد علامة على واحدة بعينها".

قال بوارو: "العلامة لا تلاحظها بأعين الجسد ولكن بأعين العقل، نعم".

وضع المفتش يده على جبهته ونظر إلى، كنتُ أنا وقتها فى كامل حيرتى لكننى كنت أثق فى بوارو. واستغرقت مناقشة أخرى كل المسافة التى قطعناها فى الطريق إلى موريتون بصحبة المفتش. توجهنا - بوارو وأنا - إلى جرانت. كنا ذاهبين لنلاقيه، إلا أن ضابطاً سيكون حاضراً خلال المقابلة. قال بوارو لـ "جرانت" بصورة مباشرة:

"جرانت. أعلم أنك برىء من التهمة. احك لى بالتفصيل عما حدث".

كان الرجل متوسط الطول، له ملامح غير لطيفة. بدا من أولئك الذين يطلق عليهم "معتادى التردد على السجون".

قال باكياً: "يعلم الله أنني لستُ القاتل، لقد وضع أحدهم هذه الأشياء الزجاجة في حاجياتي، إنها مؤامرة، هذا كل شيء، لقد ذهبتُ إلى غرفتي مباشرة بعدما عدتُ كما سبق أن قلت. لم أعرف أن شيئاً جرى إلا عندما صرخت بيتسى، لذلك، أنقذوني. بالله عليكم إنني لم أرتكب ذلك".

نهض بوارو قائلاً:

"إذا لم يكن بإمكانك أن تخبرني بالحقيقة فهذه نهاية الأمر".

قال جرانت: "لكن سيدي...".

قاطع بوارو بقوله: "لقد دخلتُ الحجرة. وعرفتُ أن سيدك قد قُتل. وكنتُ تعتزم الفرار لولا ما فعلته بيتسى عندما كشفت الأمر بصراخها المروع".

نظر الرجل إلى بوارو وقد سقط فكه السفلي من الدهول فقال له بوارو: "والآن. أليس الأمر كذلك؟ أدعوك بكل صدق وبكلمة شرف أن تكون صريحاً، هذه هي فرصتك الأخيرة".

قال جرانت فجأة: "سأتحمل المخاطرة. لقد دخلتُ المنزل وتوجهت مباشرة إلى سيدي وكان في حالته التي تعرفونها، ميت، والدماء تغطي المكان. شعرتُ بالهلع. سوف يبحثون في سجلي ويقولون إنني أنا القاتل، فانصب كل تفكيرى على الفرار فوراً، قبل أن يتم اكتشاف الجريمة".

سأله بوارو: "والتمثيل؟".

تردد الرجل

ثم قال: "حسناً....".

قاطع بوارو قائلاً: "لقد أخذتها بدافع غريزي. أليس كذلك؟ لقد سمعتُ سيدك يقول إنها عالية القيمة فشعرت أنك ربما يجب أن تحصل على بعض الربح. هذا ما فهمته، والآن أخبرني: هل دخلتُ الحجرة مرة ثانية لتأخذ التمثيل؟".

قال جرانت: "لم أدخل مرة ثانية، مرة واحدة كانت كافية لى".

سأله بوارو من جديد: "هل أنت متأكد؟".

أجابه جرانت: "متأكد جداً".

عاد بوارو يسأل: "جيد. والآن، منذ متى خرجتُ من السجن؟".

قال الرجل: "منذ شهرين".

فسأله بوارو: "وكيف حصلت على الوظيفة؟".

أجابه جرانت: "عن طريق أحد أعضاء جمعية من جمعيات مساعدة السجناء، قابلني شخص بعدما خرجتُ من السجن".

من جديد سأله بوارو: "كيف كان يبدو؟".

قال جرانت: "ليس رجل دين، ولكنه كان يبدو كذلك. قبعة سوداء ناعمة وطريقة سير متكلفة. له سن أمامية مكسورة، كان له مظهر مميز، كان اسمه سوندرز. وقال إنه يأمل أن أكون نادما وتائباً وبعدها وجد لى تلك الوظيفة. ولقد ذهبت إلى والى العجوز بتوصية منه".

نهض بوارو من جديد وقال: "شكراً لك. لقد عرفتُ كل شيء الآن، تحلّ بالصبر" ثم توقف عند مدخل الغرفة وقال: "لقد أعطى لك سوندرز زوجاً من الأحذية عالية الرقبة. أليس كذلك؟".

بدت على الرجل الدهشة الشديدة وقال: "ماذا؟ نعم، لكن كيف عرفت؟".

قال بوارو فى جدية: "إن عملى هو معرفة الأشياء".

وبعد كلمة أو اثنتين مع المفتش توجهنا نحن الثلاثة - بوارو وإنجلز وأنا - إلى مطعم "الطبي الأبيض" وطلبنا بيضا ولحماً إلى جانب بعض الشراب.

قال إنجلز وهو يبتسم: "هل من توضيح؟".

قال بوارو: "نعم، القضية واضحة جداً الآن كما ترى. سوف أعانى كثيراً حتى أثبت صحة فرضياتى. لقد قُتلَ والى بأمر من الأربعة الكبار. لكن القاتل ليس جرانت بل هناك رجل فى منتهى المهارة أوجد لجرانت الوظيفة وجعله كبش فداء، وهو ما كان أمراً سهلاً بالنظر إلى سوابق جرانت. لقد أعطاه زوج الأحذية. زوج من أصل زوجين بينما احتفظ ذلك الرجل لنفسه بالزوج الآخر. وبينما كان جرانت خارج المنزل وبيتسى تثرثر فى القرية (وهو الأمر الذى لابد أنها تفعله فى كل يوم من أيام حياتها)، وصل الرجل إلى المنزل وقد ارتدى الزوج الآخر من الحذاء ودخل المطبخ ثم غرفة المعيشة وأسقط الرجل العجوز بضربة على رأسه وبعدها ذبحه ثم عاد إلى المطبخ وخلع الحذاء وارتدى آخر ثم استقل عربته ذات الأحصنة وعاد أدراجه".

ثبّت إنجلز نظره على بوارو وقال: "لا تزال هناك نقطة غامضة. كيف لم يره أحد؟".

قال بوارو: "آه، هنا تكمن براعة الأربعة الكبار. لقد رآه الجميع وأيضاً لم يره الجميع، لقد جاء وهو يستقل عربة الجزار".

هتفت فى تعجب: "فخذ الخروف؟".

أجابنى بوارو قائلاً: "تماماً يا هاستنجز. فخذ الخروف. الكل أقسم أن غريباً لم يدخل

جرانايت بانجلو، لكن مع ذلك وجدت فى خزانة اللحوم فخذ الخروف ولا تزال مثلجة. وكان ذلك يوم الاثنين، لذلك فإن اللحوم يجب أن تكون قد تم تسليمها فى الصباح لأنه لو كان اليوم السبت وفى هذا الطقس الحار فإن اللحم لم يكن ليحتفظ بالثلوج فوقه. لذلك فقد دخل أحدهم إلى جرانايت بانجلو. رجل عليه بقعة من الدماء لا تثير الشكوك".

صاح إنجلز مؤيداً: "يا للعبقرية!".

قال بوارو: "نعم. إنه عبقرى، رقم أربعة".

غمغمت: "مثل هيركيول بوارو؟".

نظر إلى صديقى مؤنباً وقال فى هدوء: "هناك بعض النكات التى يجب ألا تسمح لنفسك بأن تقولها يا هاستنجز، ألم أنقذ رجلاً من الذهاب إلى حبل المشنقة؟ يكفى هذا ليوم واحد".

الفصل الخامس

اختفاء عالم

بالنسبة لى، لا أعتقد أن المفتش ميدوز كان مقتنعاً تماماً ببراءة روبرت جرانت المعروف بـ "بيجز" من تهمة قتل جوناثان والى، حتى بعدما برأته المحكمة. لقد كان الاتهام الذى وجهه إلى جرانت مستندا إلى سجله الإجرامى والتماثيل التى وجدها فى حاجياته والحذاء الذى يتطابق مع آثار الأقدام... هذا الاتهام كان متكامل الأركان بصورة تجعله أصعب من أن يصدق، أما بوارو - الذى اضطر إلى تقديم أدلة على الرغم من كراهيته ذلك - فقد أقنع المحكمة. ولقد أكد شاهدان أنهما رأيا عربة جزار تتجه إلى بانجلو صباح يوم الاثنين فيما قال الجزار المحلى إنه يذهب بعربته يومى الأربعاء والجمعة فقط.

كما قالت امرأة عند استجوابها إنها رأت بالفعل جزاراً يغادر بانجلو لكنها لم تستطع أن تدلى بوصف كاف له. الانطباع الوحيد الذى تركه فى ذهنها هو أنه كان حليقاً متوسط الطول وبدا بالفعل كجزار، بعد هذا الوصف هز بوارو كتفيه وقد بدت عليه أمارات الجدية.

وبعدما انتهت المحاكمة قال لى: "كما قلت لك يا هاستنجز. إنه فنان، هذا الرجل. لم يتنكر بالطرق التقليدية بارتداء لحية مستعارة ونظارة زرقاء. لقد بدل ملامحه. نعم. إلا أن هذا كان الجزء الأقل أهمية فى تنكره، بينما الجزء الأكبر فى أنه يعرف كيف يبدو فى الهيئة التى يريد بها. إنه يعيش الدور الذى يمثله".

وبالتأكيد فقد كنتُ مجبراً لأن أعترف بأن شكل الرجل الذى زارنا وقال إنه من هانويل كان يتفق تماماً مع ما تخيلته عن العاملين فى مستشفيات الأمراض العقلية، لم يراودنى شك أبداً فى أنه مزيف.

كان الأمر مُحبطاً قليلاً وبدا أن رحلتنا إلى دارتمور لم تفدنا على الإطلاق. قلتُ ذلك لبوارو، إلا أنه رفض الاعتراف بأننا لم نحصل على أى شىء على الإطلاق، بل قال: "نحن نتقدم. نحن نتقدم. وبكل اتصال مع ذلك الرجل نستطيع أن نعرف شيئاً قليلاً عن الطريقة التى يفكر بها بينما هو لا يعرف أى شىء عن خططنا".

اعترضتُ قائلاً: "الحقيقة يا بوارو أننى أشاركه الرأى، فأنا لا أعتقد أن لديك خطة، والظاهر أمامى هو أنك تجلس وتنتظر حتى يقوم هو بتحريك ما".

ابتسم بوارو وقال:

"يا صديقي، أنت لا تتغير. دائماً هاستنجز كما هو" ثم أضاف بعدما سمع الطرقات التي تصاعدت على الباب: "ربما تكون هذه هي فرصتك، فربما يكون صديقنا هو الذي سيدخل"، ثم ضحك بعدما رأى خيبة أملى عندما دخل المفتش جاب ومعه شخص آخر.

قال المفتش: "مساء الخير سيدي. اسمح لي بأن أقدم لك كابتن كنت من المخابرات الأمريكية".

كان كابتن كنت رجلاً أمريكياً طويلاً نحيلاً، له وجه جامد بلا انفعالات، وكأنها نحت من خشب.

وغمغم وهو يصفحنا: "سعيد لرؤيتكما، سيدي".

أضاف بوارو المزيد من الأخشاب إلى المدفأة وأحضر المزيد من المقاعد المريحة، فيما أحضرت أنا الشراب الذي أخذ الكابتن منه رشفة طويلة ثم أبدى استحسانه ثم ألقى بملاحظة قائلًا:

"إن القوانين في بلادكم لا تزال جامدة".

هنا قال جاب: "والآن إلي العمل، لقد طلب مني السيد بوارو طلباً محدداً. لقد كان مهتماً بصورة خاصة بما يُعرف بالأربعة الكبار وطلب مني أن أعلمه في حالة مرور هذا الاسم أمامي خلال عملي الرسمي. ثم ألق بالاً للأمر، لكنني تذكرت ما قاله لي، وعندما جاء الكابتن إلى هنا ومعه قصة غريبة إلى حد ما قلت: "يجب أن نذهب إلى بوارو".

نظر بوارو إلى كابتن كنت الذي التقط طرف الحديث قائلًا:

"ربما تتذكر سيد بوارو أنك قرأتَ عن أن مجموعة من المدمرات والزوارق المحملة بالطوربيدات قد غرقت أمام السواحل الأمريكية بعدما تحطمت على الصخور. كان ذلك بعد الزلزال الياباني، وكان تبرير تلك الكارثة هو أنها ناجمة عن موجة مد عالية سببها الزلزال. وبعد وقت قصير تم اعتقال مجموعة من اللصوص والمسلحين، وعثر معهم على بعض الأوراق التي رسمت صورة أخرى لما جرى. كانت تلك الأوراق تشير إلى منظمة تُعرف بالأربعة الكبار، وأعطت وصفاً غير كامل لجهاز لاسلكي... حشد للطاقة اللاسلكية أقوى من أي حشد تمت محاولة الوصول إليه من قبل؛ فهو قادر على تركيز حزمة من الطاقة على بقعة محددة. كان الادعاء بوجود مثل هذا الاختراع أمراً عبثياً، إلا أنني أخذت تلك الأوراق إلى مركز القيادة لعلهم يجدون فيها ما يستحق الاهتمام، وانكب أحد كبار العلماء على دراستها. والآن ظهر أن أحد علمائكم البريطانيين قدم ورقة للجمعية البريطانية عن الموضوع إلا أن زملاءه لم يبدوا الحماس الكافي تجاهها، واعتقدوا أنها - بكل المقاييس - نوع من الخيال الذي من غير الممكن الوصول إليه. إلا أن عالمكم تمسك باختراعه وأعلن أنه أجرى تجارب ناجحة عليه".

قال بوارو فى اهتمام: "حقاً؟".

تابع الأمريكى قائلاً: "وبات من المقرر أن أتى إلى هنا لكى أقابل عالمكم. إنه شاب يدعى هاليداي. إنه الخبير فى الموضوع الذى نحن بصدده، وكانت مهمتى هى أن أعرف ما إذا كان هذا الشئ ممكناً أم لا".

سألته فى لهفة: "وهل أصبح ممكناً؟".

أجابه كابتن كنت: "هذا هو ما لا أعرفه، لم أقابل سيد هاليداي. وليس من المتوقع أن أقابله على الإطلاق".

قال المفتش جاب باقتضاب: "حقيقة الأمر هى أن هاليداي اختفى".

أتاه سؤال: "متى؟".

قال: "منذ شهرين".

سأله بوارو: "وهل تم تسجيل غيابه؟".

قال المفتش: "بالطبع، جاءتنا زوجته فى حالة مريضة، ولقد فعلنا كل ما بوسعنا إلا أننا كنت أعرف أن كل ذلك بلا فائدة".

"ولماذا؟".

غمز بعينه قائلاً: "يكون الأمر بلا جدوى عندما يختفى شخص بهذه الطريقة".

سأله بوارو: "أية طريقة؟".

قال المفتش: "باريس".

قال بوارو متسائلاً: "إذن، فقد اختفى هاليداي فى باريس؟".

أجابه المفتش قائلاً: "نعم. ذهب إلى هناك فى مهمة علمية، هكذا قال، بالطبع كان يجب أن يقول شيئاً مثل هذا. لكن هل تعلم ماذا يعنى أن يختفى إنسان هناك؟ إما أن يكون قد اختفى على يد العصابات الباريسية، أو يكون اختفاؤه إرادياً، وهذا الاحتمال الثانى هو الأكثر قوة بين الاثنين. حياة المرح وما إلى ذلك كما تعرف. ربما يكون قد مل من حياته الخاصة، لقد تشاجر هاليداي مع زوجته قبل رحيله وهو الأمر الذى يجعل المسألة قضية واضحة".

قال بوارو مفكراً: "أتساءل إن كان هذا التفسير صحيحاً".

كان الأمريكى ينظر إليه فى فضول.

ثم قال فى بطء داعياً إياه إلى الكلام: "قل يا سيدى، ما هى طبيعة الأربعة الكبار؟".

قال بوارو: "الأربعة الكبار منظمة دولية يرأسها صينى يُعرف باسم رقم واحد. رقم

اثنان أمريكي ورقم ثلاثة فرنسية ورقم 4 "المدمر" وهو إنجليزي".

أطلق الأمريكي صغيراً وهو يقول: "امرأة فرنسية؟ أه، وهاليداي اختفى فى فرنسا. ربما يكون هناك شيئاً ما فى هذا الأمر، ما اسمها؟".

أجابه بوارو: "لا أعرف. لا أعرف شيئاً عنها".

قال كابتن كنت: "لكن تلك مشكلة كبيرة. أليس كذلك؟".

وافقه بوارو بهزة من رأسه بينما كان يرتب الأكواب فى الصينية على شكل صف، وهو ما يرجع إلى حبه الشديد للترتيب.

عاد الأمريكي يسأل بوارو: "وما هى الفكرة وراء إغراق الزوارق؟ هل الأربعة الكبار من المغامرين الألمان؟".

قال بوارو: "الأربعة الكبار يعملون لحساب أنفسهم، ولأنفسهم فقط سيدى الكابتن. إن هدفهم هو السيطرة على العالم".

انفجر الأمريكي ضاحكا إلا أنه توقف عندما رأى الجدية على وجه بوارو الذى قال وهو يشير إليه بإصبعه:

"أنت تضحك سيدى، أنت لم تفكر فى الأمر. لم تستخدم خلاياك الرمادية. من هم هؤلاء القوم الذين يدمرون جزءاً من بحريتك فى محاولة بسيطة لإثبات القوة؟ لقد كان لهذا الغرض يا سيدى. اختبار القوة ذات الجاذبية المغناطيسية التى يملكونها".

قال جاب مستمتعا بما يجرى: "أكمل سيدى. لقد قرأت كثيراً عن أولئك المجرمين من هذا الطراز الخارق، لكننى لم ألتق أحداً منهم قط. حسناً. لقد سمعت قصة كابتن كنت، فهل هناك شىء آخر أستطيع أن أقدمه لك؟".

قال بوارو: "نعم يا صديقى. يمكنك أن تعطينى عنوان السيدة هاليداي، وسيكون لطفاً منك إذا ما عرفت بها بي".

وعند ذلك توجهنا فى اليوم التالى إلى تشيتويند لودج قرب قرية كوبام فى سورى، وهناك استقبلتنا السيدة هاليداي فى الحال. كانت امرأة طويلة بيضاء متوترة وعصبية المزاج. وكان معها طفلتها فى الخامسة من عمرها.

شرح لها بوارو سبب الزيارة فقالت: "أوه! سيد بوارو. أنا سعيدة جداً. أنا فى غاية الامتنان. لقد سمعت عنك بالطبع. أنت لست مثل رجال سكوتلانديارد الذين لا يسمعون أو يحاولون الفهم، أو مثل الشرطة الفرنسية التى هى مثلهم أو أسوأ. إنهم كلهم مقتنعون أن زوجى فر مع امرأة أخرى، لكنه لم يكن من هذا الطراز. كان كل ما يفكر فيه هو العمل. نصف مشاحناتنا كانت لهذا السبب. لقد كان يهتم بعمله أكثر مما كان يهتم بي".

قال بوارو فى نعومة: "كل الرجال الإنجليز يتشابهون فى ذلك. وإذا لم يكن العمل فإنه اللعب، الرياضة. كل هذه الأشياء يعطونها اهتماما كبيرا. والآن سيدتى، أخبرينى بما حدث بالتفصيل وبالترتيب قدر الإمكان، اشرحن لى ظروف اختفاء زوجك".

قال السيدة هاليداي: "لقد ذهب زوجى إلى باريس يوم الثلاثاء، العشرين من يوليو. كان سيزور ويلتقى مع بعض الأشخاص ذوى الصلة بعمله، ومن بينهم السيدة أوليفيه". هز بوارو رأسه عندما جاء ذكر اسم الكيمائية الفرنسية الشهيرة التى تفوقت حتى على مدام كورى فى إنجازاتها العلمية. لقد كرمتها الحكومة الفرنسية وأصبحت واحدة من أكثر الشخصيات البارزة فى الوقت الحاضر.

تابعت السيدة هاليداي قائلة: "لقد وصل إلى هناك فى المساء وتوجه من فوره إلى فندق كاستيليون فى ريو دو كاستيليون. وفى الصباح التالى كان لديه موعد مع البروفيسور بورجونو والذى جاء بالفعل فى الموعد. كان سلوك زوجى طبيعياً ولطيفاً. انهمك الرجلان فى مناقشات علمية، وبعدها اتفقا على أن يذهب ليشاهد بعض التجارب العلمية فى معمل البروفيسور بورجونو فى اليوم التالى ولقد ذهب وحيدا إلى كافيه رويال ثم سار متنزهاً فى حى بوا، بعدها توجه ليلاقى السيدة أوليفيه فى منزلها فى باسى. وهناك أيضا كان سلوكه طبيعياً. وغادرها فى حوالى السادسة لكننى لا أعرف المكان الذى تناول فيه الغداء. ربما تناوله وحيدا فى أحد المطاعم. ثم عاد إلى الفندق فى حوالى الحادية عشرة وتوجه مباشرة إلى غرفته، بعد ما سأل عما إذا كانت قد وصلت إليه أية خطابات. وفى الصباح التالى خرج من الفندق ولم يره أحد بعدها ثانية".

سألها بوارو: "متى غادر الفندق؟ هل غادره فى الموعد المعتاد الذى يذهب فيه إلى معمل البروفيسور بورجونو؟".

أجابته الزوجة: "لا نعرف. فلم يشر إلى أنه سيغادر الفندق. إلا أنه لم يطلب طعام الإفطار الأمر الذى يعنى أنه غادر مبكراً".

علق بوارو قائلاً: "أو ربما غادر الفندق من جديد بعدما وصل إليه فى الليلة السابقة؟".

نفث الزوجة ذلك وقالت: "لا أعتقد ذلك. يبدو على فراشه أنه نام فيه، كما أن حارس بوابة الفندق سيتذكر بلا شك أى شخص يغادر الفندق فى هذه الساعة".

قال بوارو: "ملحوظة جيدة سيدتى. سنأخذها فى حسابنا. حسناً. لقد غادر الفندق فى الصباح على الرغم من أن ذلك لم يؤكد إلا طرف واحد فقط. إذن من غير المحتمل أن يكون قد وقع ضحية إحدى العصابات الباريسية فى مثل هذه الساعة. والآن إلى حقائبه. هل تركها كلها فى الفندق؟".

بدت السيدة هاليداي مترددة فى الإجابة، إلا أنها قالت فى النهاية: "لا، يبدو أنه أخذ

معه حقيبة صغيرة".

قال بوارو مفكراً: "هممم. إننى أتساءل عن المكان الذى كان فيه فى المساء. إذا ما عرفناه سنكون قد حققنا تقدماً كبيراً. مع من التقى؟ هنا يكمن اللغز. سيدتى، أنا شخصياً لا أقبل بالضرورة بنظرية الشرطة التى تقول (فتش عن المرأة) إلا أن هناك شيئاً ما جرى فى تلك الليلة وغير من خطط زوجك. لقد قلت إنه سأل عما إذا كان قد تلقى خطابات أم لا عند عودته إلى الفندق، فهل تلقى أى خطابات؟".

قالت: "خطاباً واحداً، وبالتأكيد كان الخطاب الذى كتبته له عندما غادر إنجلترا".

بدا بوارو غارقاً فى التفكير لدقيقة كاملة قبل أن ينهض بسرعة ويقول: "حسناً سيدتى. إن حل اللغز فى باريس. ولكى نتوصل إليه فسوف أسافر بنفسى إلى باريس فى الحال".

قالت له: "لقد اختفى منذ زمن طويل".

رد عليها قائلاً: "نعم. نعم. ومع ذلك هناك ما يجب أن نبحث عنه".

واستدار ليغادر الحجرة، إلا أنه توقف ويده على الباب وسألها: "أخبرينى سيدتى. ألا تتذكرين أن زوجك قد ذكر أمامك عبارة (الأربعة الكبار)؟".

رددت وهى تفكر: "الأربعة الكبار. كلا، لا أتذكر شيئاً كهذا".

الفصل السادس

سيدة السلام

كان ذلك كل ما استطعنا استخلاصه من السيدة هاليداي ثم أسرعنا بعدها إلى لندن. وفي اليوم التالي كنا في طريقنا إلى فرنسا. وبابتسامة حزينة أدلى بوارو بملاحظة قائلاً:

"الأربعة الكبار. لقد جعلوني أتحرك من مكاني يا صديقي. جعلوني أجرى للأعلى وللأسفل وفي كل مكان، مثل صديقنا القديم (صائد الثعالب البشري)".

قلتُ: "ربما تقابله في باريس"، قلتُها وأنا أعلم أنه يشير إلى جيرود، أحد أشهر المحققين في الشرطة الفرنسية والذي قابله بوارو سابقاً.

قال في ضيق: "أتمنى ألا أقابله، إن هذا الرجل لا يحبني".

سألتُهُ: "ألا تجد أنها مهمة صعبة أن تعرف ما الذي فعله رجل إنجليزي غير معروف ذات ليلة منذ شهرين؟".

قال: "صعبة جداً يا صديقي. ولكن مثلما تعرف، فإن الصعاب تسعد قلب هيركيول بوارو".

سألتُهُ من جديد: "هل تعتقد أن الأربعة الكبار اختطفوه؟".

أوماً بوارو برأسه بالإيجاب.

لم تؤد تحقيقاتنا إلى جديد، ولم نضف إلا القليل إلى ما قالته لنا سيدة هاليداي. كان لـ بوارو مقابلة مطولة مع البروفيسور بوجونو حاول خلالها أن يستشف ما إذا كان هاليداي قد كشف عن خططه لقضاء تلك الأمسية أم لا، إلا أن المحاولة باءت بالفشل.

كان مصدر معلوماتنا الثاني هو السيدة أوليفيه الشهيرة. كنت في قمة الإثارة ونحن نرتقي درجات فيلتها في باسى. لقد بدا لي ذلك أمراً فوق العادة أن تتعمق امرأة في مجال العلوم. لقد كنتُ أعتقد على الدوام أن مثل هذا النوع من العمل يحتاج إلى عقل ذكوري.

فتح لنا الباب صبي في حوالى السابعة عشرة من العمر، بدا لي كأنه مساعد لرجل

دين. كان بوارو قد تحمل عناء ترتيب اللقاء مسبقاً، نظراً إلى أن السيدة أوليفيه لا تقابل أحداً مطلقاً دون موعد سابق لانغماسها فى العمل البحثى غالبية اليوم.

قادنا الصبى إلى غرفة صالون صغيرة. وبعد ذلك بقليل جاءت سيدة المنزل. كانت السيدة أوليفيه طويلة جداً، وكان مما زادها طولاً هو المعطف الأبيض الذى كانت ترتديه إلى جانب قلنسوة على رأسها تشبه تلك التى ترتديها الراهبات. كان وجهها شاحباً طويلاً، بعينين سوداوين مدهشتين تلتمع فيهما نظرة متعصبة. كانت تبدو أشبه بكاهنات الأزمنة الماضية أكثر مما تشبه أى امرأة فرنسية معاصرة. على إحدى وجنتيها ظهرت آثار عملية جراحية وتذكرت أن زوجها وشريكها فى العمل لقى مصرعه فى انفجار فى المعمل قبل 3 أعوام فيما أصيبت هى بحروق جسيمة. ومن وقتها اعتزلت العالم وانغمست بقوة فى البحث العلمى. وقد استقبلتنا بتهذيب بارد.

قالت: "لقد التقيت مع رجال الشرطة عدة مرات، سيدى. أعتقد أنه من الصعب أن أخدمكما بالنظر إلى أننى لم أستطع أن أخدمهم".

قال بوارو: "سيدتى، من المحتمل أننى لن أسألك نفس الأسئلة. لنبدأ مما تكلمتما فيه معاً أنت والسيد هاليداي؟".

بدأت عليها الدهشة إلى حد ما وقالت:

"لم نتكلم إلا فى عمله. فى عمله وعملى!".

عاد يسألها: "هل عرض عليك النظريات التى ضمّنها فى الورقة التى قرأها أمام الجمعية البريطانية؟".

أجابته قائلة: "بالتأكيد فعل. لقد كان ذلك الموضوع الرئيسى الذى تكلمنا فيه".

سألها بوارو بلا اهتمام: "كانت أفكاره خيالية إلى حد ما، أليس كذلك؟".

قالت: "بعض الناس اعتقدوا ذلك، لكننى لا أتفق معهم".

قال متسائلاً: "هل ترينها قابلة للتطبيق؟".

ردت قائلة: "جداً، إن الخط الرئيسى لأبحاثى يتشابه معها، على الرغم من أنهما لا يلتقيان فى نفس النهاية. لقد كنت أجرى أبحاثى على قذف أشعة جاما بمادة تعرف باسم راديوم سى، وهو أحد نواتج الراديوم. وخلال التجارب مررت ببعض الظواهر المغناطيسية المثيرة. كما أن لدى نظرية حول طبيعة القوة المسماة بالقوة المغناطيسية، إلا أن هذا ليس وقت إعلان اكتشافاتى على العالم. كانت تجارب سيد هاليداي مهمة جداً بالنسبة لى".

وافقها بوارو بهزة من رأسه، ثم سألها سؤالاً فاجأنى إذ قال:

"سيدتى، أين تناقشتما فى هذه الموضوعات؟ هنا؟".

نفت ذلك قائلة: "لا سيدى، فى المعمل".

سألها: "هل لى أن أراه؟".

أجابته: "بكل تأكيد".

قادتنا إلى الباب الذى دخلت منه والذى كان يفتح على ممر صغير، وقد عبرنا بابين ثم وجدنا أنفسنا فى معمل كبير بكل ما فيه من معدات زجاجية وبوتقات وعشرات الأشياء التى لا أعرف أسماءها. وكان هناك شخصان مشغولان بإجراء تجربة ما قدمتهما لنا السيدة أوليفيه فقالت:

"آنسة كلود، إحدى مساعداتى" فانحنت فتاة طويلة تبدو على وجهها سمات الجدية فى تحية لنا. بعدها قالت سيدة أوليفيه: "السيد هنرى، صديق قديم ومخلص" فانحنى شاب قصير داكن البشرة محييا إيانا.

نظر بوارو حوله. كان هناك بابان فى المعمل غير الباب الذى دخلنا منه، فقالت لنا السيدة إن أحدهما يقود إلى الحديقة بينما الآخر يقود إلى حجرة أخرى أصغر مخصصة أيضا للأبحاث. استوعب بوارو كل تلك المعلومات وأعلن رغبته فى العودة إلى الصالون، ثم سألها: "سيدتى. هل كنت وحيدة مع السيد هوليداي خلال لقائكما؟".

قالت: "نعم سيدى، كان مساعدى فى الغرفة الصغيرة خلف الباب التالى".

من جديد سألها: "هل كان من الممكن لهما أو لأى شخص آخر التنصت على محادثتكما؟".

أخذت السيدة أوليفيه تفكر قليلاً ثم هزت رأسها بالنفى قائلة: "لا أظن ذلك. أنا متأكدة أن هذا غير ممكن، فكل الأبواب كانت مغلقة فسألها بوارو: "هل يمكن أن يكون هناك أى أحد مختبئ فى الغرفة؟".

أجابته: "هناك ذلك الدولاب الكبير الذى فى الركن، إلا أن الفكرة عبثية".

لكنه قال: "إطلاقاً سيدتى. شئ آخر إضافى: ألم يذكر لك سيد هوليداي أى شئ عن خططه لقضاء الليلة؟".

نفت ذلك قائلة: "لم يذكر أى شئ سيدى".

شكرها قائلاً: "شكراً لك سيدتى وأعتذر عن الإزعاج. لا ترهقى نفسك، فإنه يمكننا معرفة طريق الخروج".

دخلنا إلى الردهة وفى نفس اللحظة كانت هناك امرأة تدخل من الباب الأمامى وما إن رأتنا حتى أسرعت تجرى صاعدة السلالم وتركتنا، وقد اعترانى شعور بالحزن الكبير بعدما رأيت تلك الأرملة الفرنسية.

وألقى بوارو بملاحظة على ذلك قائلاً: "نوع غريب من النساء".

قلت له: "سيدة أوليفيه. نعم. إنها...".

قاطعنى قائلاً: "لا يا صديقى. ليست السيدة أوليفيه. بلا نقاش، لا يوجد الكثير من النساء على شاكلة السيدة أوليفيه فى العالم. لا، أنا أقصد المرأة الأخرى، المرأة التى صعدت السلالم".

قلت وأنا أسرح بنظرى: "لم أر وجهها. ولا أفهم فى الواقع كيف استطعت رؤيته. إنها لم تنظر إلينا قط".

قال بوارو فى هدوء: "هذا ما جعلنى أقول إنها من نوع غير معتاد من النساء. إن المرأة التى تدخل منزلها - وأعتقد أنه منزلها لأنها استخدمت مفتاحها الخاص عند الدخول - ولا تنظر حتى إلى وجه اثنين من الزوار الغرباء اللذين كانا فى ردهة المنزل لتعرف ماذا يريدان هى امرأة من طراز غريب. تقريباً غير طبيعية فى الواقع. ألف لعنة! ما هذا؟".

جذبنى بوارو للخلف فى الوقت المناسب فقد سقطت شجرة على الممر الجانبى وأفلتتا منها بالكاد وأخذ بوارو يحدق إليها بوجه شاحب منزعجاً.

قال بوارو: "لقد كان الأمر قريباً جداً. لكنه أسلوب أخرج. وعلى الرغم من أنه أخرج إلا أنه جاء فجأة لأنه لم يكن لدى أى شك. لم يكن لدى أية ذرة من الشك. وكاد ينجح لولا عيناى السريعتان مثل عيني القطعة. كاد هيركيول بوارو أن يسحق تحت تلك الشجرة. أية كارثة كانت ستحل بالعالم. وأنت أيضاً يا صديقى على الرغم من أن موتك لم يكن ليمثل كارثة قومية".

قلتُ فى برود: "شكراً، ماذا سنفعل الآن؟".

صاح بوارو: "نفعل؟ نحن سنفكر، من الآن فصاعداً سوف نستخدم خلايانا الرمادية الصغيرة. هناك السيد هاليداي، هل كان بالفعل فى باريس؟ نعم لأن البروفيسور بوجونو الذى يعرفه رآه وتكلم معه".

صحتُ فيه متسائلاً: "إلى ماذا ترمى؟".

قال: "كان هذا صباح يوم الجمعة، لقد شوهذ آخر مرة فى الحادية عشرة من ليلة الجمعة. ولكن هل هو حقاً من شوهذ؟".

قلتُ: "حارس الفندق....".

قاطعنى قائلاً: "إنه حارس ليلى. لم ير هاليداي من قبل. جاء رجل يبدو مثل هاليداي - ويجب أن نعرف بكفاءة الأربعة الكبار فى مجال التنكر - سأل عن خطابات ثم صعد السلالم وحزم حقيبة صغيرة ثم تسلل خارجاً فى صباح اليوم التالى. لم ير أحد هاليداي

فى تلك الأمسية لأنه كان بالفعل فى أيدي أعدائه. هل كان هاليداي هو الذى التقى بسيدة أوليفيه؟ نعم. كان هو على الرغم من أنها لا تعرفه على الطبيعة، فأى محتال لا يمكن أن يخدعها ويناقش معها أبحاثها الخاصة. لقد جاء إلى هنا والتقى مع السيدة. ماذا حدث بعد ذلك؟".

وبينما هو قابض على ذراعى جرّنى بوارو من جديد إلى داخل الفيلا وقال: "والآن يا صديقى. تخيل أنه اليوم الذى تلا اختفائه ونحن نقتفى آثار أقدام. أنت تحب آثار الأقدام، أليس كذلك؟ انظر. لقد جاءوا إلى هنا. هناك آثار أقدام رجل.... إنه سيد هاليداي. أه! هناك آثار أقدام أخرى تتبعه من الخلف بسرعة. آثار أقدام صغيرة. إنها لامرأة. انظر. لقد لحقت به. إنها امرأة نحيفة شابة ترتدى زى الأرامل وقالت له (معذرة سيدى، السيدة أوليفيه طلبت منى أن أستدعيك). توقف واستدار. والآن إلى أين سوف تأخذه تلك المرأة الشابة؟ إنها مصادفة أن تلحق به عند ممر ضيق يفصل حديقتين. لقد قادته عبر ذلك الممر، ولعلها قالت له (إن الطريق من هنا أقصر يا سيدى). على اليمين حديقة فيلا سيدة أوليفيه، وعلى اليسار حديقة فيلا أخرى. ومن تلك الحديقة الأخرى - إذا لاحظت - سقطت الشجرة قريباً جداً منا. إن بابى الحديقتين يُفتحان على نفس الممر. وهنا كان الكمين. تدفق الرجال وتغلبوا عليه وحملوه إلى داخل الفيلا الغربية".

صحتُ فى دهول: "يا إلهى. هل تصوّرتَ حدوث كل ذلك يا بوارو؟".

أجابنى بوارو: "لقد رأيته بعين العقل يا صديقى. لذلك - ولذلك فقط - فإنه تصور محتمل الحدوث. تعال، دعنا نعد إلى المنزل".

سألتُهُ: "هل تريد أن ترى سيدة أوليفيه من جديد؟".

ابتسم بوارو ابتسامة غريبة وقال:

"لا يا هاستنجز. أريد أن أرى وجه السيدة التى قابلناها على السّلم".

تساءلتُ: "ماذا تعتقد أنها تكون؟ إحدى قريبات سيدة أوليفيه؟".

أجاب قائلاً: "الأكثر احتمالاً أن تكون سكرتيرة. سكرتيرة التحقت بالعمل منذ فترة ليست بالطويلة".

فتح لنا نفس الصبى المهدب الباب فسأله بوارو:

"هل يمكنك أن تقول لنا اسم السيدة.. الأرملة.. التى دخلت هنا للتو؟".

تساءل الصبى: "سيدة فيرونو؟ سكرتيرة السيدة؟".

قال بوارو: "تماماً، إنها هى. سيكون لطفاً منك أن تذهب وتخبرها أننا نريد أن نتحدث معها للحظة".

اختفى الشاب ثم عاد وظهر من جديد بسرعة وقال: "معذرة لكن سيدة فيرونو خرجت من جديد".

إلا أن بوارو قال: "لا أعتقد ذلك. فقط أعطها اسمي، سيد هيركيول بوارو وقل لها إنه من المهم أن أراها الآن، أنا ذاهب حالا إلى المديرية".

من جديد رحل مرسائنا وفى هذه المرة ظهرت السيدة. سارت إلى الصالون وتبعناها ثم استدارت ورفعت الغطاء من على وجهها ولدهشتى تعرفتُ فيها على خصمنا القديم السيدة روساكوف. السيدة الروسية التى خططت لعملية ذكية لسرقة مجوهرات فى لندن.

قالت فى كآبة: "منذ اللحظة التى وقعت فيها عيناي عليكما فى الردهة وأنا أتوقع الأسوأ".

قال بوارو: "عزيزتى السيدة روساكوف....".

هزت رأسها وقاطعته مغممة: "إينيه فيرونو الآن. إسبانية متزوجة من فرنسى. ماذا تريد منى سيد بوارو؟ أنت رجل متعب. لقد طردتنى من لندن. والآن أعتقد أنك سوف تخبر سيدة أوليفييه الرائعة عنى. سوف تطردنى من باريس؟ مساكين نحن الروس. يجب أن نعيش كما تعلم".

قال بوارو وهو يراقب حركاتها: "الأمر أخطر من ذلك سيدتى. أنا أطلب الدخول إلى الفيلا المجاورة وإطلاق سراح سيد هاليداي إن كان على قيد الحياة. أنت ترين أننى أعرف كل شئ".

لاحظتُ شحوبها المفاجئ. عضتُ شفتيها ثم قالت بأسلوب طبيعى: "إنه على قيد الحياة لكنه ليس داخل الفيلا. تعال سيدى. سوف أعقد معك صفقة. الحرية لى مقابل سيد هاليداي حياً وبحالة جيدة لك".

قال بوارو: "موافق. لقد كنتُ على وشك أن أقدم أنا نفسى ذات العرض. بالمناسبة، هل تعملين لحساب الأربعة الكبار سيدتى؟".

من جديد رأيتُ شحوب الموتى يزحف على وجهها إلا أنها لم تُجِبْ عن سؤاله، وبدلاً من ذلك قالت:

"هل تسمح لى بإجراء مكالمة هاتفية؟" ثم سارت إلى حيث الهاتف وطلبت رقماً وقالت موضحة: "إنه رقم الفيلا المحتجز فيها صديقك. يمكنك أن تعطيه إلى الشرطة لكن العش سيكون خالياً عندما يصلون إلى هناك". ثم بدأت تخاطب من اتصلت به وقالت: "إنه أنا. هل أنت أندريه؟ إنه أنا إينيه. البلجيكي الصغير يعرف كل شئ. أرسل هاليداي إلى الفندق ونظف المكان".

وضعت سماعة الهاتف وعادت إلينا مبتسمةً فقال لها بوارو: "سوف ترافقينا إلى

الفندق سيدتى".

قالت: "بالطبع أوافق على ذلك".

أوقفتُ سيارة أجرة وانطلقنا بها سويا. استطعتُ رؤية وجه بوارو وعليه علامات الحيرة. كان الأمر غاية فى السهولة. وصلنا إلى الفندق وجاء إلينا الحارس وقال: "لقد وصل سيد مهذب إلينا. إنه فى حجرتكما ويبدو عليه التعب الشديد. لقد جاءت إليه ممرضة ثم رحلت".

قال بوارو: "هذا جيد، إنه صديق لى".

صعدنا إلى الأعلى معاً وفى داخل الحجرة وجدنا شاباً منهكاً يجلس بجوار النافذة. كان يبدو أنه وصل إلى أقصى درجات الإجهاد. توجه بوارو إليه وسأله:

"هل أنت جون هاليداي؟" فهز الرجل رأسه بالإيجاب فقال له بوارو: "أعطني ذراعك اليسرى. لقد كان لـ جون هاليداي شامة أسفل كوعه الأيسر".

مد الرجل ذراعه وكانت الشامة فى ذات المكان. فانحنى بوارو إلى السيدة روساكوف فاستدارت وغادرت المكان.

تحسنت حالة هاليداي قليلا بعدما تناول بعض الشراب وتمتم:

"يا إلهى. لقد كنتُ فى الجحيم، الجحيم، هؤلاء الأشرار شياطين فى شكل بشر. زوجتى. أين هى؟ كيف تفكر فى الأمر؟ لقد قالوا لى إنها سوف تصدق... سوف تصدق...".

قال بوارو فى حزم: "إنها لم تصدق. إن ثقتها فىك لم تتزعزع، إنها تنتظرك هى والطفلة".

قال هاليداي: "حمدا لله على ذلك. لأننى عدتُ حرا من جديد".

قال له بوارو: "الآن لقد تحسنت حالتك قليلا سيدى. أريد سماع القصة كاملةً من البداية".

نظر إليه هاليداي وعلى وجهه تعبير لا يمكن وصفه وقال:

"أنا لا أذكر شيئا".

صاح فيه بوارو: "ماذا؟".

سأله هاليداي: "هل سمعتَ عن الأربعة الكبار؟".

قال بوارو فى لهجة جافة: "سمعتُ بعض الأشياء عنهم".

فقال له هاليداي: "أنت لا تعرف ما أعرفه أنا. إن لديهم قوة مطلقة. إذا ما بقيتُ

صامتا فسأكون فى أمان وإذا ما تفوهتُ بكلمة لا أكثر فإننى سأعانى من متاعب كبيرة، لست وحدى فقط، بل كل القرييين منى والأعزاء لدى سوف يعانون من أشياء لا يمكن الحديث عنها. لا فائدة من النقاش معى، أنا لا أذكر ولا أعرف شيئاً".

ونهض من مكانه مغادرا الحجرة.

بدت على وجه بوارو ملامح الحيرة وغمغم:

"إذن فالأمر كذلك؟ الأربعة الكبار يكسبون من جديد. ما الذى تمسكه فى يدك يا هاستنجز؟".

أعطيته ما أمسك وقلتُ له موضحا: "لقد كتبته الكونتيسة لك على عجل قبل أن ترحل".

قرأه فوجد مكتوبا "IV" فقال: "IV إنها الحروف الأولى من اسمها. ربما يكون من المصادفة أن هذه العلامة تعنى رقم أربعة فى أعداد الرومانية. إننى فى حيرة يا هاستنجز، فى حيرة حقاً".

الفصل السابع

لصوص الراديو

بات هاليداي ليلة إطلاق سراحه فى الحجرة المجاورة لحجرتنا فى الفندق، وطوال الليل كنتُ أسمعُه يئن ويحتج خلال نومه، بالتأكيد تسببت التجربة التى مر بها فى الضيلا فى انهيار أعصابه، وفى الصباح فشلنا تماما فى انتزاع أية معلومات منه؛ إذ كرر لنا مقولته عن القوة غير المحدودة التى تحوزها عصابة الأربعة الكبار وتأكيده على أنهم سوف ينتقمون منه إذا ما تكلم.

بعد الغداء رحل لكى يعود إلى زوجته فى إنجلترا، لكن بوارو وأنا من خلفه بقينا فى باريس، كنتُ أتوقع القيام ببعض التحركات والأنشطة بشكل أو بآخر فى الفترة القادمة، إلا أن سكون بوارو ضايقنى.

فقلتُ مستحثاً إياه: "بحق السماء يا بوارو، دعنا ننطلق فى أثرهم".

فرد علىّ قائلاً: "رائع يا صديقى، رائع! ننطلق إلى أين، وخلف مَنْ؟ كن محدداً من فضلك".

قلتُ: "خلف الأربعة الكبار بالطبع".

قال هو: "حسناً. لكن ما هى الخطة التى وضعتها لكى نتعقبهم".

قلتُ فى تشكك: "الشرطة".

فابتسم بوارو وقال: "سوف يتهموننا بالمبالغة، لا يوجد لدينا أى شىء نبلغ به الشرطة، أى شىء. يجب أن ننتظر".

"ننتظر ماذا؟".

قال بوارو: "ننتظر قيامهم بخطوة. فكما تعلم، أنتم فى إنجلترا تفهمون وتعشقون الملاكمة؛ فإذا لم يقم أحد الملاكمين بخطوة فإن الآخر يجب أن يحذو حذوه. لأنه بالسماح للخصم أن يهاجم فإن المرء يمكنه وقتها أن يعرف المزيد عنه، وهذا هو دورنا؛ أن نسمح للطرف الآخر بأن يهاجم".

سألته متشككاً: "هل تعتقد أنهم سوف يفعلون ذلك؟".

قال: "ليس لدى أدنى شك فى ذلك. لنذهب إلى البداية، لقد حاولوا إخراجى من

إنجلترا، وفي دارتمور تدخلنا وأنقذنا ضحيتهم من حبل المشنقة، وبالأمس تدخلنا في شئونهم من جديد، ومن المؤكد أنهم لن يتركوا الأمر يمر بسهولة".

بينما كنت أفكر في ذلك إذ تعالى صوت طرقات على الباب، وبدون انتظار أى رد دخل رجل إلى الحجرة وأغلق الباب خلفه، كان رجلاً طويلاً نحيفاً، له أنف معقوف قليلاً وبشرة شاحبة. كان يرتدى معظفاً أغلق أزراره حتى عنقه، إلى جانب قبعة ناعمة الحواف أرخاها على عينيه.

قال الرجل في صوت هادئ: "اعذرانى سيدى على طريقة دخولى غير المهدبة، إلا أن عملى ذو طبيعة خاصة".

ومبتسماً، تقدم إلى المنضدة وجلس عليها. كنت على وشك الانقضاض عليه لولا أن منعى بوارو بإشارة منه ثم قال للرجل:

"كما قلت يا سيدى فإن دخولك كانت تنقصه الكياسة، هلا تفضلت وأوضحت لنا طبيعة عملك؟".

قال الرجل: "عزيزى سيد بوارو، الأمر بسيط، أنت تزعج أصدقائي".

سأله بوارو: "فى أى شىء؟".

قال الرجل: "يا رجل، أنت لست جاداً فى هذا السؤال، أنت تعرف كما أعرف أنا".

لكن بوارو عاد يقول: "إن الأمر يتوقف سيدى على من هم أصدقاؤك".

وبدون كلمة أخرج الرجل من جيبه علبة سجائر ومنها أخرج 4 سجائر وقذفهم على المائدة. بعدها أخذها ووضعها من جديد فى العلبة ثم أعادها إلى جيبه.

هنا قال بوارو: "حسناً! الأمر كذلك إذن؟ وماذا يرى أصدقاؤك؟".

قال الرجل: "إنهم يرون يا سيدى أنك يجب أن تستخدم قدراتك - قدراتك الجديرة بالاحترام - فى الجرائم التقليدية، عد إلى سابق هوايتك وحل مشكلات المجتمع النسائى فى لندن".

قال بوارو: "اقتراح جيد. وماذا إذا رفضت؟".

قال الرجل فى تهذيب: "سنشعر بالأسف لذلك كثيراً، وكذلك سيشعر كل أصدقاء سيد هيركيول بوارو العظيم ومحبيه بالأسف على الرغم من أن الشعور بالأسى لا يعيد الإنسان إلى الحياة من جديد".

هز بوارو رأسه وقال: "كلام مباشر جداً، وماذا إذا وافقت؟".

أجابه الرجل: "فى تلك الحالة فأنا لىّ الصلاحيات لأن أقدم لك تعويضاً"، ثم أخرج محفظة من جيبه، ومنها أخرج 10 أوراق مالية كل منها بـ 10 آلاف فرنك فرنسى

وتابع قائلاً: "هذا مجرد تعبير عن إخلاصنا. إنه عشرة أضعاف المبلغ الذى كنت سوف تناله".

صحتُ وأنا أقفز: "يا إلهى، هل تجرؤ على التفكير....".

لكن بوارو أشار فى صرامة وقال: "اجلس يا هاستنجز. عد إلى طبيعتك اللطيفة والنزيلة واجلس. وأنت يا سيدى. إليك أقول هذا: ما الذى يمنعنى من استدعاء الشرطة ووضعك فى الحجز بينما يمنعك صديقى هذا من الفرار؟".

قال الزائر فى هدوء: "افعل ذلك إذا كنت ترى أنه أمر يستحق الفعل".

عدتُ أصبح قائلاً: "أوه! انظر هنا يا بوارو. أنا لا أستطيع احتمال ذلك. استدع الشرطة ولننته من هذا الأمر".

ثم نهضتُ بهدوء وتوجهت نحو الباب ووقفتُ وظهرى إليه.

غمغم بوارو وكأنما يحاور نفسه: "يبدو أن الأمر يسير بالطريقة المعتادة".

قال زائرنا مبتسماً: "ولكنك لا تثق فى الأمور المعتادة والظاهرية، أليس كذلك؟".

قلتُ مستحناً بوارو: "هيا".

قال بوارو: "سيكون الأمر على مسئوليتك يا صديقي".

وبينما كان بوارو يرفع سماعة الهاتف قفز الرجل على فجأة قفزة خاطفة تشبه قفزات القطط. كنت مستعداً له: وفى خلال دقيقة كنا قد اشتبكنا فى صراع وأخذنا ندور فى الحجرة. فجأة شعرت به ينزلق ويترنح فواصلت العراك محاولاً إثبات تفوقى فتهاولى أمامى. بعد ذلك وفى غمرة الانتصار حدث شئ غريب. وجدت نفسى أطيير إلى الأمام. ثم اصطدمت بالحائط برأسى أولاً ثم ببقية جسدى لكننى فى لحظة واحدة كنت قد تمكنت من الوقوف إلا أن الباب كان قد أغلق بالفعل خلف خصمى السابق. اندفعت نحو الباب وأخذت أهزه، لكنه كان مغلقاً من الخارج فاخترقت الهاتف من بوارو وقلت: "هنا المكتب؟ أوقفوا الرجل الذى سيحاول الخروج. رجل طويل بمعطف مغلق الأزرار وقبعة، إنه مطلوب للشرطة".

لم تمض دقائق قليلة حتى سمعنا صوت ضوضاء قادمة من الممر فى الخارج. ثم سمعنا صوت دوران المفتاح فى الباب الذى انفتح بعنف، كان المدير بنفسه يقف فى الممر.

صحتُ متسائلاً: "الرجل، هل أمسكتموه؟".

قال المدير: "لا سيدى، لم ينزل أحد".

قلتُ لهم: "لا بد أنكم سمحتم له بالخروج".

لكنه عاد يقول: "لم ندع أى شخص يخرج، إنه أمر مذهل أن يتمكن من الفرار".
قال بوارو بصوته المهدب: "أعتقد أنكم سمحتم لأحد الأشخاص بالخروج. ربما أحد العاملين فى الفندق؟".

قال المدير: "فقط نادل يحمل صينية".

قال بوارو فى صوت من يتكلم عن ثقة: "آه".

وقال لى بعدما انصرف ذلك الحشد الهائج من موظفى الفندق: "لهذا السبب كان يرتدى معطفاً مغلقاً حتى ذقنه".

قلتُ فى صوت خفيض وأنا أشعر بالخيبة: "أنا آسف جداً يا بوارو. ظننتُ أننى تغلبت عليه".

قال بوارو: "نعم. أعتقد أنها خدعة يابانية، لا تضايق نفسك يا صديقى. كل شىء يسير وفق الخطة وهذا ما أريد".

لكننى صحتُ وأنا أشير إلى جسم بنى ملقى على الأرض: "ما هذا؟".

كانت حافظة نقود صغيرة من الجلد البنى. وبدا من الواضح أنها سقطت من جيب الزائر خلال صراعه معى. كان بها فاتورتا استلام باسم "سيد فليكس لون" وورقة مطوية أسرععت معها دقات قلبى. كانت نصف ورقة من أوراق المفكرات كُتِبَ عليها فى عجلة بضع كلمات كانت فى غاية الأهمية:

(اللقاء القادم للمجلس سيكون يوم الجمعة فى 34 شارع ديز إيكلى فى الحادية عشرة صباحاً).

وكان عليها توقيع عبارة عن رقم 4 كبير.

كان اليوم هو الجمعة وكانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف صباحاً.

صحتُ فى انفعال: "يا إلهى، يا لها من فرصة! إن القدر يلعب لصالحنا. يجب أن نبدأ على الفور. يا له من حظ رائع".

غمغم بوارو: "لهذا السبب جاء إذن، الآن فهمتُ كل شىء".

تساءلتُ مندهشاً: "ماذا فهمتَ يا بوارو؟ هيا يا رجل. لا تجلس هنا غارقاً فى أحلام اليقظة".

نظر إلى بوارو وهز رأسه وهو يبتسم وقال: "(قال العنكبوت للذبابة هل تسيرين على الخيوط فى بيتى؟) هذه أغنية يعلمونها للأطفال فى دور الحضانة الإنجليزية، أليس كذلك؟ إنهم ماكرون. لكنهم ليسوا فى مكر هيركيول بوارو".

قلتُ متسائلاً فى تعجب: "ما الذى ترمى إليه يا بوارو؟".

أجابنى قائلاً: "يا صديقى. لقد كنتُ أسأل نفسى عن سر تلك الزيارة الصباحية. هل كان يأمل الزائر بالفعل فى إقناعى بقبول الرشوة؟ أو بدلاً من ذلك تخويفى ودفعى إلى الابتعاد عن مهمتى؟ يبدو ذلك صعب التصديق، لماذا إذن جاء؟ الآن أستطيع أن أفهم الخطة. خطة محكمة جداً وبارعة جداً. محاولة الرشوة المزعومة وكذلك محاولة تخويفى... الصراع الضرورى الذى لم يحاول أن يتجنبه والذى كان يهدف منه إلى جعل سقوط محفظة نقوده حدثاً طبيعياً ومنطقياً... وفى النهاية الفخ! شارع ديز إيكلى فى الحادية عشرة صباحاً؟ لا أعتقد ذلك يا صديقى! لا يمكنهم اختطاف هيركيول بوارو بهذه البساطة!".

شهقتُ قائلاً: "يا إلهى!".

أما بوارو فقد قَطَبَ جبينه وقال: "لا يزال هناك أمر واحد لم أفهمه".

سألتُهُ: "ما هو؟"

قال بوارو: "الوقت يا هاستنجز. الوقت. إذا كانوا يريدون أن يوقعونى فى الفخ فإن الليل سيكون هو الوقت المناسب. فلماذا هذه الساعة المبكرة؟ هل من المحتمل أن يكون هناك أمر سيحدث هذا الصباح؟ أمر يحرصون على ألا يعرف هيركيول بوارو عنه أى شىء؟".

ثم هز رأسه وقال:

"سنرى. سوف أجلس هنا يا صديقى. لن نتحرك هذا الصباح، سوف ننتظر وقوع الأحداث".

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف عندما جاءنا خطاب استدعاء. كان لونه أزرق صغير الحجم. مزق بوارو المظروف ثم فتحه وبعد ذلك سلمه لى. كان من السيدة أوليفيه أشهر عالمة فى العالم، والتي زرتها أمس بسبب قضية هاليداي. كان تطلب منا الحضور إلى "باسى" فى الحال.

لبينا النداء بدون أية لحظة تأخير، واستقبلتنا السيدة أوليفيه فى نفس الصالون الصغير. من جديد شعرتُ بالانبهار للتأثير المدهش الذى تتمتع به تلك المرأة بوجهها الشبيه بوجه الراهبات وعينيها المتوقدتين. كانت خليفة لـ "بيكيريل وكورى"، ولقد دخلت فى الموضوع مباشرة قائلة:

"أيها السيدان. لقد قابلتُمانى بالأمس بشأن اختفاء سيد هاليداي. الآن علمتُ أنكما عدتما إلى المنزل مرة أخرى وطلبتما رؤية سكرتيرتى. إينى فيرونو. لقد غادرت المنزل بصحبتكما ولم تعد من وقتها".

سألها بوارو: "هل هذا كل شىء سيدتى؟".

أجابته قائلة: "لا سيدى. ليس هذا كل شىء. الليلة الماضية تم اقتحام المعمل وتمت

سرقة العديد من الأوراق والمفكرات القيمة. لقد كان اللصوص يحاولون العثور على شيء أكثر قيمة إلا أنهم لحسن الحظ فشلوا فى فتح الخزانة الكبيرة".

قال بوارو: "سيدتى، إليك حقيقة تلك الأمور: سكرتيرتك السابقة السيدة فيرونو هى فى الأصل السيدة روساكوف؛ لصة محترفة، وكانت هى المسئولة عن اختفاء السيد هاليداي. منذ متى وهى تعمل فى خدمتك؟"

أجابته قائلة: "منذ خمسة شهور سيدى، إن ما تقوله يثير دهولى".

لكنه قال: "ومع ذلك فهو حقيقى. هذه الأوراق، هل كان من السهل العثور عليها؟ أم أنك تعتقدين أنهم وصلوا إليها عن طريق معلومات وصلتهم من الداخل؟".

قالت: "إنه أمر عجيب أن يعلم اللصوص أين يبحثون عن تلك الأوراق تحديداً، هل تعتقد أن إينى...".

قاطعها قائلاً: "نعم. ليس لدى أدنى شك فى أن اللصوص اعتمدوا على المعلومات التى قدمتها لهم، لكن ما هو الشيء الثمين الذى فشل اللصوص فى العثور عليه؟ مجوهرات؟".

هزت السيدة أوليفيه رأسها نفيًا وعلى وجهها ابتسامة شاحبة وقالت:

"إنه شيء أثمن من ذلك سيدى"، ثم تلفتت حولها ومالت إلى الأمام وقالت فى صوت خفيض: "الراديوم سيدى".

قال بوارو: "راديوم؟".

أجابت قائلة: "نعم سيدى. أنا الآن فى ذروة تجاربى. ولدى كمية صغيرة من الراديوم، وسوف يتم إرسال المزيد لى من أجل التجربة التى أقوم بها. وعلى الرغم من أن تلك الكمية صغيرة إلا أنها تمثل نسبة كبيرة من كل الراديوم الموجود فى العالم، وتساوى ملايين الدولارات".

"وأين هى؟".

قالت: "فى حافظتها فى الخزانة الكبيرة. إن الخزانة تبدو كما لو كانت قديمة ومتهالكة، وهذا شيء متعمد، إلا أنها فى الواقع فخر صناعة الخزائن فى العالم، وربما لهذا فشل اللصوص فى فتحها".

"إلى متى سوف تحتفظين بهذا الراديوم فى حوزتك؟".

قالت: "يومان إضافيان سيدى، وبعدها سوف تكون تجاربى قد انتهت".

التمعت عينا بوارو وقال: "وكانت إينى فيرونو تعلم هذه الحقيقة؟ جيد. إذن، سوف يعود أصدقائنا مرة أخرى. لا تقولى أية كلمة عنى لأى مخلوق، لكن كونى مطمئنة.

سأحافظ لك على الراديو، هل لديك مفتاح للبواب الذى يقود من الحديقة إلى المعمل؟".

أجابته قائلة: "نعم سيدى، ها هو ذا. لدى نسخة أخرى. وهذا هو مفتاح باب الحديقة الذى يؤدى إلى الممر الكائن بين هذه الفيلا والفيلا الأخرى".

قال بوارو: "أشكرك سيدتى. الليلة، اذهبي إلى فراشك كالمعتاد ولا تخشى شيئاً واتركى الأمر لى. لكن لا تقولى شيئاً لأى شخص خاصة مساعديك الأنسة كلود والسيد هنرى".

غادر بوارو الفيلا وهو يفرك كفيه فى استمتاع كبير.

سألته: "ماذا سنفعل الآن؟".

قال بوارو: "الآن يا هاستنجز سوف نغادر باريس إلى إنجلترا".

من جديد سألته: "ماذا؟".

فقال: "سوف نحزم حقائبنا ونتناول غداءنا ثم نتوجه إلى محطة الشمال".

عدتُ أسأل: "لكن ماذا عن الراديو؟".

رد على قائلاً: "لقد قلتُ إننا سوف نغادر إلى إنجلترا ولكننى لم أقل سوف نصل إلى هناك. فكّر للحظة يا هاستنجز. بالتأكيد نحن مراقبون، وهناك من يتتبعنا. يجب أن يصدق أعداؤنا أننا سوف نرحل إلى إنجلترا، ومن المؤكد أنهم لن يصدقوا ذلك إلا إذا رأونا على متن القطار ونحن نبدأ الرحلة".

سألته: "هل تقصد أننا سوف ننسل عائدتين مرة أخرى فى اللحظة الأخيرة؟".

لكن بوارو قال: "لا يا هاستنجز. لن يسعد أعداؤنا لشيء إلا لرحيلنا الحقيقى".

قلتُ له: "لكن القطار لا يتوقف إلا فى كاليه".

فقال هو: "سيتوقف إذا دُفعَ له لى يتوقف".

صحتُ قائلاً: "لا يا بوارو. لا يمكنك أن تدفع قطاراً سريعاً إلى التوقف، سيرفضون".

لكنه قال: "ألم تلاحظ أبداً ذلك المقبض الصغير... مقبض التوقف؟ عقوبة الاستخدام غير المناسب 100 فرنك حسبما أعتقد".

سألته: "أوه! هل تنوى أن تجذبه؟".

قال: "صديق لى يُدعى بيير كومبو سيفعل ذلك. وبينما هو يتناقش مع الحرس ويحدث جلبه كبيرة تشغل انتباه القطار كله سوف نخطفى بهدوء".

نفذنا خطة بوارو تماماً. بيير كومبو أحد أصدقاء بوارو القدامى - والذى بالتأكيد

يعرف طرق صديقى الصغير جيداً - نفذ الخطة كاملة. لقد جذب سلك الاتصالات بمجرد أن وصلنا إلى ضواحي باريس. لقد أحدث بيير كومبو جلبة حقيقية على الطراز الفرنسى، وتمكنا - بوارو وأنا - من الابتعاد دون أن يُلقى أحد بالاً إلى ذلك. كانت خطوتنا الأولى هى إجراء تغيير جذرى على مظهرنا وكان بوارو قد أحضر فى حقيبة صغيرة الأدوات التى سوف نستخدمها من أجل ذلك؛ قميصان زرقاوان متسخان، وحذاءان من أحذية المتشردين كانا كافيين لتغيير مظهرنا، ولقد تناولنا العشاء فى فندق صغير كئيب، وبدأنا العودة إلى باريس بعد ذلك.

كانت حوالى الحادية عشرة مساء عندما وجدنا أنفسنا من جديد بجوار فيلا السيدة أوليفيه، راقبنا الطريق قبل أن نتسلل إلى الممر. كان المكان يبدو مهجوراً تماماً. الشيء الوحيد الذى كنا متأكدين منه هو أنه لا أحد يتبعنا.

همس بوارو لى: "لا أتوقع أن يكونوا قد جاءوا. ربما لا يأتون إلا غداً ليلاً، إلا أنهم يعلمون أنه لم يتبق إلا ليلتان على وجود الراديو فى المنزل".

وبحرص أدركنا مفتاح باب الممر المطل على الحديقة فانفتح بدون أى صوت وقفزنا داخل الحديقة.

بعد ذلك ودون أدنى توقع هبت العاصفة، وفى دقيقة كنا محاصرين ومكتمى الضم ومقيدين، عشرة رجال - على الأقل - كانوا فى انتظارنا. كانت المقاومة بلا فاعلية ولدهشتى الشديدة أخذونا إلى المنزل وليس بعيداً عنه. وباستخدام مفتاح فتحوا الباب المؤدى من الحديقة إلى المعمل وحملونا إلى الداخل. انحنى أحد الرجال على خزانة كبيرة وفتح بابها. شعرت بالقشعريرة تجتاح ظهري، هل سيضعوننا داخل تلك الخزانة ويتركوننا نختنق ببطء؟

إلا أننى - ولدهشتى - رأيت داخل الخزانة درجات تقود إلى أسفل الأرضية، ثم دفعونا داخل ذلك الطريق الضيق الذى انتهى أخيراً إلى حجرة تحت الأرض. كانت هناك امرأة طويلة تقف وتبدو مسيطرة على الأمور، وقد غطى وجهها قناع من القطيفة السوداء، كان من الواضح أنها هى التى تحكم المكان بسبب إشاراتها الأمرة، ثم ألقانا الرجال على الأرض وتركونا مع هذا المخلوق الغامض ذى القناع، لم يكن لدى أدنى شك فى هويتها. هذه هى المرأة الفرنسية غير المعروفة والتى تحمل رقم 3 فى عصابة الأربعة.

جثت على ركبتىها بجوارنا ونزعت الأغطية من على فمينا لكنها تركتنا مقيدين ثم نهضت وواجهتنا وبحركة حادة نزعت القناع.

لقد كانت السيدة أوليفيه!

قالت ساخرة: "سيد بوارو! العظيم، المدهش، الفريد. سيد بوارو لقد أرسلت لك تحذيراً صباح أمس. لكنك اخترت أن تتجاهله. لقد اعتقدت أنك قادر على استخدام ذكائك فى محاربتنا. والآن، أنت هنا!".

كانت هناك نبرة برودة فى صوتها جمدتنى حتى النخاع. كانت تلك البرودة تتناقض تماماً مع النيران التى اندلعت فى عينيها. كانت مجنونة، مجنونة جنون العباقره!

لم يقل بوارو شيئاً، كان فمه مفتوحاً اندهاشاً وكان يحدق إليها.
قالت فى نعومة: "حسناً، هذه هى النهاية، لا يمكن أن نسمح لأحد بأن يتدخل فى خططنا. هل لديك أى طلب أخير؟".

لم أمر بأية لحظة - لا من قبل ولا من بعد ذلك الموقف - شعرت فيها بأن الموت كان قريباً إلى هذه الدرجة. كان بوارو مدهشاً، فلم يجفل ولم يشحب، فقط ظل يحدق إليها باهتمام شديد.

قال لها فى هدوء: "تركيبتك النفسية تثير اهتمامى إلى درجة كبيرة سيدتى. ومن دواعي الأسف أنه لم يتبق لى الوقت لى أدرسها. نعم، لدى طلب. المحكوم عليهم بالموت يسمح لهم دوماً بتدخين سيجارة أخيرة كما أعتقد، لدى علبة سجائرى إذا سمحت لى...." ثم نظر إلى قيوده.

ضحكت وقالت: "أنت تريد منى أن أحل قيودك، أليس كذلك؟ أنت ذكى سيد هيركيول بوارو، أعرف ذلك، لن أحل قيودك، لكننى سوف أجد لك سيجارة".

ثم انحنت وأخرجت من ثيابه علبة سجائره وأخذت منها سيجارة وضعتها بين شفثيه.
ثم قالت وهى تنهض: "والآن الثقاب".

لكنه قال: "ليس مهماً سيدتى"، شىء ما فى صوته أفزعنى كما أوقفها هى الأخرى.

ثم تابع قائلاً: "لا تتحركى سيدتى. سوف تندمين إذا فعلت ذلك. هل لديك معرفة بكل آثار سم الكورير؟ يستخدمه الهنود فى أمريكا الجنوبية كسهم مسموم. الخدش منه يعنى الموت. بعض القبائل تستخدم أنبوباً لنفخه، أنا أيضاً لدى أنبوب لنفخه مصمم ليبدو على شكل سيجارة. كل ما على هو أن أنفخ... أه! لقد بدأت. لا تتحركى سيدتى، إن التقنية المستخدمة فى هذه السيجارة إبداعية، ينفخ المرء فيطير من السيجارة ربح صغير يشبه شوكة السمكة إلى أن يجد هدفه. أنت لا تريدين أن تموتى سيدتى، لذلك أطلب منك أن تحررى صديقى هاستنجز من قيوده. أنا لا أستطيع أن أحرك يدي، لكننى أستطيع أن أدير رأسى، لذلك أنت لا تزالين فى نطاق الاستهداف يا سيدتى. أرجوك، لا ترتكبى أى خطأ".

ببطء وببيدين مرتعشتين، وقد غطى الغضب والكراهية وجهها، انحنت ونفذت أمره. أصبحت حراً. فأخذ صوت بوارو يعطينى الأوامر: "الآن قيودك ستكون من نصيب السيدة يا هاستنجز، تماماً. هل قيودتها بإحكام؟ إذن فك قيودى من فضلك، إنه من حسن الحظ أنها أبعدت أولئك الرجال".

وفى دقيقة أخرى كان بوارو يقف بجوارى وانحنى على السيدة وقال: "هيركيول بوارو لا يُقتل بهذه السهولة يا سيدتى، طاب مساؤك".

منعتها كمامة الفم من أن ترد إلا أن النظرة القاتلة التى التمعت فى عينيها أثارت خوفاً، وتمنيتُ مخلصاً ألا نقع فى قبضتها مرة أخرى.

بعد ثلاث دقائق كنا خارج الفيلا واجتزنا الحديقة بسرعة، كان الطريق خالياً وفى لحظات كنا قد ابتعدنا عن المكان.

هنا انفجر بوارو:

"أنا أستحق كل ما قائلته تلك المرأة لى. أنا أكثر من معتوه، أنا حيوان بائس، ستة وثلاثون أبله مجتمعين فى شخص، لقد كنتُ فخوراً بأنى لم أقع فى فخهم. ولم يجعل ما حدث فخاً إلا الطريقة التى سقطتُ أنا بها فيه. لقد كانوا يعلمون أننى سوف أدرك حقيقة الأمر واعتمدوا على ذلك. هذا يفسر كل شيء. السهولة التى تم بها إطلاق سراح هاليداي... كل شيء. لقد كانت السيدة أوليفيه هى الروح المهيمنة. فيرا روساكوف كانت مساعدتها فقط. كانت السيدة أوليفيه تحتاج إلى أفكار هاليداي، فبعبريتها تستطيع أن تسد الثغرات التى تثير حيرته، نعم يا هاستنجز. نحن الآن نعلم من يكون رقم ثلاثة؛ المرأة التى من المحتمل أن تكون أعظم عالمة فى العالم. فكّر فى ذلك. العقل من الشرق والعلم من الغرب، وآخران لا نعرف هويتهما حتى الآن. لكن يجب أن نكتشفهما. غداً سنعود إلى لندن ونبدأ فى ذلك".

سألتُه: "ألن تُسلمَ السيدة أوليفيه إلى الشرطة؟".

قال: "لن يصدقنى أحد، هذه السيدة أحد رموز فرنسا. ولا يمكننا إثبات شيء. سنكون سعداء الحظ إذا لم تبلغ هى عنا الشرطة".

قلتُ: "ماذا؟".

أجابنى: "فكر فى الأمر. لقد تم العثور علينا فى المنزل ومعنا مفتاحان سوف تقسم على أنها لم تعطهما لنا، لقد فاجأتنا عند الخزنة لكننا كمناها وقيدناها. لا تدع الأوهام تسيطر عليك يا هاستنجز، إن الحذاء ليس فى القدم المناسبة، ألا يقول المثل الشهير ذلك؟".

الفصل الثامن

فى بيت العدو

بعد مغامرتنا فى الفيلا فى باسى، عدنا بأقصى سرعة إلى لندن. كان هناك الكثير من الخطابات فى انتظار بوارو. قرأ أحدها وعلى وجهه ابتسامة غريبة، ثم أعطاه لى وقال:

"اقرأ هذا يا صديقى".

نظرت أولاً إلى التوقيع كان "آيب رايلاند" واستدعيت فى ذهني كلمات بوارو "أغنى رجل فى العالم". كان خطاب سيد رايلاند مقتضباً وقاطعاً، لقد عبر عن عدم رضاه عن السبب الذى ساقه بوارو ليبرر انسحابه من قضية أمريكا الجنوبية فى آخر دقيقة.

قال بوارو: "هذا يدفع المرء بقوة إلى التفكير، أليس كذلك؟".

"أعتقد أنه من الطبيعى أن يشعر بالغضب".

إلا أن بوارو قال: "لا، لا. أنت لم تفهم. تذكر كلمات ميرلنج الرجل الذى جاء فاراً إلى هنا فقط ليموت على يدي أعدائه. لقد قال (رقم اثنان يتم التعبير عنه بحرف "S" مع خطين يقطعانه بالطول... علامة الدولار. وأيضاً بخطين ونجمة. ومن ذلك يمكن التخمين أنه أمريكى وبذلك يمثل قوة المال). وأضف إلى ذلك أنه عرض على مبلغاً كبيراً من المال لكى يغرينى بالابتعاد عن إنجلترا. و... وماذا يعنى ذلك يا هاستنجز؟".

قلت وأنا أشرد بنظري: "أنت تعنى... أنت تشبهه فى أن آيب رايلاند هذا الشخص فاحش الثراء هو رقم اثنين فى الأربعة الكبار".

قال بوارو: "لقد التقط ذكاؤك الحاد الفكرة يا هاستنجز. إن الطريقة التى نطقت بها تعبير (فاحش الثراء) فصيحة، لكن دعنى أؤكد لك على نقطة أن هذه الأمور تدار بواسطة رجال من على السطح. وللسيد رايلاند سمعة سيئة تشير إلى أنه رجل غير نظيف فى عمله، رجل بارع بلا ضمير، رجل يحوز المال الذى يريده ولديه قوة بلا حدود".

بلا شك كان هناك ما يمكن أن يُقال عن وجهة نظر بوارو. ولما انتهى بوارو من توضيح فكرته سألته المزيد من الإيضاح، فقال: "هذا كل ما فى الأمر. لست متأكداً يا

صديقي، أنا مستعد للتضحية بأي شيء لكى أعرف. دعنى أقل إن آيب رايلاند هو رقم اثنين، وأننا نقترّب جداً من الهدف".

قلتُ، وأنا أنقر على الخطاب: "لقد وصل لتوه إلى لندن. عرفتُ من الخطاب. أليس من الجيد أن تذهب إليه وتبلغه اعتذارك شخصياً".

قال بوارو: "ربما أفعل ذلك".

بعد ذلك بيومين عاد بوارو إلى المنزل وهو فى غاية الانفعال، ثم أمسكنى بكتلات يديه وهو منفعل جداً وقال:

"يا صديقى، فرصة مذهلة... غير مسبقة... لا يمكن أن تتكرر... جاءت إلينا بنفسها! إلا أن هناك خطراً، خطراً كبيراً، لا يجب أن أطلب منك حتى أن تحاول المشاركة فيها".

إذا كان بوارو يحاول أن يخيفنى فقد اختار الطريق الخطأ، ولقد قلتُ له ذلك، إلا أنه بدأ يتماسك وأخذ يوضح خططه.

كان رايلاند يبحث عن سكرتير إنجليزى حسن المظهر وله حضور اجتماعى. كان اقتراح بوارو هو أن أتقدم للوظيفة، وقال بوارو موضحاً فى اعتذار:

"كنتُ سأفعلها أنا يا صديقى إلا أنه كما ترى من الصعب على أن أتخفى بالشكل المطلوب، أنا أتكلم الإنجليزية جيداً إلا فى حالات الانفعال، لكن الأمر سيكون صعباً مع أذن خبيرة، وحتى إذا ما قررتُ أن أضحي بشاربى فأنا أشك فى أن أحداً لن يستطيع أن يتعرف على شخص مثل: "هيركيول بوارو".

أعربتُ عن تشككى فى ذلك أنا أيضاً، وقلتُ إننى مستعد للقيام بالدور واختراق منزل رايلاند. ثم أدليت بملاحظة قائلاً: "وعلى أى حال، فإن فرصتى فى أن يختارنى هى واحد فى العشرة لا أكثر".

قال بوارو: "أوه! نعم، سوف يختارك، سوف أرتب لك ما يلزم لإغرائه بقبولك للعمل معه، سوف أجعل وزير الداخلية نفسه يوصى بتعيينك".

بدا هذا الأمر بعيداً إلى حد ما، إلا أن بوارو دحض كل اعتراضاتى بقوله:

"أوه، نعم، سوف يفعل. لقد سبق أن حققت له فى أمر ما كان من شأنه أن يسبب فضيحة خطيرة. ثم تمت معالجة الأمر فى سرية وهدوء. والآن يمكنك القول إنه فى يدي تماماً، مثل العصفور الذى يحط على يدك ليلتقط الحب".

كانت الخطوة الأولى هى طلب خدمات أحد الخبراء فى "فن الماكياج". كان رجلاً ضئيلاً، لرأسه تكوين غريب يشبه رءوس الطيور، قريب الشبه برأس بوارو. تفحصنى ببصره لبعض الوقت فى صمت ثم بدأ فى العمل، وعندما نظرت إلى نفسى فى المرآة بعد

نصف ساعة شعرت بالذهول. لقد ارتديت حذاءً خاصاً جعلنى أطول ببوصتين على الأقل، كما أعطانى المعطف الذى ارتديته مظهراً أكثر جدية، وكذلك جعلنى أكثر نحافة وطولاً. وتغير شكل حاجبى بكل مهارة ليعطيا تعبيراً مختلفاً تماماً على وجهى، كما وضعتُ حشواً على خدى، وأصبح لون وجهى مختلفاً، ولقد حلقت شاربى، فيما التمعت سنٌ ذهبية فى أحد جانبي فمى.

قال بوارو: "اسمك آرثر نيفيل. ليرعاك الله يا صديقى لأننى أشعر أنك ذاهب إلى مكان خطير".

بقلب يدق، توجهتُ إلى فندق سافوى فى موعد حدده رايلاند، وطلبت رؤية ذلك الرجل البارز.

وبعد دقيقة أو اثنتين من الانتظار صعدتُ إلى الجناح الذى يقيم فيه.

كان رايلاند يجلس على منضدة وقد فرد أمامه خطاباً استطعتُ أن ألمح بطرف عيني أنه من وزير الداخلية. كانت المرة الأولى التى أرى فيها مليونيراً أمريكياً. وعلى الرغم منى كان الموقف ذا تأثير على. كان طويلاً ونحيفاً، له ذقن بارز وأنف معقوف قليلاً. كانت له عينان رماديتان التمعتا أسفل حاجبين كثيفين. كان له شعر رمادى سميك فيما كان سيجار أسود (عرفتُ فيما بعد أن رايلاند لا يظهر بدونه) يتدلى باستهتار من أحد جانبي فمه.

قال بصوت غليظ وبلكنة أمريكية: "اجلس".

جلست فنقر بإصبعه على الخطاب وقال: "وفقاً لما هو فى الخطاب فأنت الأفضل ولا حاجة بى للمزيد من البحث. قل لى. هل تجيد التعاملات الاجتماعية؟".

قلتُ له إننى أعتقد أننى سوف أرضيه فى هذا المجال.

فعاد يقول: "أقصد أنه إذا كان لدى الكثير من الضيوف - من مختلف الطبقات الاجتماعية وما إلى ذلك فى أى بلد أذهب إليه - فهل يمكنك أن ترتب - بصورة سليمة - المقاعد التى من المفترض أن يجلسوا إليها حول مائدة العشاء؟".

أجبته مبتسماً: "بكل سهولة".

تبادلنا العديد من العبارات التمهيدية، وبعدها اندمجنا فى العمل. كان سيد رايلاند يريد سكرتيراً يعرف المجتمع الإنجليزى، حيث كان لديه بالفعل سكرتير أمريكى وكاتبة اختزال.

بعد ذلك بيومين توجهتُ إلى هاتون تشيس، مقر دوق لومشاير، وهو المكان الذى استأجره المليونير الأمريكى للإقامة فيه لمدة 6 أشهر.

لم تكن المهام التى تم تكليفى بها صعبة. فى إحدى فترات حياتى كنت سكرتيراً

خاصا لأحد البرلمانيين ذوى المشاغل المتعددة، لذلك فلم أكن ألعب دوراً غريباً على. اعتاد سيد رايلاند أن ينظم حفلة كبيرة فى نهاية كل أسبوع، إلا أن وسط الأسبوع يكون هادئاً، لم أشاهد سيد آبلباى - السكرتير الأمريكى - إلا قليلاً، إلا أنه بدا شاباً أمريكياً عادياً لطيفاً وكفوفاً جداً فى عمله، أما آنسة مارتن كاتبة الاختزال فقد كنتُ أشاهدها أكثر. كانت فتاة جميلة، فى الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين، لها شعر أسود مائل للحمرة، وعينان بنيتان تظهر فيهما نظرة مأكرة بين الحين والآخر على الرغم من أنهما كانتا عادة منخفضتين احتشاما. تكونت لدى فكرة أنها لا تحب ولا تثق فى صاحب العمل على الرغم من أنها كانت حريصة جداً على ألا تصدر منها أية إشارة إلى ذلك، لكن جاء الوقت الذى اكتسبت ثقتها فيه فجأة.

دققتُ بالطبع فى اختيار كل العاملين فى المنزل، كان هناك واحد أو اثنان من الخدم تم تعيينهما حديثاً، كما كان هناك خادم ثالث كما أذكر وبعض الخادومات، بينما كان الجزار ومدير المنزل ورئيس الخدم من طاقم العمل الخاص بالدوق الذى وافق على أن يبقوا فى المكان. بالنسبة للخادومات، لم أشعر أن لهن أهمية فى مهمتى. ألقىتُ بتركيزى على جيمس - أحد الخدم - إلا أنه كان خادماً، وخادماً فقط، أما الشخص الذى كنتُ أشك فيه أكثر من غيره فقد كان ديفيز الخادم الخاص بـ"رايلاند"، والذى جاء بصحبته من نيويورك. كان إنجليزى المولد ولا غبار على سلوكياته، إلا أننى أضمرت له فى نفسى شكاً لا أدرى سببه.

ظللتُ فى هاتون تشيس لثلاثة أسابيع، ولم تقع خلال تلك المدة أية حادثة من أى نوع يمكننى أن أضع إصبعى عليها كدليل على صحة نظريتنا. لم تكن هناك أية آثار لأنشطة الأربعة الكبار، كان سيد رايلاند رجلاً ذا نفوذ واسع وشخصية قوية، إلا أننى كنت قد بدأت أعتقد أن بوارو أخطأ عندما ربط بينه وبين تلك المنظمة المريعة. حتى إننى فى مرة سمعتُ سيد رايلاند يذكر اسم بوارو بصورة عابرة على العشاء ذات ليلة وكان يقول:

"إنه رجل ضئيل مدهش، لكنه انهزامى النزعة. كيف عرفتُ ذلك؟ لقد أبرمتُ معه اتفاقاً إلا أنه تراجع عنه فى اللحظة الأخيرة. لن أعتمد إطلاقاً على رجلكم سيد هيركيول بوارو".

وفى لحظات مثل هذه كنتُ أشعر أن الحشوتين الموضوعتين على خدى مرهقتان جداً!

بعد ذلك قصت على الآنسة مارتن قصة غريبة، حيث ذهب رايلاند إلى لندن يوماً ما ومعه آبلباى. كنا - الآنسة مارتن وأنا - ننتزه فى الحديقة بعد تناول الشاي. لقد أعجبتُ بالفتاة جداً. لم تكن تحب التظاهر، وكانت على طبيعتها. كنتُ أشعر بأن هناك شيئاً ما فى رأسها، وها هى اللحظة قد حانت.

قالت لى: "أتعلم يا سيد نيفيل، أفكر بالفعل فى الاستقالة من عملى".

نظرتُ إليها مندهشاً فأسرعتُ تكملُ قائلة:

"أوه! أعلم أنها وظيفة رائعة، وسوف يفترض الكثير من الناس أنني غبية لكى ألقيا بعيداً، لكننى لا أستطيع احتمال سوء المعاملة يا سيد نيفيل. أن يتم توبيخى مثل المجندين أثناء الخدمة، فهذا أمر أكثر من احتمالى".

سألتها: "هل وبخك سيد رايلاند؟".

أومأت برأسها إيجاباً.

ثم قالت: "بالطبع. إنه على الدوام عصبي للغاية. هذا ما يمكن أن يتوقعه المرء، فكل هذا ممكن الحدوث أثناء العمل. إلا أن الأمر وصل به إلى حد الغضب من أجل لا شيء على الإطلاق، لقد بدا عليه وكأنه سوف يقتلنى وكل ذلك - كما قلت لك - من أجل لا شيء على الإطلاق!!".

طلبتُ منها باهتمام: "احك لى عن ذلك".

قالت: "كما تعلم فأنا أفتح كل خطابات سيد رايلاند بنفسى، بعضها أسلمه للسيد أبلباى والبعض الآخر أعالجه بنفسى، إلا أنني أقوم بأعمال التصنيف المبدئى لوثائقه، والآن جاءت بعض الخطابات المكتوبة على ورق أزرق وعليها رقم أربعة صغير مطبوع على جانب المظروف. معذرة، هل تكلمت؟".

لم أكن قادراً على كتم انفعالاتى، إلا أنني هزرتُ رأسى فى سرعة نافياً، وطلبتُ منها مواصلة الحديث.

قالت: "حسناً. كما كنتُ أقول فقد جاءت تلك الخطابات وكانت هناك تعليمات مشددة ألا يتم فتحها على الإطلاق ولكن يتم تسليمها إلى سيد رايلاند دون المساس بها، دائماً أنا أفعل ذلك إلا أنه صباح أمس كان البريد كثيراً جداً بصورة تفوق المعتاد وكنتُ أفتح الخطابات بسرعة غير معقولة، وبطريق الخطأ فتحتُ أحد تلك الخطابات الزرقاء. وبمجرد أن أدركتُ ما فعلته ذهبتُ إلى سيد رايلاند وشرحتُ له الموضوع. ولدهشتى الشديدة ثار حتى وصلت ثورته إلى مستوى مريع، وكما قلتُ لك كنتُ خائفة جداً".

سألتها: "ما الذى كان فى ذلك الخطاب حتى يثور بهذه الطريقة؟".

أجابت: "لا شيء على الإطلاق. سأقول لك جزءاً غريباً قرأته قبل أن أكتشف خطئى. كان قصيراً إلى حد ما وأستطيع تذكره بالكلمة ولم يكن فيه ما يستدعى غضب أى شخص".

فقلتُ محاولاً دفعها لتكرار الجزء: "تقولين إنك تستطيعين أن تكرريه؟".

فأجابت: "نعم" ثم توقفت لدقيقة، وعادت تقول ببطء بينما كنتُ أكتب أنا الكلمات

دون أن تلاحظ:

سيدي العزيز... الشيء الأساسي الآن، كما يجب أن أقول، هو أن ترى الأرض. فإذا أصررت على أن يكون المحجر من ضمنها فإن الـ17000 تكون ثمنًا معقولاً بينما تكون نسبة الـ11% عمولة كثيرة جداً. 4% جيدة

صديقك المخلص

آرثر ليفرشام

وتابعت آنسة مارتن قائلة:

"من الواضح أنهم يتحدثون عن قطعة أرض كان سيد رايلاند يريد أن يشتريها إلا أنني أشعر أن الشخص الذي يستشيط غضباً من أجل شيء تافه كهذا هو رجل خطير. ما الذي ترى أنني يجب أن أفعله سيد نيفيل؟ أنت لديك خبرة بالعالم أكثر مني".

قمتُ بتهديئة الفتاة وأوضحتُ لها أنه ربما كان سيد رايلاند يعاني من مرض العصر وهو عسر الهضم. وفي النهاية استطعتُ أن أجعلها تغادرني وهي تشعر بالراحة إلى حد ما، إلا أنني أنا نفسي لم أكن أشعر بالرضا. عندما ذهبت الفتاة أخرجتُ المفكرة وجريت بنظري على الخطاب الذي كتبته بسرعة وبإيجاز. ما الذي تعنيه هذه الرسالة البريئة في منظرها؟ هل لها علاقة بعمل ما كان يقوم به رايلاند ولا يريد تسرب أية تفاصيل عنه قبل أن ينتهي منه؟ كان هذا تفسيراً محتملاً، إلا أنني تذكرت الرقم أربعة المطبوع على المظاريف وشعرتُ في النهاية أننا على طريق الوصول إلى ما نريد.

أخذتُ أتأمل في الكلمات في حيرة طوال الليل معظم اليوم التالي، وجاءني الحل فجأة. كان بسيطاً أيضاً. الرقم أربعة كان هو المفتاح. اقرأ الكلمة الرابعة من بداية الرسالة وسوف تظهر رسالة مختلفة تماماً، يقول الخطاب: (من الضروري أن تذهب إلى المحجر 17114).

حل تلك الأرقام كان سهلاً، الرقم 17 يعنى اليوم السابع عشر من أكتوبر أى غداً، الرقم 11 يعنى توقيت الحدث والرقم 4 هو التوقيع أو لعله يشير إلى العضو رقم أربعة الغامض نفسه أو لعله "الماركة المسجلة" للحديث المتبادل بين الأربعة الكبار. كلمة "المحجر" كانت واضحة، هناك محجر غير مستعمل على بعد حوالى نصف ميل من هذا المكان، بقعة منعزلة تصلح للقاءات السرية.

لدقيقة أو اثنتين فكرتُ في القيام بالأمر بنفسى. سيكون ذلك إنجازاً كبيراً بالنسبة لى، فللمرة الأولى سأسعد بالتغلب على بوارو.

إلا أنني في النهاية تغلبتُ على هذه الرغبة، هذا الأمر مسألة كبيرة وليس لى الحق في أن أقوم بها وحيداً، فربما كان في ذلك تهديد لفرص النجاح. للمرة الأولى نحقق

سبقاً ضد أعدائنا، لذا يجب أن نستغل تلك الفرصة بصورة جيدة وأن نستمر في إخفاء أمرنا. إن بوارو هو صاحب العقل الأفضل بيننا نحن الاثنين.

كتبتُ له بأقصى سرعة واضعاً الحقائق أمامه وشرحتُ له ضرورة أن نستمع لما سوف يقال في الاجتماع، فإذا أراد أن يترك لى الأمر فهذا شيء جيد، إلا أنني شرحتُ له كيف يصل إلى المحجر من المحطة إن أراد المجيء بنفسه.

أخذتُ الخطاب إلى البلدة وأرسلتهُ بنفسى، كان بالإمكان أن أتواصل مع بوارو من المكان الذى أقيم فيه إلا أن الاتفاق بيننا كان ألا يتصل هو بى خشية أن يتم العبث فى الخطابات التى تصلنى.

كنتُ فى قمة انفعالى فى الليلة التالية. لم يكن هناك أى ضيوف فى المنزل وكنتُ مشغولاً مع سيد رايلاند فى حجرة مكتبه طوال المساء. لقد تنبأتُ بأن ذلك سوف يحدث وبأننى لن أستطيع أن أقابل بوارو فى المحطة. إلا أنني على الرغم من ذلك كنتُ واثقاً من أن سيد رايلاند سوف يصرفنى قبل الحادية عشرة.

وبالفعل، فى العاشرة والنصف تماماً نظر سيد رايلاند إلى الساعة وقال إنه "انتهى" ففهمتُ الإشارة وغادرتُ المكتب من فورى، وصعدتُ إلى أعلى، وكأني ذاهب إلى الفراش، ولكننى تسلفتُ إلى جانب السلم وتوجهتُ إلى الحديقة، مرتدياً معطفاً قاتماً لإخفاء القميص الأبيض الذى كنتُ أرتيه.

سرتُ قليلاً فى الحديقة وحانت منى التفاتة فوجدتُ سيد رايلاند يتسلل من نافذة حجرة مكتبه إلى الحديقة فى طريقه إلى حضور الموعد. ضاعفتُ من سرعتى لكى أحضر الاجتماع من البداية ووصلتُ إلى المحجر وأنا متقطع النفس، بدا من الواضح أنه لا أحد هناك فسرتُ بحذر إلى مكان به بعض الشجيرات، وأخذتُ أنتظر التطورات.

بعد عشر دقائق وعند تمام الحادية عشرة. جاء رايلاند متسللاً وقد أرخى قبعته على وجهه وأمسك سيجاره الشهير فى يده. نظر حوله ثم غطس فى فتحات المحجر فى الأسفل وبعدها بدأتُ أسمع همهمات قادمة إلى من الأسفل. بالتأكيد كان مصدرها من وصل قبله من رجل أو رجال أو أيا ما يكون لحضور الاجتماع. زجفتُ خارجاً من مكمنى خطوة فخطوة، وقد اتخذتُ كل الاحتياطات اللازمة لكيلا أحدثُ ضوضاء. الآن، لا تفصلنى عن الرجال إلا صخرة كبيرة فقط، مستتراً بالظلام بدأتُ أسترق النظر إلى ما يحدث أمامى فوجدتُ نفسى فى مواجهة فوهة مسدس آلى مخيف المظهر!

قال رايلاند فى صوت قوى: "ارفع يديك! لقد كنتُ أنتظرِكَ".

كان يجلس فى ظل الصخرة فلم أستطع أن أرى وجهه، إلا أن لهجة التهديد التى استخدمها كانت غير لطيفة. بعد ذلك شعرتُ بدائرة من المعدن البارد فى عنقى فخفض رايلاند مسدسه الآلى وقال:

"نعم جورج. خذه بعيداً عن هنا".

قادنى وأنا فى قمة غيظى إلى بقعة مظلمة حيث قام جورج (الذى تشككتُ فى أن يكون ديفيز) بتكميمى وتقييدى.

تكلم رايلاند فى نبرة وجدتُ صعوبة فى أن أميزها. كانت باردة مليئة بالتهديد فقال:

"ستكون هنا نهايتكما أنتما الاثنان. لقد وقفتما فى طريق الأربعة الكبار مرة أخرى. هل سمعتُ عن الانهيارات الأرضية؟ كان هنا واحد قبل عامين. سيكون هناك آخر الليلة، لقد رتبتُ كل شىء بدقة، قل لى: ألا يلتزم صديقك هذا بمواعيده؟".

اجتاحتنى موجة من الهلع. بوارو! بعد دقيقة سيخطو داخل الفخ وأنا ليس بيدي شىء أفعله لتحذيره. لا أستطيع إلا أن أدعو فقط أن يكون قد قرر أن يترك الأمر فى يدي وأن يبقى فى لندن. بالتأكيد إذا ما كان قد قرر المجئ فإنه سيكون قد وصل الآن. ومع كل دقيقة تمر كان الأمل فى داخلى يتزايد.

وفجأة انهار الأمل، سمعتُ صوت خطوات. خطوات حذرة، إلا أنها بالفعل كانت خطوات. أخذتُ أئن فى جنون. جاء الاثنان إلى الممر وتوقفا ثم ظهر بوارو نفسه. كانت الظلال تغطى جانباً من رأسه.

سمعتُ صيحة انتصار من رايلاند، إذ رفع مسدسه الآلى وصاح: "ارفع يديك"، وأسرع ديفيز بعدما رأى ذلك وأحضر بوارو. لقد تم تنفيذ الكمين.

قال الأمريكى فى تجهم: "أنا سعيد لمقابلتك يا سيد بوارو".

كانت رباطة جأش بوارو مدهشة فلم تهتز فيه شعرة لكننى رأيتُ عينيه تفتشان فى الظلام وتساءل:

"صديقى؟ هل هو هنا؟".

أجابه الأمريكى: "نعم. أنتما الاثنان فى الفخ، فخ الأربعة الكبار".

ثم ضحك.

إلا أن بوارو سأله: "فخ؟".

رد عليه رايلاند قائلاً: "قل لى: ألم تفهم الموقف بعد؟".

قال بوارو فى تهذيب: "لقد فهمتُ أن هناك فخاً. إلا أنك مخطئ سيدى. إنه أنت الذى وقع فى الفخ لا أنا وصديقى".

قال رايلاند: "ماذا؟" قالها وهو يرفع مسدسه الآلى الضخم إلا أننى لمحتُ التردد فى عينيه.

فسارع بوارو قائلاً: "إذا ما أطلقت النار فسوف ترتكب جريمة قتل شهد عليها 10

أزواج من الأعين ويمكن أن يتم إعدامك بسببها. إن المكان محاصر منذ ساعة على الأقل
برجال سكوتلانديارد. كش ملك يا سيد آيب رايلاند".

ثم أطلق بوارو صفيراً غريباً وكأنما هو سحر، فقد امتلأ المكان فجأة بالرجال
الذين أمسكوا بـ"رايلاند" ومساعدته وجردوهما من سلاحيهما. وبعد كلمات مع الضابط
المستول عن العملية أمسك بوارو بذراعى وقادنى بعيداً.

وبعيداً عن المحجر احتضننى فى قوة وقال: "أنت حى، أنت لم تُصب. إنه أمر مذهل.
كثيراً ما لمت نفسى على تركك تذهب وحدك".

قلتُ وأنا أخلص نفسى من ذراعيه: "أنا بخير، أنا مرتبك، لقد فطنتُ إلى خدعتهم،
أليس كذلك؟".

قال بوارو: "بل كنتُ أنتظرها! وإلا فلماذا سمحتُ لك بالذهاب إلى هناك. لم أكن
أهدف ولو للحظة واحدة من اسمك المزيف وتتركك إلى أن أخدعهم!".

صحتُ قائلاً: "ماذا؟ لم تقل لى قط ذلك".

قال بوارو: "كما سبق أن قلتُ لك يا هاستنجز إن لك طبيعة جميلة وصادقة، لذلك
فإنه إذا لم تكن أنت نفسك مخدوعاً فإنه كان من المستحيل عليك أن تخدع الآخرين.
حسناً. لقد تم اكتشافك منذ أول لحظة، ثم فعلوا ما حسبتُ حسابه وهو استخدامك
كطعم. إن توقع ذلك فهو حقيقة رياضية لمن يستغل خلاياه الرمادية. لقد وضعوا
الفتاة فى طريقك. وبالمناسبة يا صديقى، هل شعرها أحمر؟".

قلتُ فى برود: "إذا كنتُ تقصد الأنسة مارتن فإن فى شعرها ظلالاً خفيفة من
الأحمرار. لكن...".

قاطعنى بوارو قائلاً: "إنهم مدهشون أولئك الناس! لقد درسوا نفسيتك. أوه! نعم يا
صديقى، الأنسة مارتن كانت جزءاً من الخطة، بالتأكيد كانت جزءاً منها. لقد
أخبرتكَ بالجزء من الخطاب بالتزامن مع الحديث عن غضب سيد رايلاند، ثم كتبتُ
ذلك الجزء من الخطاب وأعملت عقلك فيه، كانت الشفرة مرتبة بصورة جيدة. كانت
صعبة ولكنها ليست صعبة جداً. لقد حللتها وأرسلتها إلى، ولكن ما لا يعرفونه هو أننى
كنتُ أنتظر حدوث مثل هذا الشيء. لقد توجهت بأقصى سرعة إلى جاب ورتبنا الأمور.
وكما ترى فإن الأمر انتهى بانتصار كامل!".

فى الواقع لم أكن مسروراً من بوارو وأخبرته بذلك. عدنا إلى لندن فى الساعات
الأولى من الصباح وكانت رحلة من أسوأ ما يمكن.

كنتُ قد انتهيت لتوى من حمامى وقد غرقت فى أفكار سعيدة بشأن الإفطار عندما
سمعتُ صوت جاب يأتى من حجرة الجلوس فألقيتُ على جسدى رداء الحمام، وأسرعتُ
إلى الغرفة وكان جاب يقول وقتها: "لقد أدخلتنا كلنا فى قصة وهمية هذه المرة يا

بوارو. كان ذلك أمراً سيئاً منك. للمرة الأولى أعترف أن التوفيق خانك".

كان وجه بوارو يحمل إمارات الضيق فيما كان جاب يقول:

"ها نحن نتعامل مع الأمر على أنه أمر جاد وفى النهاية يتضح أنها خدعة دبرها الخادم".

شهقت فى ذهول متسائلاً: "الخادم؟".

أجابنى جاب: "نعم، جيمس أو أيا ما يكون اسمه. لقد دخل فى رهان مع زملائه من الخدم على أنه يستطيع أن يقلد الرجل العجوز بصورة تخدع حتى أقرب المقربين منه - وهو أنت كابتن هاستنجز - وأن يقدم لك قصة خيالية عن عصابة تسمى الأربعة الكبار".

قلتُ صائحاً: "مستحيل!".

تابع جاب قائلاً: "أنت غريب حقاً! لقد أرسلتُ رجالى مباشرة إلى هاتون تشيس وهناك كان آيب رايلاند الحقيقى نائماً فى فراشه كما كان هناك الجزار والطاهى. والله وحده يعلم كم منهم سيقسم على أن الأمر كان مزاحاً، مزحة سخيفة. هذا كل ما فى الأمر. وكان الخادم الخاص بـ"آيب رايلاند" معه".

غمغم بوارو: "لذلك كان حريصاً على أن يبقى فى الظلام".

وبعد أن رحل جاب جلسنا ننظر إلى بعضنا البعض.

وفى النهاية قال بوارو: "نحن نعرف يا هاستنجز أن رقم اثنين فى الأربعة الكبار هو آيب رايلاند، وأن قصة الخادم الوهمية ما هى إلا باب خلفى للفرار فى حالات الطوارئ، أما الخادم...".

فقلتُ متنهداً: "نعم".

قال بوارو فى جدية: "رقم أربعة".

الفصل التاسع

لغز زهرة الياسمين الصفراء

كان بوارو يصبر على القول بأننا نحوز معلومات طويلة الوقت، وأننا نتمكن من إلقاء نظرة على الكيفية التي يفكر بها خصومنا، إلا أنني شعرت أننا بحاجة لنجاح ملموس أكثر من ذلك.

فمنذ أن اصطدنا مع الأربعة الكبار وها هم قد ارتكبوا جريمتين، واختطفوا هاليداي، وكانوا على وشك القضاء علينا، بوارو وأنا، ولا أرى أننا تمكنا من تحقيق أى نقطة فى اللعبة.

ناقش بوارو أفكارى بهدوء وقال:

"حتى الآن يا هاستنجز هم يضحكون، هذا صحيح، إلا أن لديكم فى إنجلترا حكمة تقول (من يضحك أخيراً يضحك كثيراً) أليس كذلك؟ وفى النهاية سوف ترى يا صديقى".

يجب عليك أيضاً أن تتذكر أننا لا نواجه مجرمين عاديين، بل إننا نواجه أفضل ثانى عقل فى العالم".

منعتُ نفسى من أن أستجيب للاستفزاز الذى يتسبب فيه غروره، فلم أطرح السؤال المتوقع لأننى أعرف إجابته، أو على الأقل أعرف الإجابة التى سوف يقولها لى بوارو، وبدلاً من ذلك حاولت - بلا نجاح - أن أستقى منه خططنا القادمة. إلا أنه كالمعتاد لم يقل لى أى شئ عن خطواته إلا أنني خمنت أنه على اتصال بعملاء للمخابرات فى الصين والهند وروسيا بالإضافة إلى أنني فهمت من محاولاته للتفاخر بنفسه أنه يحقق تقدماً فى لعبته المفضلة، وهى قياس عقل خصمه.

لقد تخلى بصورة شبه كاملة عن عمله فى التحرى الخاص وأعرف أنه رفض الكثير من الأتعاب الجيدة. أعلم أنه دخل فى بعض القضايا التى أثارته، إلا أنه كان فى الغالب يتخلى عنها عندما يكتشف أنه لا صلة بينها وبين نشاطات الأربعة الكبار.

كان مسلكه هذا ذا فائدة عظيمة لصديقنا المفتش جاب بلا شك فقد حاز شهرة كبيرة بسبب حله الكثير من القضايا التى اعتمد نجاحه فيها فى الأساس على إشارة بسيطة من بوارو.

وفى المقابل، قدم المفتش جاب كافة المعلومات عن القضايا التى شعر أنها يمكن أن تثير اهتمام البلجيكي الصغير. وعندما تم تكليفه بمتابعة القضية التى أطلقت عليها الصحافة اسم "لغز زهرة الياسمين الصفراء" أبرق إلى بوارو سائلاً إياه عما إذا كان يهتم بالحضور لإلقاء نظرة على تلك القضية أم لا.

وكاستجابة لتلك البرقية - بعد حوالى شهر على مغامرتى فى منزل آيب رايلاند - وجدنا نفسينا وحيدَين فى جناح فى قطار انطلق مسرعاً - بعيداً عن الدخان والتراب فى لندن - إلى بلدة ماركت هاندفورد الصغيرة فى ورشسترشاير، حيث كان اللغز.

مال بوارو إلى الأمام وهو جالس فى مكانه بالمقصورة وسألنى: "ماذا ترى تحديداً فى هذا الأمر يا هاستنجز؟".

لم أجِبْ مباشرة عن هذا السؤال، وشعرتُ بالحاجة إلى التيقظ قبل الإجابة عليه.

ثم قلت فى حذر: "يبدو الأمر كله معقداً".

فابتسم بوارو وتساءل فى مرح: "ألا يبدو كذلك؟".

فعدتُ أسأل: "ألا ترى معى أن اندفاعنا هكذا تجاه تلك القضية يمثل إشارة إلى أنك تعتبر مقتل سيد بينتر جريمة قتل لا انتحار أو نتيجة حادث ما؟".

أجابنى بوارو: "لا، لا. لقد أسأتُ فهمى يا هاستنجز، فعلى فرض أن سيد بينتر لقى مصرعه فى حادث مروع، فإنه تبقى هناك بعض الأحداث الغريبة يجب البحث عن تفسير لها".

هنا قلتُ: "هذا ما أعنيه بقولى إن الأمر يبدو معقداً".

فقال بوارو: "دعنا نمر على الحقائق بهدوء وبصورة منهجية. قصها على يا هاستنجز فى وضوح وترتيب".

بدأتُ فى ذلك من فورى، محاولاً قدر ما استطعتُ أن أكون واضحاً ومرتباً فقلتُ:

"نبدأ بالسيد بينتر، وهو رجل فى الخامسة والخمسين من العمر، ثرى ومثقف وطاف العالم كله تقريباً. فى السنوات الاثنتى عشرة الأخيرة لم يمكث فى إنجلترا إلا قليلاً، إلا أنه فجأة - وبعد أن شعر بالملل من السفر المتواصل - اشترى منزلاً فى ورشسترشاير قرب ماركت هاندفورد، وأعدّه للاستقرار فيه. وكان أول ما فعله هو أن كتب إلى قريبه الوحيد ابن شقيقه - شقيقه الأصغر - جيرالد بينتر موضحاً له أنه يجب أن يأتى ويقيم فى كروفتلاندز (وهذا هو الاسم الذى أطلق على المنزل) مع عمه. سعد جيرالد بينتر الذى كان فناناً شاباً مفلساً بهذا العرض وأقام مع عمه لسبعة شهور حتى وقعت المأساة".

غمغم بوارو قائلاً: "سردك للأحداث رائع. لقد قلتُ لنفسى إن كاتباً هو الذى يتكلم

وليس صديقى هاستنجز".

تجاهلت التعليق على كلام بوارو، وواصلت روايتى قائلاً:

"كان للسيد بينتر طاقم عمل جيد فى المنزل؛ ستة من الخدم، بالإضافة إلى خادمه الشخصى الصينى آه لينج".

قال بوارو فى صوت خفيض: "خادمه الشخصى آه لينج".

تابعتُ: "فى يوم الثلاثاء الماضى، قال سيد بينتر - بعد تناول العشاء - إنه يشعر ببعض الآلام، فتم إرسال أحد الخدم لاستدعاء طبيب. استقبل السيد بينتر الطبيب فى حجرة المكتب رافضاً أن يذهب إلى السرير. أما ما جرى بينهما فلا أحد يعلم به إلا أنه قبل أن يغادر الدكتور كوينتن طلب أن يلقى مديرة المنزل، قائلاً إنه منح سيد بينتر حقنة تحت الجلد؛ لأن قلبه كان فى حالة سيئة، وشدد على ضرورة ألا يسبب أحد له أى إزعاج. ثم بدأ يسأل أسئلة غريبة حول الخدم والمدة التى قضاها كل منهم فى الخدمة فى المنزل والأماكن التى جاءوا منها.

أجابت مديرة المنزل عن تلك الأسئلة قدر استطاعتها إلا أنها شعرت بالحيرة إزاء الهدف منها. ثم كان الاكتشاف الرهيب فى صباح اليوم التالى، فبينما كانت إحدى الخادومات تنزل من الطابق الأعلى إذ اشتمت رائحة مثيرة للغثيان قادمة من المكتبة، فحاولت أن تفتح الباب إلا أنه كان مغلقاً من الداخل، وبمساعدة جيرالد والخادم الصينى تم كسر الباب، فكان المنظر المريع الذى واجههم، لقد سقط سيد بينتر فى المدفأة واحترق وجهه ورأسه إلى درجة جعلت من المستحيل التعرف عليه".

"بالطبع فى هذه اللحظة لم يتم الاشتباه فى أحد، لأن الأمر بدا حادثاً مروعاً، وإذا كان هناك من أحد يمكن أن يلام على ذلك فهو دكتور كوينتن، الذى أعطى المريض حقنة مخدرة وتركه فى مثل هذا المكان الخطر. ثم تم اكتشاف أمر غريب جداً. كانت هناك جريدة على أرضية الغرفة بدا وكأنها سقطت من على ركبتى الرجل. وبعد إدارتها على وجهها كانت هناك كلمات مكتوبة عليها بحبر ضعيف، كان بجوار مقعد سيد بينتر منضدة للكتابة وكان إصبع سبابة يد القتل اليمنى ملوثاً بالحبر إلى السلامية الثانية. كان من الواضح أنه وصل إلى درجة من الضعف لم يستطع معها الإمساك بالقلم، فغمس إصبعه فى زجاجة الحبر وكتب تلك الكلمات على سطح الجريدة التى كانت معه. إلا أن الكلمات نفسها كانت غريبة، حيث اقتصر على عبارة "زهرة الياسمين الصفراء"، ولا شيء غير ذلك"، ثم تابعت قائلاً:

"هناك الكثير من زهور الياسمين تنمو على جدران كروفتلاندز. ومن المعتقد أن الرسالة التى كتبها سيد بينتر وهو يحتضر كانت تشير إليها، وهو ما يعنى أن الراحل كان قد فقد تركيزه. وبالطبع فقد تناولت الصحف - المتلهفة على كل ما هو غير عادى - القضية بصورة ساخنة، وأطلقت عليها لغز زهرة الياسمين الصفراء، على الرغم

من أن تلك الكلمات تبدو فى كل الاحتمالات بلا قيمة".

قال بوارو: "تقول إنها غير مهمة. حسناً. طالما تقول أنت ذلك فهذا حق".

نظرتُ إليه فى ارتياب، إلا أنني لم أستطع أن ألمح فى عينيه أى نوع من السخرية، ثم واصلتُ الحكاية قائلاً: "والآن تأتى الأمور المثيرة فى التحقيق".

فقال بوارو: "ألاحظ أن هذا هو الجزء الذى يثيرك بحق".

من جديد تجاهلتُ التعليق وتابعتُ القصة: "كانت هناك الكثير من الشكوك ضد دكتور كوينتن، أولها أنه لم يكن الطبيب المعالج للسيد بينتر، بل كان طبيباً يحل مؤقتاً لمدة شهر محل دكتور بوليثو، الذى كان قد ذهب فى إجازة. بعد ذلك كان هناك شعور بأن إهماله كان هو السبب الرئيسى فى الحادث، إلا أنه لم تكن هناك أدلة ملموسة. كان سيد بينتر معتل الصحة منذ أن جاء إلى كروفتلاندز وزاره دكتور بوليثو عدة مرات، إلا أن دكتور كوينتن عندما فحصه ارتبك فى تفسير بعض الأعراض، وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى فحصه فيها قبل يوم الحادث. وبمجرد أن انفرد الطبيب بالسيد بينتر كشف له بينتر عن قصة مذهلة، وفى البداية قال سيد بينتر إنه ليس مريضاً وأن الأمر لا يعدو أنه شعر بتعب نتيجة تناوله بعض الكارى الذى يشك فى مذاقه فى طعام العشاء. وبعدما أبعد الخادم الصينى آه لينج لدقائق قليلة نقل السيد بينتر محتويات طبقه إلى وعاء وطلب من الطبيب فحصها ليرى ما إذا كان فيها ما يعيب"، ثم تابعت:

"وعلى الرغم من قوله إنه لم يكن يشعر بالتعب، فإن الطبيب قال إنه لاحظ أن صدمة الشكوك التى تلاعبت برأس الرجل أثرت بالفعل عليه، وبخاصة على قلبه ثم أعطاه حقنة، ليست حقنة مخدر بالطبع ولكنها من مادة الإسترايكنين.

أعتقد أن ذلك ينهى القصة ولا يتبقى إلا النقطة الجوهرية فى الموضوع كله، وهو نتيجة فحص الطعام، حيث ظهر أنه يحوى كمية من مسحوق مخدر الأفيون تكفى لقتل رجلين!".

ثم توقفتُ.

فسألنى بوارو بهدوء: "واستنتاجاتك عن الأمر يا هاستنجز؟".

أجبتُ قائلاً: "من الصعب القول، ربما يبدو الأمر حادثاً عادياً وتبقى حقيقة أن محاولة تسميمه فى ليلة وقوع ذلك الحادث كانت نوعاً من المصادفة".

فعاد بوارو يسأل: "لكنك لا تعتقد ذلك؟ أنت تفضل أن تعتبر الأمر جريمة قتل".

سألته بدورى: "ألا ترى ذلك أنت أيضاً؟".

ردّ قائلاً: "يا صديقى. أنت وأنا لا نتبع نفس طريقة التفكير. أنا لا أضع عقلى بين

حلين متعارضين. حادثة أم جريمة، فتفسير ذلك سوف يأتى إذا ما تمكنا من حل المشكلة الأخرى وهى لغز زهرة الياسمين الصفراء، وبالمناسبة لقد أغفلت شيئاً هنا".

فقلتُ: "هل تقصد الخطين الشاحبين اللذين كانا أسفل كل كلمة ويميلان على زاويتيها اليمنى؟ لا أعتقد أنهما يمكن أن يكونا على أى قدر من الأهمية".

قال بوارو: "إنك تعتقد أن ما تراه فقط هو الأمر المهم يا هاستنجز. لكن دعنا نتجاوز، لغز زهرة الياسمين الصفراء، إلى لغز الكارى".

قلتُ: "أعلم. من وضع السم فيه؟ لماذا؟ هناك مائة سؤال يمكن للمرء أن يسألها فى هذا الشأن. بالتأكيد وضعه آه لينج. لكن لماذا يعتزم قتل سيده؟ هل هو عضو فى إحدى الجمعيات السرية الصينية؟ جمعية زهرة الياسمين الصفراء مثلاً؟ كما أن هناك جيرالد بينتر".

ثم توقفتُ فجأة.

قال بوارو وهو يهز رأسه موافقاً: "نعم، هناك جيرالد بينتر كما تقول. إنه وريث عمه. فى هذه الليلة كان يتناول عشاءه فى الخارج".

قلتُ: "ربما أخذ علماً بمكونات الكارى، وبالتالي أراد أن يبقى فى الخارج كى لا يتناول بعضاً مما فى الطبق".

أعتقد أن اقتراحى هذا ترك أثره على بوارو حيث نظر إلى نظرة احترام واهتمام أكثر من أية مرة سابقة.

ثم تخيلتُ ما يمكن أن يكون قد جرى فقلتُ: "لقد عاد متأخراً ووجد الأنوار مضاءة فى حجرة مكتب عمه فدخل ودفعه إلى النار".

إلا أن بوارو قال: "لكن سيد بينتر القوى لم يكن يسمح لنفسه بأن يحترق حتى الموت دون أن يدخل فى صراع مع قاتله يا هاستنجز، مثل هذا التصور ليس معقولاً".

فصحتُ قائلاً: "حسناً بوارو، لقد اقتربنا من حل اللغز كما أعتقد، دعنا نسمع ما لديك".

منحنى بوارو ابتسامة، ونفخ صدره وبدأ يتكلم فى غرور: "لنفترض أن هناك جريمة، فإن السؤال الذى يبرز قبل غيره هو: لماذا تم اختيار هذا الأسلوب لتنفيذها؟ ليس لدى إلا تفسير واحد، وهو التشويش على هوية القاتل، لقد احترق الوجه تماماً".

قلتُ صائحاً: "ماذا؟ هل تعتقد...؟".

قاطعنى قائلاً: "لحظة صبر يا هاستنجز. لقد كنت سأقول إننى أختبر تلك الفرضية. هل هناك مجال للقول بأن الجثة ليست للسيد بينتر؟ هل يمكن أن تكون الجثة لشخص آخر؟ لقد فحصتُ هذين السؤالين، وفى النهاية وصلت إلى إجابة بالسلب".

قلتُ فى إحباط: "أوه! وماذا بعد؟".

تابع بوارو قائلاً: "عندئذ قلتُ لِنفسى مادام هناك شىء ما لا أفهمه، فإنه من الضرورى أن أتحرى الأمر، لا يجب أن أسمح لِنفسى بأن تسيطر على فكرة الأربعة الكبار. لقد وصلنا. أين اختفت فرشاة ثيابى؟ من فضلك نظف ثيابى بالفرشاة يا صديقى وسوف أقوم لك بنفس الخدمة".

قال بوارو مفكراً وهو يضع الفرشاة فى مكانها: "نعم. يجب ألا يسمح المرء لِنفسه بأن تستحوذ عليه فكرة واحدة. لقد كدتُ أن أتعرض لهذا الخطر. تصور يا صديقى أننى وأنا هنا فى تلك القضية لا زلتُ تحت خطر هذه المشكلة. الخطان اللذان ذكرتهما، الخط الأفقى أسفل الكلمة والخط المائل بزاويته اليمنى عليه. ماذا يكونان إلا بداية رقم أربعة؟".

صحتُ وأنا أضحك: "يا إلهى! بوارو!".

لكنه قال: "أليس ذلك عبثاً؟ أنا أرى أصابع الأربعة الكبار فى كل مكان، إنه من الجيد أن يستخدم المرء قدراته فى قضية أخرى، آه! هاهو جاب قادم ليقابلنا".

الفصل العاشر

التحقيق فى كروفتلاندز

كان مفتش سكوتلانديارد واقفاً على الرصيف ينتظرنا، وقد حيانا فى حرارة، وقال: "حسنا سيد بوارو. هذا جيد. لقد شعرتُ أنك يمكن أن تكون راغباً فى الاطلاع على هذا الأمر، إنه لغز من الطراز الأول، أليس كذلك؟".

فهمتُ من ذلك أن جاب فى حيرة تامة من أمره بشأن هذه القضية ويريد أن يأخذ أية إشارة من بوارو.

كان لدى جاب سيارة تنتظر، فتوجهنا بها إلى كروفتلاندز. كان منزلاً أبيض مربعاً بسيطاً، مغطى بالنباتات المتسلقة من بينها زهور الياسمين الصفراء المتألثة، وأخذ جاب ينظر إليها مثلما فعلنا نحن ثم قال:

"يجب أن يكون ذلك الرجل مخبواً حتى يكتب تلك الكلمات، ربما كانت هلوسة، ربما كان يعتقد أنه فى الخارج".

كان بوارو ينظر إليه مبتسماً ثم سأله:

"كيف كان الأمر يا جاب؟ حادث أم جريمة قتل؟".

بدا على المفتش الإحراج من السؤال ثم قال: "حسناً، إذا تجاهلنا مسألة الكارى فإن الأمر يبدو وكأنه حادث عادى. لا يوجد معنى لأن يوضع رأس إنسان حى فى النار، لماذا؟ وقتها سيملاً الأرض صراخاً".

قال بوارو فى صوت خفيض: "آه! أى أحمق كنت أنا! منتهى الغباء! أنت أذكى منى يا جاب".

شعر جاب بالإحراج من تلك المجاملة التى صدرت عن بوارو المعروف على الدوام بمدحه لنفسه، فاحمر وجهه خجلاً وقال شيئاً ما حول أن هناك الكثير من الشكوك فى هذا الشأن.

قادنا داخل المنزل إلى الحجرة التى شهدت المأساة. حجرة مكتب السيد بينتر. كانت حجرة واسعة منخفضة السقف اكتظت جدرانها بالكتب، فيما كان هناك العديد من المقاعد الجلدية.

نظر بوارو من فوره إلى الباب المؤدى إلى شرفة من الحجارة.
وتساءل: "هل كانت النافذة مفتوحة؟".

قال جاب: "هذه النقطة الرئيسية. عندما غادر الطبيب الحجرة أغلق الباب خلفه بصورة اعتيادية وفي الصباح التالى كان الباب مغلقاً من الداخل، فمن أغلقه؟ السيد بينتر؟ أه لينج قال إن النافذة كانت مغلقة بالمزلاج. ومن ناحية أخرى، يقول دكتور كوينتن إنه يعتقد أن النافذة كانت مغلقة لكن ليس بالمزلاج، إلا أنه لا يستطيع أن يقسم على ذلك. إن هذا يصنع فارقاً. فإذا كان الرجل قد قتل فإن أحداً يكون قد دخل الغرفة إما من الباب أو من النافذة. فإذا كان من الباب فإن الجانى يكون من داخل المنزل، أما إذا كان قد دخل من النافذة فإنه يكون أى شخص فى هذه الحالة. أول ما فعلوه عندما كسروا الباب هو فتح النافذة وتقول الخادمة التى قامت بفتحها إنها لم تكن مغلقة بالمزلاج. إلا أنها شاهدة سيئة جداً لا تتذكر أى شيء تسألها عنه!".

عاد بوارو يسأله: "وماذا عن المفتاح؟".

قال جاب: "ها قد عدنا إلى نفس النقطة مرة أخرى، كان على الأرض بين حطام الباب. ربما يكون قد سقط من فتحة المفتاح فى الباب، وربما يكون قد سقط من أحد أولئك الذين فتحوا الباب وربما يكون قد أُلقي من الخارج إلى الداخل من أسفل الباب".

غمغم بوارو قائلاً: "فى الواقع كل الأشياء" مجرد احتمالات".

قال جاب: "لقد أصبت كبد الحقيقة سيد بوارو. هذا هو الوضع القائم تماماً".

كان بوارو ينظر حوله وقد انعقد حاجباه فى عدم رضا.

ثم أضاف قائلاً: "لا أستطيع أن أرى الضوء. الآن أستطيع أرى وميضاً. لكن... لقد عدتُ إلى الظلام من جديد. ليس لدى مفتاح القضية؛ الدافع".

قال جاب فى صرامة: "لدى جيرالد بينتر دافع جيد. كان شرساً جداً قبل أن يأتى إلى هنا. يمكننى أن أقول لك ذلك، وكان مسرفاً أيضاً، أنت تعرف هؤلاء الفنانين - لا يتحلون بأية أخلاقيات".

لم يلتفت بوارو إلى النقد القاسى الذى وجهه جاب إلى مزاج الفنانين، وبدلاً من ذلك ابتسم بطريقة تدل على درايته، ثم قال:

"يا جاب الطيب، هل تحاول إخفاء الأمر عني؟ أعلم تماماً أنك تشك فى الصينى، إلا أنك ماكر. أنت تريدنى أن أساعدك و مع ذلك فأنت تراوغنى".

انفجر جاب ضاحكاً وقال:

"لقد فهمتُ كل شيء يا بوارو. لقد راهنتُ على ذلك. سأعترف الآن. من المنطقى أن تقول إن الصينى هو الذى سمم الكارى. وإذا كان قد حاول فى تلك الليلة أن يقتل

سيده مرة فإنه من الممكن أن يحاول مرتين".

قال بوارو بنعومة: "أتساءل عما إذا كان قد فعلها".

قال جاب: "لكن الدافع هو الذى يؤرقنى. ربما يكون انتقاماً وحشياً أو أى شىء آخر، هذا ما أظنه.

من جديد قال بوارو: "أنا أتساءل، ألم تكن هناك أية سرقة؟ ألم يختف أى شىء؟ مجوهرات؟ نقود؟ أوراق؟".

أجاب جاب: "لا، ليس تماماً".

أرهفت أذننى، وكذلك فعل بوارو، فيما واصل جاب قائلاً:

"أعنى أنه لم تكن هناك أية سرقة، إلا أن العجوز كان يؤلف كتاباً من نوع ما. لقد علمنا بأمره هذا الصباح فقط عندما وصل خطاب من الناشر يسأل عن المسودة. يبدو أنها اكتملت لتوها. بحثنا - بينتر الصغير وأنا - فى كل مكان إلا أننا لم نجدها، لا ريب أنه خبأها فى مكان ما".

كانت عينا بوارو تلتمعان بذلك البريق الأخضر الذى أعرفه جيداً.

وسأل: "ماذا كان اسم ذلك الكتاب؟".

أجاب جاب قائلاً: "(اليد الخفية فى الصين) كما أعتقد".

قال بوارو وهو يلهث تقريباً: "أهكذا!" ثم قال فى سرعة: "أريد أن أرى الصينى آه لينج".

تم استدعاء الصينى الذى جاء بسرعة وقد انخفضت عيناه إلى الأرض، وقد أخذت ضفيرة الشعر الصغيرة فى مؤخرة رأسه تتأرجح. كان وجهه الجامد خالياً من أى تعبير.

سأله بوارو: "آه لينج. هل تشعر بالأسف لوفاة سيدك؟".

قال الصينى: "أنا شديد الأسف سيدى".

عاد بوارو يسأله: "هل تعرف من قتلته؟".

إلا أن الصينى أجابه: "لا، كنت سأخبر الشرطة لو أننى كنت أعرف".

استمرت الأسئلة والأجوبة. وبنفس الوجه الخالى من التعبيرات وصف آه لينج كيف أعد الكارى، وكيف أن الطاهى لا علاقة له بذلك مؤكداً أن أحداً لم يلمس الكارى سواه. وكنت أتساءل عما إذا كان يعرف أين تقوده اعترافاته. كما أكد أيضاً أن النافذة كانت مغلقة بالمزلاج فى ذلك المساء. وقال إنه إذا كانت مفتوحة فى الصباح فإن سيده هو الذى فتحها. وفى النهاية صرفه بوارو قائلاً له:

"يكفى هذا يا آه لينج". ثم قال له وهو عند الباب: "وأنت قلت إنك لا تعرف شيئاً عن زهرة الياسمين الصفراء؟".

فأجابه الصينى: "لا. وماذا يجب أن أعرف؟".

لكن بوارو عاد يسأله: "ولا تعرف شيئاً عن العلامات التى كانت موضوعة أسفلها؟".

كان بوارو يميل إلى الأمام وهو يسأله فلاحظ من فوره شيئاً ما على التراب الذى كان يعلو إحدى المناضد الصغيرة، كنت قريباً بصورة كافية لكى ألمح ذلك الشيء قبل أن يحكه بوارو. كانت ضربة قاضية. كان خطأ يميل على زاويته اليمنى وأسفله خط آخر فيشكلان معاً رقم أربعة كبيراً. كان التأثير على وجه الصينى صاعقاً. للحظة واحدة أصبح وجهه مثلاً للربع ثم عاد بعدها فجأة إلى جموده قبل أن يكرر نفيه ويغادر المكان.

خرج جاب يبحث عن بينتر الصغير وأصبحنا - بوارو وأنا - وحدنا فى المكان.

فصاح بوارو: "الأربعة الكبار يا هاستنجز. من جديد. الأربعة الكبار. كان بينتر رحالة بارزا. بالتأكيد يضم كتابه معلومات حيوية عن رقم واحد، لى تشانج ين، الرأس والعقل المفكر للأربعة الكبار".

تساءلت قائلاً: "ولكن كيف... كيف...".

قاطعنى بوارو قائلاً: "صه، إنهم قادمون".

كان جيرالد بينتر شاباً لطيفاً تبدو عليه مظاهر الضعف. كانت لديه لحية بنية صغيرة وربطة عنق ملفتة للنظر، وقد أجاب عن أسئلة بوارو بهدوء وسهولة، وقال موضحاً:

"لقد تناولت العشاء مع بعض الجيران. إنهم آل ويتشرلى. فى أى وقت عدتُ إلى المنزل؟ أوه فى حوالى الحادية عشرة. لدى مفتاح للمزلاج الموضوع فى الباب الخارجى، فأنت تعلم أنه فى ذلك الوقت يكون كل الخدم قد ذهبوا ليناموا، وقد اعتقدتُ بالطبع أن عمى قد فعل ذلك أيضاً. فى الحقيقة أعتقد أننى لمحتُ ذلك الشحاذ الصينى آه لينج وهو يحوم حول ركن الردهة إلا أننى أعتقد أننى كنتُ واهماً".

سأله بوارو: "ومتى كانت آخر مرة رأيتَ فيها عمك؟ أعنى قبل أن تأتى وتقيم هنا معه؟".

أجاب جيرالد بينتر: "أوه! منذ أن كنتُ فى العاشرة. لقد تشاجر هو وشقيقه (أبى). أنت تعلم هذه الأمور".

فعاد بوارو يسأل: "إلا أنه عثر عليك من جديد دون أية مشكلات، أليس كذلك؟ على الرغم من كل تلك السنوات التى مرت عليكما؟".

أجابه الشاب: "نعم. لقد كانت ضربة حظ لى أن أرى الإعلان الذى أرسله لى المحامى".

لم يسأله بوارو المزيد.

كان تحركنا التالى هو زيارة الطبيب كوينتن. كانت روايته مطابقة تماماً لما قاله فى التحقيق ولم يكن لديه إلا القليل ليضيفه. لقد استقبلنا فى غرفة العمليات الجراحية، حيث كان قد انتهى من فحص أحد المرضى. بدا رجلاً ذكياً، وكان فى سلوكه نوع من الأناقة ظهر فى النظارة التى استقرت فوق أنفه، إلا أننى اعتقدت أنه يتبع الطرق الحديثة فى عمله.

قال فى صراحة: "أتمنى لو تذكرتُ أمر النافذة. لكنه من الخطر أن يعود المرء بذاكرته للوراء، فالإنسان يصبح أكثر إيجابية بشأن الأشياء التى لم تقع، هذا أمر معروف فى علم النفس، أليس كذلك سيد بوارو؟ أتعرف؟ لقد قرأتُ كثيراً عن طرق تفكيرك وأستطيع أن أقول إننى شديد الإعجاب بها. لا. أعتقد أنه من المؤكد أن الصينى هو الذى وضع مسحوق الأفيون فى الكارى إلا أنه لن يعترف بذلك أبداً. ولن نستطيع أن نعرف لماذا. إلا أن حرق أحد الأشخاص فى النار هو أمر لا يتفق مع سلوكيات صديقنا الصينى. هذا ما يبدو لى".

علقتُ على هذه النقطة لـ "بوارو" بينما كنا نسير فى الشارع الرئيسى لـ "ماركت هاندفورد".

فقلتُ له: "هل تعتقد أنه شريك فى الأمر؟ بالمناسبة أعتقد أن جاب يمكن الوثوق به فى وضع الخادم الصينى تحت المراقبة. (كان المفتش قد توجه إلى قسم الشرطة للقيام ببعض الأعمال). إن جواسيس الأربعة الكبار متيقظون جداً".

قال بوارو: "إن جاب يضع عينيه على الاثنين، لقد لمحهما البعض فى المكان الذى تم فيه اكتشاف الجثة".

قلتُ: "حسناً. نحن الآن نعرف أن جيرالد بينتر لا علاقة له بالأمر".

رد بوارو قائلاً: "لقد أصبحت تعرف أشياء لا أعرفها أنا، لقد أصبح هذا أمراً متعباً".

قلتُ ضاحكاً: "أيها الثعلب العجوز. أنت لا تقلل من شأن نفسك أبداً".

قال بوارو: "لكى أكون أميناً معك يا هاستنجز فإن هذه القضية تبدو الآن واضحة بالنسبة لى. كل شيء عدا عبارة "زهرة الياسمين الصفراء"، وأعتقد أننى سوف أبدأ فى الاقتناع بما تقول من أنها لا علاقة لها بالجريمة. وفى هذه الحالة فإنك تكون قد حركت من سكون عقلك النائم، لقد فعلتُ أنا ذلك ومنذ هذا الحين...".

اندفع فجأة من جانبي ودخل إلى محل قريب لبيع الكتب وبعد دقائق قليلة خرج حاملاً طرداً ثم انضم إلينا جاب وتوجهنا كلنا إلى النزل الصغير.

نمت حتى وقت متأخر من الصباح التالي. وعندما نزلتُ إلى حجرة الجلوس التي تم حجزها لنا وجدتُ بوارو هناك بالفعل، كان يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً وقد ارتسمت على وجهه ملامح صراع عنيف.

وصاح فيّ وهو يلوح بيد مرتجفة: "لا تتحدث معي يا هاستنجز على الأقل حتى أصل إلى حل لتلك القضية ويتم اعتقال القاتل، بعيداً عن أن دراستي لعلم النفس ضعيفة، فإنه يمكن القول إنه إذا كتب رجل يحتضر رسالة فإن هذا يعني أن الرسالة مهمة. لقد قال الجميع "زهرة الياسمين الصفراء"؟ إن الياسمين الأصفر ينمو فوق المنزل، إن هذا لا يعني شيئاً".

ثم أمسك كتاباً صغيراً وقال: "حسناً. ماذا يعني هذا؟ اسمع ما قاله هذا الكتاب": لكنه قبل أن يقرأ قال مفسراً الأمر: "لقد خطر لى يا صديقى أنه سيكون من الجيد أن ندرس الأمر. ما هو، تحديداً، الياسمين الأصفر؟ هذا الكتاب الصغير أخبرنى، اسمع".

وبدأ يقرأ قائلاً: "جيسيمامين رايدكس، الياسمين الأصفر. يتكون من الكالويد جيسيمامين N_2O_3 H_{26} C_{22} . سم قوى يعمل مثل الكونيين، أو جيسيمامين NO_2 H_{14} C_{12} ويعمل مثل الإسترايكنين. أو حامض جلسيمي إلخ. مادة الجيسيميوم هي بمثابة مثبط قوى للجهاز العصبى المركزى، ويؤدى فى المراحل المتأخرة من عمله إلى شلل فى أطراف الأعصاب الحركية، وبصفة عامة يؤدى إلى دوار وفقدان القدرة العضلية. ويكون الموت نتيجة لشلل الجهاز التنفسى".

انتهى بوارو من القراءة وقال: "هل رأيتَ يا هاستنجز؟ لقد أشرت إلى بعض الحقيقة فى البداية عندما قال جاب إنه تم حرق رجل حى. لقد قلتُ وقتها إنه تم إحراق رجل ميت".

سألتُه: "لكن لماذا؟ ما هو الهدف؟".

قال بوارو شارحاً: "يا صديقى. إذا ما أردتَ أن تطلق النار على رجل ما أو أن تطعنه بعدما مات أو حتى تضربه على رأسه سوف يبدو من الواضح أن الإصابة قد حدثت بعد الوفاة، إلا أنه فى حالة ما إذا تم إحراق الرأس حتى تتحول إلى رماد فلن يبحث أحد عن أسباب خفية للوفاة، وسوف يبدو من الواضح أن الرجل الذى فر من السم فى وجبة العشاء ليس من المحتمل أن يتعرض للسم فيما بعد. من يكذب؟ هذا هو السؤال. لقد قررتُ أن أصدق آه لينج".

صحتُ مُتَعَجِّباً: "ماذا؟".

قال بوارو: "هل فاجأك الأمر يا هاستنجز؟ إن آه لينج يعلم بوجود عصابة الأربعة الكبار. هذا واضح جداً. والواضح أيضاً أنه لم يكن يعلم بصلتهم بالجريمة حتى تلك اللحظة. وإذا كان هو القاتل فقد كان سوف يستطيع الاحتفاظ بجمود ملامحه تماماً

دون أن يُبدى أى انفعال. لذلك قررت من وقتها أن أصدق آه لينج وأن أضع شكوكى فى جيرالد بينتر. لقد بدا لى أنه باستطاعة رقم أربعة أن ينتحل بكل سهولة شخصية ابن الأخ الذى لم يره عمه منذ وقت طويل".

صحتُ من جديد: "ماذا؟! رقم أربعة؟".

لكن بوارو قال: "لا يا هاستنجز. ليس رقم 4. بمجرد أن قرأتُ موضوع الياسمين الأصفر فهمت الحقيقة. فى الواقع لقد قفزت إلى عقلى".

قلتُ فى برود: "وكما هو الحال دائماً، لم تقفز إلى عقلى".

أجابنى قائلاً: "لأنك لا تستخدم خلاياك الرمادية الصغيرة. من كان لديه الفرصة للعبث بالكارى؟".

قلتُ: "آه لينج، ولا أحد غيره".

لكن بوارو قال متسائلاً: "لا أحد غيره؟ وماذا عن الطبيب؟".

فقلتُ معترضاً: "لكن ذلك كان فيما بعد".

قال بوارو: "بالطبع كان ذلك فيما بعد. لم يكن هناك أى أثر لمسحوق الأفيون فى الكارى الذى تم تقديمه إلى السيد بينتر، لكنه وفقاً للشكوك التى أثارها الدكتور كوينتن فلم يأكل الرجل العجوز ذلك الكارى والذى احتفظ به لحين مجيء طبيبه الذى تم استدعاؤه وفق خطة معينة. جاء دكتور كوينتن وأخذ الكارى لكى يفحصه وأعطى السيد بينتر حقنة ليست من الإسترايكنين ولكن من الياسمين الأصفر، جرعة قاتلة. وبعد أن بدأ السم يؤدى فعله غادر المكان بعدما فك مزلاج النافذة. وبعد ذلك - فى الليل - عاد من النافذة ووجد مخطوطة الكتاب وأحرق السيد بينتر، فيما لم يلتفت إلى الجريدة الملقاة على الأرض والتى غطاها جسد الرجل العجوز. لقد أدرك سيد بينتر طبيعة المادة التى حقنه بها الطبيب، وبذل كل جهده لكى يقول إن الأربعة الكبار هم الذين قتلوه. من السهل على دكتور كوينتن أن يمزج الكارى بالسم قبل إرساله لكى يتم تحليله. لقد أدلى لنا بالمحادثة المزعومة التى دارت بينه وبين الرجل العجوز وذكر بصورة عرضية أمر حقنة الإسترايكنين تحسباً لأن يكتشف أحد أثر الحقنة فى جسد سيد بينتر. وفى الحال توزعت الشكوك بين الحادث العرَضى وبين اتهام آه لينج بسبب الكارى".

قلتُ: "لكن دكتور كوينتن لا يمكن أن يكون رقم أربعة!".

لكن بوارو قال: "أعتقد أنه يمكن أن يكون كذلك. لا بد أن يكون هناك دكتور كوينتن حقيقى والذى ربما يكون فى الخارج لفترة ما. بكل بساطة انتحل رقم أربعة شخصيته لبعض الوقت. وتم إعداد الترتيبات مع دكتور بوليثو بالمراسلات. ولا ريب أن الرجل الذى كان من المفترض أن يحل محل دكتور بوليثو فى عطلته قد مرض فى

اللحظة الأخيرة".

فى تلك اللحظة اندفع جاب داخل الحجرة وقد احمر وجهه.

سأله بوارو فى قلق: "هل قبضتَ عليه؟".

هز جاب رأسه نافياً وقال: "لقد عاد دكتور بوليثو اليوم بعد أن تلقى برقية تطلب منه ذلك. لا أحد يعلم من الذى أرسلها فيما غادر الآخر البلدة فى الليل، لكننا سوف نلقى القبض عليه:

لكن بوارو هز رأسه نافياً فى هدوء وقال: "لا أعتقد ذلك".

وبذهن شارد أمسك شوكة طعام ورسم رقم أربعة كبيراً على المائدة.

الفصل الحادى عشر

مشكلة شطرنج

كنا بوارو وأنا غالباً ما نتناول طعام العشاء فى مطعم صغير فى سوهو، وذات ليلة كنا هناك واكتشفنا وجود أحد الأصدقاء على مائدة قريبة، كان المفتش جاب، ولما كان هناك مكان خال على مائدتنا فقد انضم إلينا. كان قد مر وقت طويل منذ آخر مرة رأيناه فيها.

قال بوارو فى لوم: "أنت لا تزورنا أبدا هذه الأيام، لم نتقابل منذ قضية زهرة الياسمين الصفراء. كان ذلك منذ شهر تقريبا".

قال جاب: "لقد كنتُ فى الشمال. هذا هو السبب. كيف تسير الأمور معك؟ لا تزال عصابة الأربعة الكبار قوية... هه؟".

هز بوارو إصبعه محذراً فى وجه جاب وقال:

"آه، أنت تسخر منى، إلا أن عصابة الأربعة الكبار موجودة بالفعل".

قال جاب: "أوه! أنا لا أشك فى ذلك، إلا أنها ليست محور العالم كما تتصور أنت".

عاد بوارو يقول: "يا صديقى، أنت مخطئ تماماً. إن قوة الشر العظمى فى عالمنا المعاصر تسمى الأربعة الكبار. لا أحد يعرف هدفها النهائى، إلا أنه لا توجد منظمة إجرامية بهذا الشكل غيرها على الإطلاق. إن العقل الأذكى من الصين هو عقلها المفكر. وفى عضويتها مليونير أمريكى وعالمة فرنسية، أما الرابع...".

قاطعته جاب قائلاً:

"أعرف. أعرف. إنها تلك الفكرة التى تستحوذ عليك. لقد قاربت تلك الفكرة على أن تصبح هاجسك الصغير سيد بوارو، دعنا نتكلم فى شيء آخر على سبيل التغيير، هل لديك أى اهتمام بالشطرنج؟".

أجاب بوارو: "لقد لعبته من قبل".

فقال جاب: "هل رأيت ذلك الأمر الغريب أمس؟ لقاء يجمع بين أفضل لاعبين فى العالم ويموت أحدهما أثناء اللقاء؟".

قال بوارو: "لقد قرأتُ عن ذلك. كان البطل الروسى سافارونوف أحدهما، بينما

كان الآخر الذى مات بالسكتة القلبية اللاعب الأمريكى الشاب جيلمّر ويلسون".

قال جاب: "لقد فاز سافارونوف على روبنشتاين وأصبح هو بطل العالم قبل سنوات. وكان يقال إن ويلسون فى طريقه إلى أن يصبح البطل الجديد".

قال بوارو مفكراً: "أمر غريب. وإذا لم أكن مخطئاً فأنت لديك اهتمام معين بهذا الأمر".

أطلق جاب ضحكة مرتبكة وقال:

"لقد أصبت الحقيقة سيد بوارو. أنا أشعر بالحيرة. كان ويلسون معافى كالفرس، ولا توجد به أية إشارات على وجود متاعب بالقلب، إن موته أمر لا يمكن تفسيره".

صحت متسائلاً: "أنت تشك فى أن يكون دكتور سافارونوف قد أزاحه من طريقه؟".

قال جاب فى لهجة جافة: "لا، إطلاقاً. لا أعتقد أن شخصاً روسياً يمكنه أن يقتل شخصاً من بلد آخر لكيلا يتعرض لهزيمة فى الشطرنج. وعلى أية حال فأنا أعتقد أن الأمر معكوس، فأمام الدكتور مستقبل جيد. يقولون إنه يأتى بعد لاسكر مباشرة".

هز بوارو رأسه مفكراً وسأل جاب قائلاً:

"إذن، ما هى فكرتك الصغيرة؟ لماذا تم قتل ويلسون بالسم؟ هذا لأننى أفترض أنك تشك فى أنه مات مسموماً".

قال جاب: "أمر طبيعى، إن السكتة القلبية تعنى أن يتوقف قلبك عن النبض، هذا كل ما فى الأمر. هذا ما قاله لنا الطبيب بصورة رسمية فى وقتها. لكن بعيداً عن الرسميات فقد أشار إلى أنه لا يشعر بالارتياح تجاه الأمر".

سأله بوارو: "متى سيتم تشريح الجثة؟".

أجابه جاب: "الليلة. لقد كان موت ويلسون مفاجئاً. لقد كان يبدو أنه سوف يحرك إحدى قطع الشطرنج كالمعتاد قبل أن يسقط للأمام ميتاً!".

قال بوارو: "هناك الكثير من السموم التى يمكنها أن تؤدى إلى ذلك".

ردّ جاب قائلاً: "أعرف، سوف يساعدنا التشريح كما أتوقع. لكن لماذا يريد أى شخص أن يضع ويلسون خارج الطريق؟ هذا هو ما أريد أن أعرفه. إنه غير مؤذ. شاب صغير لا يثير الريبة. جاء من الولايات المتحدة إلى هنا وليس له أى أعداء".

قلت فى حيرة: "إنه يبدو أمراً لا يصدق".

قال بوارو باسمّاً: "على الإطلاق، إن جاب له نظريته الصغيرة كما أرى".

قال جاب: "لدى نظرية سيد بوارو. أنا لا أعتقد أن السم كان يستهدف ويلسون، لقد كان يستهدف الآخر".

سألناه: "سافارونوف؟".

أجابنا جاب: "نعم. لقد انتقد سافارونوف البلشفيين وقت اندلاع ثورتهم حتى إنه قيل إنه قُتل، إلا أنه في الواقع كان قد فر. ولثلاث سنوات عانى صعوبات لا تصدق في براري سيبيريا. كانت معاناته كبيرة إلى درجة أنه تحول بعدها إلى رجل آخر. يقول أصدقائه والمقربون منه إنهم بالكاد تعرفوا عليه، فقد ابيض شعره وأصبحت ملامحه كأنه رجل عجوز، إنه نصف عاجز وقليلًا ما يخرج، ويعيش مع ابنة شقيقه - وتسمى سونيا دافيلوف - وخادم روسي في شقة على طريق ويستمينستر. ربما لا يزال يعتبر نفسه شخصاً تحت المراقبة. المؤكد أنه رفض كثيراً الدخول في تحدى الشطرنج هذا وهو الرفض الذي تكرر في السابق أخيراً حتى تناولته الصحافة وبدأت تثير الكثير من الضوضاء حول "الرفض الذي يفقد إلى الروح الرياضية". ثم جاء جيلمير ويلسون ليتحداه بروح راعي البقر التي لا تلين، وفي النهاية كان له ما أراد. والآن، أسألك سيد بوارو لماذا كان رافضاً؟ لأنه كان لا يريد لفت الانتباه إليه. لا يريد لشخص ما أن يعرف طريقه. إن تفسيري للأمر هو أن جيلمير ويلسون قد قُتل بطريق الخطأ".

سأله بوارو: "لكن ليس هناك مصلحة شخصية لأي أحد في موت سافارونوف؟".

قال جاب: "حسناً. أعتقد أنها ابنة شقيقه. لقد حصل مؤخراً على ثروة كبيرة تركتها له سيدة جوسبويا التي كان زوجها يحتكر تجارة السكر تحت النظام السابق. لقد كانا على علاقة يوماً ما، وقد رفضت بشدة أن تؤكد التقارير التي تحدثت عن موته".

سأله بوارو: "وأين كان يقام اللقاء؟".

قال جاب: "في منزل سافارونوف، إنه عاجز كما قلت لك".

من جديد سأله بوارو: "هل كان هناك الكثيرون يتابعون اللقاء؟".

أجابه جاب: "ربما 12 شخصاً، ومن المحتمل أن يكون العدد أكبر".

عبس وجه بوارو وقال:

"يا جاب المسكين. إن مهمتك ليست سهلة على الإطلاق".

لكن جاب قال: "بمجرد أن أتأكد من أن ويلسون قُتل مسموماً فسيكون بإمكانى أن أتحرك إلى الأمام".

قال بوارو متسائلاً: "وعلى فرض أن ذلك قد حدث. لنفترض صحة نظريتك في أن سافارونوف كان هو المستهدف بالقتل. فالقاتل قد يحاول من جديد؟".

قال جاب: "بالتأكيد سوف يحاول. هناك رجلان يراقبان منزل سافارونوف".

لكن بوارو قال: "ستكون هذه المراقبة جيدة إذا ما فكر أحدهم في أن يأتي حاملاً

قنبلة تحت ذراعه".

قال جاب وعيناه تبرقان: "لقد بدأت تهتم بالأمر سيد بوارو. هل تهتم بالحضور إلى المشرحة وترى جسد ويلسون قبل أن يبدأ الأطباء فى تشريحه؟ من يدري. ربما كانت رابطة عنقه منحرفة قليلاً فيعطيك هذا مفتاحاً مهماً لحل اللغز".

قال بوارو: "عزيزى جاب. طوال العشاء وأصابعى تأكلنى لكى أعدل لك وضع رابطة عنقك، هل تسمح بذلك هه؟ هكذا يكون الأمر لطيفاً لمن ينظر إليك نعم، دعنا نذهب إلى المشرحة".

كنتُ أستطيع أن أرى أن تلك المشكلة الجديدة استقطبت كل اهتمام بوارو. كان قد مر وقت طويل منذ أن أبدى اهتماماً بأية قضية خارجية الأمر الذى أسعدنى كثيراً أن أراه يعود إلى نمطه القديم.

بالنسبة لى، شعرت بالشفقة العميقة عندما نظرت إلى الجسد الساكن والوجه المتشنج لذلك الشاب الأمريكى سيئ الحظ الذى جاء موته بهذه الطريقة الغريبة. فحص بوارو الجسد بدقة. لم تكن هناك أية علامة عليه إلا جرح بسيط فى اليد اليسرى.

قال جاب: "يقول الطبيب إنه أثر حرق لا قطع".

تحول اهتمام بوارو إلى محتويات جيوب نقود القتل والتى أفرغها لنا أحد رجال الشرطة. لم يكن فيها إلا منديل ومفاتيح ومفكرة مليئة بالملاحظات وبعض الخطابات غير المهمة. إلا أن شيئاً واحداً بمفرده استحوذ على اهتمام بوارو.

صاح متعجباً: "قطعة شطرنج! فيل أبيض. هل كان هذا فى جيوبه؟".

قال جاب: "لا، لقد كان يقبض عليها بيده. لقد واجهنا الكثير من الصعوبة فى انتزاعها من بين أصابعه. لا بد أن نعيدها إلى دكتور سافارونوف يوماً ما، إنها جزء من طاقم شطرنج عاجى جميل جداً".

قال بوارو: "اسمح لى بأن أعيدها أنا إليه. سيكون ذلك مبرراً جيداً لكى أذهب هناك".

صاح جاب: "حسناً! إذن أنت تريد أن تشارك فى القضية؟".

قال بوارو: "أعترف بذلك. لقد أثرت انتباهى بكل مهارة".

قال جاب: "رائع. انفض عنك كسلك، أستطيع أن أرى أن كابتن هاستنجز مسرور أيضاً".

قلتُ ضاحكاً: "نعم تماماً".

استدار بوارو إلى الجثة من جديد وسأل جاب قائلاً:

"ألا يوجد أى تفصيل إضافى صغير يمكنك أن تقوله لى بشأنه؟".

قال جاب: "لا أعتقد ذلك".

عاد بوارو يسأله: "ولا حتى أنه كان.. أعسر؟".

قال جاب: "أنت ساحر يا سيد بوارو، كيف عرفت ذلك؟ لقد كان أعسر بالفعل. إلا أن ذلك ليس الشيء الذى يفيد القضية".

أجابه بوارو بسرعة: "لا شيء على الإطلاق"، ثم تابع بعدما لاحظ أن جاب تكدر قليلاً: "إنه مزاح. لقد كنتُ أمزح معك كما ترى".

ثم غادرنا المكان وقد تفاهمنا بصورة ودية.

وفى الصباح التالى كنا نمضى فى طريقنا إلى منزل سافارونوف فى ويستمينستر.

قلتُ متأملاً: "سونيا دافيلوف. إنه اسم جميل".

توقف بوارو ونظر إلى نظرة يأس وقال:

"دوماً تبحث عن الرومانسية. لا يمكن إصلاحك. سيكون أمراً جيداً بالنسبة لك أن نكتشف أن سونيا دافيلوف هى صديقتنا وعدوتنا السيدة فيرا روساكوف".

أربد وجهى عندما ذكر اسم تلك السيدة، ثم قلتُ:

"بالتأكيد يا بوارو أنت لا تشك فى أن...".

قاطعنى قائلاً: "لا، إنها دعابة. لم تسيطر عصابة الأربعة الكبار على عقلى إلى هذه الدرجة مهما قال جاب".

فتح لنا باب الشقة خادم متخشب الوجه بصورة غريبة. وبدا من المستحيل التخيل أن هذا الوجه الجامد يمكن أن تبدو عليه أية انفعالات.

أبرز بوارو بطاقة كتب عليها جاب بضع كلمات تعريفية فقادنا الخادم إلى حجرة منخفضة طويلة بها الكثير من الستائر والتحف الفخمة. كما كان هناك تمثال أو اثنان معلقان على الحوائط، بينما فرشت سجاجيد ذات ذوق رفيع على الأرضية، فيما كان هناك إبريق شاي على المائدة.

كنتُ أتأمل أحد التمثالين والذى قدرت أنه ذو قيمة عالية، ثم استدرت إلى بوارو فوجدته يميل على الأرضية، وعلى الرغم من أن السجاجيد كانت جميلة إلا أنني لم أر أى داع لكل هذا الاهتمام الشديد، فسألته:

"هل هى من نوع فخم جداً؟".

فأجابنى وأنا أقترّب منه: "ماذا؟ أوه! السجاجيد؟ لا. لم تكن السجاجيد هى ما كنتُ

أتأمل، لكنها جميلة جداً إنها من نوع فاخر لدرجة أنه من المؤسف أن تجد فيها أثر ذلك المسمار فى وسطها. لا يا هاستنجز. لقد تمت إزالة المسمار إلا أن الثقب لا يزال موجوداً".

صدر من ورائنا صوت مفاجئ جعلنى ألتفتُ بسرعة إلى الخلف فيما انتصب بوارو برشاقة على قدميه. كانت هناك فتاة تقف فى الممر وقد امتلأت عيناها المركزتان علينا بالشك، كانت متوسطة الطول لها وجه جميل عبوس إلى حد ما بعينين زرقاوين وشعر داكن قصير جداً. كان صوتها قوياً وجهورياً عندما قالت:

"أخشى أن عمى لن يتمكن من لقائكما، إنه عاجز جداً".

قال بوارو: "يا للأسف. لكننى أعتقد أنك يمكن أن تقدمى لى المساعدة بدلاً منه. أنت آنسة دافيلوف، أليس كذلك؟".

أجابت قائلة: "نعم. أنا سونيا دافيلوف. ماذا تريد أن تعرف؟".

قال بوارو: "أنا أجرى بعض التحريات حول الحادثة الأليمة التى وقعت الليلة قبل الماضية وهى موت سيد جيلمر ويلسون، ما الذى يمكنك أن تخبرينى به عن هذا الموضوع؟".

قالت: "لقد مات بسكتة قلبية وهو يلعب الشطرنج".

قال بوارو: "الشرطة ليست واثقة من أن الأمر سكتة قلبية يا آنستى".

بدا على الفتاة سمات الرعب وصاحت:

"لقد كان الأمر حقيقياً إذن. كان إيفان على حق".

سألها بوارو: "من هو إيفان؟ ولماذا تقولين إنه كان على حق؟".

أجابته: "إيفان هو الذى فتح لكما الباب وكان قد قال لى إنه لا يعتقد أن موت جيلمر ويلسون كان طبيعياً وأنه مات مسموماً بطريق الخطأ".

قال بوارو: "بطريق الخطأ".

أجابته قائلة: "نعم. كان السم يستهدف عمى".

كانت قد تخلت عن عدم ثقتها فىنا وبدأت فى الحديث بحماس.

سألها بوارو: "لماذا تقولين ذلك يا آنستى؟ من الذى يرغب فى قتل الدكتور بالسم؟".

هزت رأسها وقالت:

"لست أدرى. أنا فى غاية الارتباك. وعمى... إنه لن يثق بى، وهو محق فى ذلك فهو

بالكاد يعرفنى لقد رآنى وأنا طفلة ولم يرنى من بعدها إلا عندما أتيتُ إلى الإقامة معه هنا. إلا أن ما أعرفه جيداً هو أن يخشى شيئاً ما. إن لدينا فى روسيا الكثير من الجماعات السرية، ولقد سمعتُ ذات مرة بالمصادفة شيئاً ما جعلنى أعتقد أنه يخشى إحدى تلك الجماعات"، ثم تقدمت منا وسألت بوارو وقد خفضت صوتها: "قل لى يا سيدى، هل سمعت عن جماعة تسمى (الأربعة الكبار)؟".

كاد بوارو يموت من فرط المفاجأة والانفعال وجحظت عيناه من الدهول قبل أن يقول:

"لماذا... ماذا تعرفين عن الأربعة الكبار يا آنستى؟".

قالت: "إذن هناك جماعة بهذا الاسم! لقد سمعت مصادفةً إشارة إلى ذلك الاسم وسألت عمى عن معناه فيما بعد، لكننى لم أر فى حياتى رجلاً خائفاً مثله وقتها. لقد استحال لونه إلى الأبيض وأخذ يرتجف، إنه يخشاهم يا سيدى، يخشاهم جداً. أنا متأكدة من ذلك. وقد قتلوا الأمريكى ويلسون بطريق الخطأ".

غمغم بوارو: "الأربعة الكبار. دائماً الأربعة الكبار. إنها مصادفة مذهلة يا سيدتى. إن عمك لا يزال فى خطر ويجب أن أعمل على حمايته. والآن قصى على ما جرى فى تلك الليلة، أرىنى رقعة الشطرنج، وكيف كان يجلس الرجلان... كل شيء".

توجهت إلى جانب الحجرة وأحضرت منضدة صغيرة. كان سطحها مُطعمًا بمنتهى الإتقان بمربعات سوداء وفضية ليمثل رقعة شطرنج وقالت:

"لقد تم إرسالها إلى عمى قبل أسابيع قليلة كهدية مع طلب بأن يستخدمها فى اللقاء القادم الذى يلعبه كانت فى منتصف الحجرة... هنا".

فحص بوارو المنضدة بما بدا لى أنه اهتمام غير ضرورى. لم يكن يدير التحقيق بالصورة التى كنت سأفعلها إذا كنت مكانه. الكثير من الأسئلة بدا لى بلا طائل فيما لم يطرح أسئلة عن الكثير من النقاط المهمة بالفعل وفى النهاية استنتجت أن ذكر اسم الأربعة الكبار ربما يكون قد أخرجه عن توازنه.

وبعد فحص دقيق للمنضدة وللمكان الذى كانت موضوعة فيه طلب أن يرى طاقم الشطرنج فأحضرت له سونيا دافيلوف فى صندوق، ففحص قطعة أو اثنتين دون اهتمام.

وقال وهو شارد الذهن: "طاقم فاخر".

وحتى الآن لم يسأل أية أسئلة حول الطعام الذى تم تقديمه أو حول الأشخاص الذين حضروا المباراة.

تنحنحتُ بصوت مسموع وقلتُ له: "ألا تعتقد يا بوارو أن...".

قاطعنى بحدة قائلاً: "لا تعتقد أى شيء يا صديقى. اترك الأمر كله لى، آنستى، هل

من غير الممكن إطلاقاً أن أرى عمك؟".

ظهرت ابتسامة خفيفة على وجهها وقالت:

"سوف يقابلکم. نعم. أنت تفهم أنه من واجبى أن أقابل الغرباء فى البداية".

اختفت ثم سمعت اصواتاً خافتة من الحجرة المجاورة، وبعد لحظة عادت وأشارت إلينا أن نتبعها إلى الحجرة المجاورة.

كان الرجل الراقد على الأريكة هناك رجلاً مهيباً. كان طويلاً وهزياً بحاجبين كبيرين كثيفين ولحية بيضاء ووجه أنهكه الجوع والصعاب التى مر بها. كان دكتور سافارونوف شخصية مميزة. لاحظتُ التكوين الغريب لرأسه حيث كان طولها غير عادى، كنتُ أعرف أن لاعب الشطرنج العظيم يجب أن يكون رأسه كبيراً، وأستطيع الآن أن أفهم كيف أصبح دكتور سافارونوف ثانى أكبر لاعب شطرنج فى العالم.

انحنى بوارو وقال:

"سيدى الدكتور. هل يمكننى أن أتحدث معك على انفراد؟".

استدار سافارونوف إلى ابنة شقيقه وقال لها: "اتركينا يا سونيا".

فغادرت المكان طاعةً للأمر.

هنا سأل سافارونوف: "والآن سيدى، ما الأمر؟".

أجاب بوارو: "دكتور سافارونوف. لقد حصلت مؤخراً على ثروة كبيرة. فإذا ما توفيت فجأة فمن يرثك؟".

قال سافارونوف: "لقد أعددتُ وصية أترك فيها كل شيء لابنة شقيقى. لا تقل إنك تعتقد...".

قاطعته بوارو قائلاً: "أنا لا أعتقد شيئاً، لكنك لم تر ابنة شقيقتك منذ أن كانت طفلة، لذا فمن السهل على أية واحدة أخرى أن تنتحل شخصيتها".

بدا على سافارونوف الصدمة من تلك الفكرة.

إلا أن بوارو قال: "يكفى الحديث فى هذا الموضوع، لقد حذرتك وانتهى الأمر. ما أريده منك الآن هو أن تصف لى لعبة الشطرنج فى ذلك اليوم".

سأله سافارونوف: "ماذا يعنى أن أصفها لك؟".

قال بوارو: "حسناً، عن نفسى أنا لا ألعب الشطرنج لكننى أفهم أن هناك خطوات معينة للبدائية، لافتتاح اللعب، ألا يسمونها كذلك؟".

ابتسم دكتور سافارونوف ابتسامة صغيرة وقال:

"آه، لقد فهمتك الآن. لقد افتتح ويلسون اللعب بطريقة روى لوبيز، وهى إحدى أشهر طرق افتتاح اللعب، وعادة ما يتبعها المرء فى المنافسات والمباريات المهمة".

سأله بوارو: "كم مضى من الوقت عندما حدثت المأساة؟".

قال سافارونوف: "لا ريب أن ذلك قد حدث بعد اللعبة الثالثة أو الرابعة عندما سقط ويلسون فجأة للأمام ميتاً كالحجر".

نهض بوارو متهيئاً للرحيل ثم ألقى سؤاله الأخير بصورة توحى بعدم أهميته إلا أننى كنت أعرف ذلك جيداً فقال بوارو:

"هل أكل أو شرب شيئاً؟".

أجاب سافارونوف: "بعض الشراب والصودا كما أعتقد".

قال بوارو: "شكراً لك دكتور سافارونوف، لن أزعجك أكثر من ذلك".

كان إيفان يقف فى الردهة فى انتظارنا ليرينا طريق الخروج، لكن بوارو تباطأ قليلاً عند عتبة الباب وسأله:

"هل تعرفون من يقطن فى الشقة التى تقع أسفل هذه الشقة؟".

أجابه إيفان: "السير تشارلز كينجويل عضو البرلمان سيدى، لقد أجراها مفروشة".

قال بوارو: "شكراً لك".

ثم خرجنا فى شمس الشتاء الساطعة.

هنا اندفعت قائلاً: "حقاً يا بوارو. لست أعتقد أنك كنت متميزاً فى هذه المرة، بكل تأكيد كانت أسئلتك غير مناسبة".

نظر لى بوارو وقال: "هل تعتقد ذلك يا هاستنجز؟ لقد كنت مضطرباً. ماذا كنت سوف تسأل؟".

فكرت فى السؤال جيداً ثم أوضحت أفكارى لبوارو، الذى استمع إلىّ بما بدا أنه اهتمام شديد، واستمر حديثى حتى وصلنا تقريباً إلى المنزل.

قال بوارو بينما كان يضع مفتاحه فى باب البناية ويتقدمنى على السلم: "ممتاز وعملى جداً يا هاستنجز، إلا أنه ليس ضرورياً".

صحتُ مندهشاً: "غير ضرورى! هل إذا ما تعرض أحد للسلم...".

قاطعنى بوارو صائحاً وهو يشير إلى ورقة موضوعة على المائدة: "آها! إنها من جاب. كما توقعت". ثم أعطانى إياها. كانت مختصرة ومباشرة. لم يتم العثور على آثار للسلم ولا يوجد ما يدل على الكيفية التى مات بها الرجل.

قال بوارو: "كما ترى فإن أسئلتنا كانت ستصبح غير ضرورية".
سألته: "هل خمنت ذلك مسبقاً؟".

أجابني قائلاً وهو يقتبس عبارة قلّتها تعليقاً على دور من ألعاب الورق كنتُ أعبه: "لقد توقعت النتيجة المحتملة من الدور، يا صديقي عندما تفعل الأمر بالطريقة الصحيحة فلا تسمى ذلك تخميناً".

قلّتُ في نفاذ صبر: "لا تخرجنا عن الموضوع. هل تنبأت بذلك؟".
قال بوارو: "نعم".

سألته: "لماذا؟".

فوضع بوارو يده في جيبه وأخرج فيل شطرنج أبيض.

فصحتُ: "ما هذا؟ لقد نسيتُ أن تعيده إلى دكتور سافارونوف".

قال بوارو: "لقد أخطأتُ يا صديقي. ذلك الفيل لا يزال في جيبى الأيسر، لقد أخذتُ نظيره من صندوق الشطرنج الذى أحضرته لنا آنسة دافيلوف وسمحت لى بصدر رحب أن أفحصه. إن مثنى كلمة فيل شطرنج هو فيلا شطرنج".

وشدد على صيغة المثنى فى الكلمة، وكنتُ أنا فى قمة حيرتى، لكننى سألته:
"ولماذا أخذته؟".

أجابني: "لا شيء. فقط كنتُ أريد أن أعرف ما إذا كانا متماثلين أم لا".

نظر إليهما بوارو ثم قال: "يبدوان متماثلين، إلا أن المرء لا يجب أن يأخذ الحقائق كمسلمات قبل أن تثبت صحتها. أحضر لى من فضلك ميزانى الصغير".

وبكل اهتمام وزن القطعتين ثم نظر إلى بوجه يتألق بالانتصار وقال:

"أنا على حق. انظر، من المستحيل خداع هيركيول بوارو".

ثم اندفع نحو الهاتف وانتظر بصبر نافذ، ثم قال:

"هل معى جاب؟ آه! جاب إنه أنت. هيركيول بوارو يتحدث، راقب الخادم إيفان. لا تدعه يفلت من بين أصابعك تحت أى ظرف من الظروف، نعم، نعم. إن الأمر كما أقول".

ثم وضع سماعة الهاتف واستدار إلى وقال:

"أرأيت، إن الأمر ليس كما كنتُ تعتقد يا هاستنجز؟ سوف أشرح لك. لم يتم تسميم ويلسون. لقد قتل بالصدمة الكهربائية. هناك خيط معدنى يمر عبر واحدة من قطع الشطرنج تلك، لقد تم إعداد مائدة اللعب سابقاً وتم وضعها فى مكان معين على

الأرضية. عندما تم وضع الفيل على أحد المربعات الفضية سرى التيار فى جسد ويلسون وقتله على الفور. كان الأثر الوحيد هو الحرق على يده. يده اليسرى لأنه كان أعسر، لقد كانت "المائدة الخاصة" قطعة آلية مأكرة جداً. كانت المائدة التى فحصتها هى نسخة طبق الأصل من المائدة التى استخدمت فى العملية وتم استبدالها بعد الجريمة على الفور. لقد تم إعداد الأمر من الشقة فى الأسفل. تذكر أنه تم تأجيرها مفروشة. إلا أن هناك شريكاً واحداً على الأقل فى منزل سافارونوف، إن الفتاة عميلة لعصابة الأربعة الكبار لكى ترث ثروة سافارونوف".

سألته: "إيفان؟".

أجاب: "أشك فى أن إيفان ليس إلا رقم أربعة الشهير".

قلت: "ماذا؟".

قال بوارو: "نعم. إن الرجل ممثل بارع. يستطيع أن يقوم بأى دور يريد".

رجعتُ بذكريتى إلى ما مررنا به فى السابق مع ذلك الرجل، حارس مستشفى الأمراض العقلية، الجزار الشاب، الطبيب الأنيق دمث الأخلاق. كلهم نفس الرجل إلا أنهم يختلفون عن بعضهم البعض تماماً.

قلتُ أخيراً: "هذا أمر مدهش. كل ما تقوله مناسب. لقد كان لدى سافارونوف معرفة بسيطة بالخطوة لذلك كان يرفض بشدة لعب المباراة".

نظر بوارو إلىّ دون أن يتكلم، ثم فجأة استدار بعيداً وبدأ يسير جيئةً وذهاباً بهدوء.

سألنى فجأة: "هل من المحتمل أن يكون لديك أى كتاب عن الشطرنج؟".

قلتُ: "أعتقد أن لدىّ كتاباً فى مكان ما".

استغرق البحث عنه وقتاً ما حتى عثرت عليه فى النهاية، وأعطيته إلى بوارو الذى غاص فى أحد المقاعد وأخذ يقرأ فيه باهتمام شديد.

وبعد حوالى ربع الساعة دق جرس الهاتف فرددتُ عليه. وكان المتحدث هو جاب الذى قال إن إيفان ترك المنزل وهو يحمل حزمة كبيرة واندفع نحو سيارة أجرة كانت تنتظره وبدأت المطاردة، وكان من الواضح أنه يريد تضليل مطارديه وفى النهاية ظن أنه نجح فى ذلك فاتجه نحو منزل كبير خال فى هامستيد وتم حصار المنزل.

أخبرتُ بوارو بكل ذلك فنظر إلىّ كما لو أنه لا يهتم بما أقول ثم أمسك كتاب الشطرنج وقال:

"اسمع هذه يا صديقى: 1- بي (P) كيه 4 بي (P) كيه 4، 2- كيه 4 - كيه 5 - كيه 3 (B) كيه 3 - كيو 3 (B) - بي 3 (B) كيه 5. وبعدها يأتى سؤال حول الكيفية التى تم بها لعب خطوة الأسود الثالثة. لقد كانت خطوة الأبيض الثالثة

هى التى قتلت جيلمر ويلسون وهى بى (B) كيه تى 5. فقط الخطوة الثالثة، ألا يوحى لك ذلك بأمر؟".

لم تكن لدى أدنى فكرة عما يعنيه وقد قلتُ له ذلك.

قال بوارو: "لنفترض يا هاستنجز أنك - وأنت جالس فى هذا المقعد - سمعت صوت إغلاق الباب الأمامى، فماذا ستعتقد؟".

قلتُ: "سأعتقد أن أحداً غادر المنزل".

قال بوارو: "نعم. إلا أن هناك دوماً طريقتين للنظر إلى الأشياء؛ قد يكون أحد خرج وقد يكون دخل، وهذان أمران مختلفان تماماً يا هاستنجز. فإذا قمت بالاختيار الخطأ فإن بعض التناقضات سوف تظهر لتؤكد لك أنك تسير فى الاتجاه الخطأ".

سألتُه: "ماذا يعنى ذلك يا بوارو؟".

قفز بوارو على قدميه فى نشاط مفاجئ وقال:

"يعنى أننى كنت غيباً جداً. بسرعة... بسرعة إلى شقة ويستمينستر. يجب أن نكون هناك فى الوقت المناسب".

اندفعنا ذاهبين فى إحدى سيارات الأجرة، فيما تجاهل بوارو الإجابة عن أى من أسئلتى المتلهفة، وصعدنا السلالم بسرعة فائقة ثم أخذنا ندق الجرس بلا انقطاع ونطرق على الباب دون توقف، إلا أن أحداً لم يرد علينا، إلا أنه بعد أن أرهفت السمع استطعت أن أميز صوت أنين مكتوم يأتى من الداخل.

كان من المفترض أن يحمل حارس أمن البناية مفتاحاً إضافياً، وبعد بعض المناقشات الحادة وافق على أن يستخدمه.

اندفع بوارو من فوره إلى الحجرة الداخلية واستقبلتنا رائحة مخدر الكلوروفورم، وعلى الأرضية كانت سونيا دافيلوف مكمة ومقيدة وقد وُضِعَت قطعة كبيرة من القطن الصوفى على فمها وأنفها، مزق بوارو تلك الكمامة وأخذ يجرى لها الإسعافات حتى تستعيد وعيها. وفيما بعد جاء طبيب فسلمها له بوارو وأخذ معى جانباً فيما لم تكن هناك أية إشارة على وجود دكتور سافارونوف.

سألتُ بوارو مذهولاً: "ما الذى يعنيه كل ذلك؟".

أجابنى قائلاً: "يعنى أنه من بين استنتاجين اخترتُ أنا الاستنتاج الخاطئ، لقد سمعتنى أقول إنه من السهل جداً على أى شخص انتحال شخصية سونيا دافيلوف؛ لأن عمها لم يرها منذ فترة طويلة؟".

قلتُ: "نعم؟".

فتابع قائلاً: "حسنًا. لقد كان الأمر الآخر احتمالاً جيداً أيضاً، لقد كان من السهل أيضاً تقليد شخصية العم".
قلت: "ماذا؟".

قال بوارو: "لقد مات سافارونوف بالفعل وقت اندلاع الثورة. لكن الرجل الذى تظاهر بأنه فر بعد أن واجه الكثير من الصعوبات... الرجل الذى تغير (إلى درجة أن أصدقاءه تعرفوا عليه بصعوبة) الرجل الذى استطاع الحصول على ثروة ضخمة...".
قاطعته قائلاً: "نعم، من هو؟".

أجابنى: "إنه رقم أربعة. لا عجب فى أنه أصيب بالذعر بعدما أخبرته سونيا أنها سمعت بالمصادفة واحداً من أحاديثه السرية حول الأربعة الكبار. من جديد يفر من بين أصابعى. لقد خمن أننى سوف أصل إلى الطريق الصحيح فى النهاية لذلك أرسل إيفان المسكين فى مطاردة وهمية وخدر الفتاة ورحل مطمئناً إلى أنه حتى الآن لن يشك أحد فى أمره بفضل كل تدابير الحماية التى أعدتها له السيدة جوسبوي".
سألت بوارو: "ولكن... من حاول قتله؟".

قال بوارو: "لم يحاول أحد قتله، كان ويلسون هو الضحية الأصلية طيلة الوقت".
عدتُ أسأل: "لكن لماذا؟".

ردّ بوارو قائلاً: "يا صديقى. لقد كان سافارونوف ثانى أفضل لاعب شطرنج فى العالم، وربما لم يكن رقم أربعة يعرف أى شىء عن الشطرنج، وبالتأكيد لم يكن يستطيع ليتحمل قصة خوض المباراة، لقد حاول فى البداية تجنب خوض المباراة إلا أنه عندما فشل فى ذلك كان مصير ويلسون قد تحدد، فقد كان يجب منعه بأى ثمن من كشف حقيقة أن سافارونوف العظيم لا يعرف حتى كيف يلعب الشطرنج، كان ويلسون مغرماً بطريقة روى لوبيز وكان من المؤكد أنه سوف يفتتح اللعب بها، وبالتالى خطط رقم أربعة إلى إتمام العملية فى النقلة الثالثة قبل أن يضطر إلى اللجوء لأية خطط دفاعية".

قلتُ مصرّاً: "لكن يا بوارو، هل نتكلم عن شخص مجنون؟ لقد تابعتُ ما قلتُ، وأعترف أنك ينبغى أن تكون على صواب. لكن أن يصل الأمر إلى قتل شخص لمجرد أن يعزز رقم أربعة دوره فى القصة! بالتأكيد كانت هناك وسائل أقل صعوبة من ذلك، كان من الممكن أن ينتظر ثم يعتذر عن إكمال اللقاء".

حك بوارو جبهته ثم قال:

"بالتأكيد. كانت هناك وسائل أخرى إلا أن أيا منها ليس مقنعاً. بالإضافة إلى أنك تفترض أن قتل ذلك الشخص هو شىء يجب تجنبه. لكن رقم أربعة لا يفكر بتلك العقلية. لقد وضعتُ نفسى فى مكانه وهو شىء مستحيل بالنسبة لك. لقد قرأتُ أفكاره.

لقد استمتع بدوره خلال اللقاء، ولا أشك للحظة فى أنه شاهد لقاءات شطرنج لى يدرس دوره. لقد جلس وعقد حاجبيه وكأنه يفكر فى حركة عظيمة بينما كان طيلة الوقت يضحك فى نفسه، لقد قام بكل الحركات التى يعرفها أو التى احتاج إلى أن يعرفها. ومرة أخرى، سيروق له أن يتنبأ بالوقت الذى يناسب رقم أربعة. أوه. نعم يا هاستنجز لقد بدأت أفهم كيف يفكر صديقنا وأعرف طبيعته النفسية".

هزرتُ كتفى وقلتُ:

"حسناً، سأفترض أنك على حق، إلا أننى لا أفهم كيف يقدم شخص ما على القيام بمخاطرة يمكن أن يتجنبها بكل سهولة".

قال بوارو فى ازدراء: "مخاطرة! أين تكمن المخاطرة؟ هل حل جاب المشكلة؟ لا. لولا خطأ صغير ارتكبه رقم أربعة لم يكن قد تعرض للمخاطرة".

سألتُ بوارو رغم أننى أعرف الإجابة: "وما هو ذلك الخطأ؟".

قال بوارو: "صديقى. لقد تجاهل الخلايا الرمادية الصغيرة لـ- "هيركيول بوارو".

إن لـ- "بوارو" محاسنه إلا أن التواضع ليس من بينها.

الفصل الثانى عشر

الفخ المغرى

كان الوقت فى منتصف يناير، كان يوماً نموذجياً للشتاء الإنجليزى فى لندن، بما فيه من المطر والأوحال، كنا - بوارو وأنا - جالسين إلى مقعدين وضعا بعناية قرب المدفأة المشتعلة. كنت ألاحظ أن صديقى ينظر إلى بابتسامة ساخرة لم أستطع أن أفهم معناها.

فقلت فى هدوء: "أدفع لك ما تريد لأعرف ما تفكر فيه".

قال بوارو: "كنت أفكر أنه فى منتصف الصيف عندما أتيت إلى هنا كنت تقول إنك خططت إلى أن تمكث فى البلاد لشهرين فقط".

تساءلت بلا اكتراث: "هل قلت ذلك؟ لا أذكر".

اتسعت ابتسامة بوارو وقال:

"لقد قلت يا صديقى، ومنذ ذلك الحين غيرت خططك، أليس كذلك؟".

قلت: "نعم، غيرتها".

سألنى: "ولماذا فعلت ذلك؟".

قلت: "اللعنة على ذلك يا بوارو، أنت لا تعتقد أنه يمكننى أن أتركك وحيداً وأنت تواجه شيئاً مثل (الأربعة الكبار)، أليس كذلك؟".

هز بوارو رأسه فى لطف وقال: "كما توقعت". أنت صديق ممتاز يا هاستنجز. إذن بقيت هنا لكى تسدى لى خدمة. وماذا عن زوجتك؟ سندريلا الصغيرة كما تسميها؟ ماذا تقول؟".

أجبت: "لم أدخل فى تفاصيل بالطبع لكنها تتفهم. إنها آخر شخص فى العالم يمكنه أن يطلب منى أن أدير ظهرى لصديق".

قال بوارو: "نعم، نعم. هى أيضاً صديقة مخلصه. إلا أن الأمر سيطول. أليس كذلك؟".

هزرت رأسى موافقاً إياه فى خذلان وقلت متأملاً الموقف:

"مرت 6 أشهر وأين نحن الآن؟ أتعلم يا بوارو؟ لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير فى أننا يجب أن... حسناً... يجب أن نفعل شيئاً".

قال بوارو: "دوماً نشط يا هاستنجز، تحديداً، ماذا ترى أننى يجب أن أفعل؟".

قلتُ متحمساً: "يجب أن نأخذ المبادرة. ماذا فعلنا فى كل ما سبق؟".

أجابنى قائلاً: "أكثر مما تتخيل يا صديقى. فبعد كل شيء، استطعنا تحديد هوية رقم اثنين ورقم ثلاثة وعرفنا الكثير حول الوسائل التى يستخدمها رقم أربعة".

أظهرت لى كلمات بوارو الكثير من الحقائق. فما قاله لم يبد سيئاً.

تابع بوارو قائلاً: "أوه. نعم يا هاستنجز. لقد فعلنا الكثير. بالفعل أنا لستُ فى موقع يسمح لى بتوجيه التهم إلى أى من رايلاند أو السيدة أوليفيه. من سيصدقنى؟ هل تذكر أننى حسبتُ ذات مرة أن رايلاند بات محاصراً؟ ومع ذلك فقد صرحتُ بأفكارى لدى بعض الدوائر العليا منها. لورد أولدينجتون - الذى طلب مساعدتى فى قضية سرقة الغواصة - يعرف كل ما لدى من معلومات بشأن الأربعة الكبار. وبينما يشك الآخرون فى صحتها فإنه يصدقها. ربما يتابع كل من رايلاند والسيدة أوليفيه ولى تشانج ين طريقه، إلا أن هناك ضوءاً أصبح مسلطاً على كل تحركاتهم".

سألتُه: "ورقم أربعة؟".

أجابنى: "كما قلتُ من قبل. لقد بدأتُ أعرف وأفهم طريقة تفكيره. ربما تبتسم يا هاستنجز، لكن أن تفهم شخصية رجل ما وتعرف تحديداً ما سيفعل تحت ظروف معينة فإن ذلك هو بداية النجاح. إنها مبارزة بيننا. وبينما يعطينى هو دائماً الإشارات عن الطريقة التى يعمل بها عقله، فإننى أبذل كل جهدى لكى أجعله لا يعرف إلا القليل أو لا شيء على الإطلاق من وسائلى، إنه فى النور بينما أنا فى الظل. أقول لك يا هاستنجز إن كل يوم يمر وهم يخشونى فإن ذلك يؤكد صحة نظرية السكون التى أتبعها".

قلتُ ملاحظاً: "لقد تركونا وحدنا على أية حال، لم تحدث أية محاولات لقتلك ولم نقع فى فخ من أى نوع".

قال بوارو مفكراً: "لا، إجمالاً هذا يفاجئنى بخاصة مع وجود طريقة أو اثنتين يمكن من خلالهما اقتناصنا واعتقد أن هاتين الطريقتين قد خطرنا ببالهم. ربما فهمت ما أعنى؟".

قلتُ مخمناً: "آلة شيطانية من نوع ما؟".

أصدر بوارو طقطقة بلسانه كإشارة على فقدانه صبره وقال:

"لا! أريد أن تستخدم خيالك بينما أنت لا تستطيع إلا أن تفكر فى خطط خبيثة لوضع القنابل فى المدفأة. حسناً. حسناً. أريد بعض أعواد الثقاب. سأحرك قدمى على

الرغم من الطقس. اعذرني يا صديقي، إلا أنه من المحتمل أن تكون قد قرأت كلاً من (مستقبل الأرجنتين) و(مرآة المجتمع) و(تربية الأغنام) و(علامة اللون القرمزي) في نفس الوقت؟".

ضحكتُ واعترفتُ أن (علامة اللون القرمزي) هو الكتاب الذي يستولى على اهتمامي كله في الوقت الحالي، فهز بوارو رأسه بحزن وقال:

"غير إذن الكتب الأخرى التي تضعها في المكتبة! لن أراك أبداً تتبع المنهجية والنظام، يا إلهي. لماذا إذن اخترعوا المكتبة؟".

اعتذرت في تواضع بينما غادر بوارو وتركني مستغرقاً في قراءة كتابي المفضل بعدما قام بترتيب الكتب في المكتبة بعناية.

يجب أن أعترف أنني كنت شبه نائم عندما أيقظتني طرقات سيدة بيرسون على الباب.

قالت لي: "برقية لك أيها النقيب".

مزقت الغلاف البرتقالي وفتحت البرقية دون كثير من الاهتمام، ثم جلست كما لو كنت قد تحولت إلى حجر.

كانت تلك برقية من برونسين مدير مزرعتي في أمريكا الجنوبية، وكانت البرقية تقول:

"اختفت السيدة هاستنجز أمس. نخشى أن تكون قد اختُطفَت على يد عصابة تسمى نفسها الأربعة الكبار. تم إبلاغ الشرطة إلا أنه لم يتم التوصل إلى أي دليل". "برونسين".

أشرت للسيدة بيرسون وجلستُ مصعوقاً أقرأ البرقية مرةً بعد أخرى. سندريلا اختطفَت! في يد عصابة الأربعة الكبار سيئة السمعة! يا إلهي. ماذا أفعل؟

بوارو! يجب أن ألتقي مع بوارو. سوف ينصحنى بما يجب أن أفعل، سوف يجعلهم يستسلمون بوسيلة ما. في دقائق يمكنه أن يعود، ويجب أن أنتظر بكل صبر حتى يعود. لكن سندريلا في يد الأربعة الكبار!

طرقات أخرى على الباب. أطلت سيدة بيرسون برأسها مرة أخرى وقالت:

"خطاب آخر لك سيدي، أحضره همجي صيني ينتظرك بالأسفل".

اختطفَت الورقة من يديها، كانت مختصرة ومباشرة وكانت تقول:

"إذا أردت أن ترى زوجتك ثانية، فاهرب مع حامل هذا الخطاب ولا تترك أية رسائل لصديقك، وإلا عانت زوجتك كثيراً".

وكان عليها توقيع الأربعة الكبار.

ماذا يجب علىّ أن أفعل؟ ماذا كنتَ أيها القارئ ستفعل إذا كنتَ مكانى؟

لم يكن لدىّ وقت للتفكير. كل ما فهمته هو أن سندريلا فى يد أولئك الشياطين. يجب أن أطيعهم. لا أستطيع أن أغامر بفقدان شعرة واحدة من رأسها. يجب أن أذهب مع ذلك الصينى وأتبعه إلى حيث يقودنى. إن هذا فخ. نعم. وقد يعنى اختطافاً أكيداً وموتاً ممكناً، إلا أنه فخ به أعز مخلوق لدى فى هذا العالم، ولا أجرؤ على أن أتردد.

ما زاد من ضيقى هو عدم قدرتى على ترك رسالة إلى بوارو، بمجرد أن يعرف بالأمر سوف تسير الأمور على ما يرام! هل أغامر بذلك؟ من الواضح أننى لست خاضعاً للمراقبة إلا أننى ترددت، فمن السهل على ذلك الصينى أن يأتى ويتأكد من أننى أتبع التعليمات الواردة فى الخطاب، لماذا لم يأت؟ إن غيابه هذا أثار شكوكى، لقد رأيت الكثير من قدرات الأربعة الكبار مما جعلنى أقر بأنهم تجاوزوا حدود القدرات البشرية. ومع كل ما أعرفه فإن هناك احتمالاً أن تكون حتى الخادمة متسخة الثياب واحدة من عملائهم.

لا. لا أجرؤ على المخاطرة. لكن شيئاً واحداً يمكننى أن أفعله وهو أن أترك البرقية. سيعرف وقتها أن سندريلا اختفت وسيعرف من يقف وراء اختفائها.

خطر كل ذلك ببالى فى وقت أقل من الوقت الذى استغرقه قوله، فوضعت قبعتى على رأسى ونزلت السلالم إلى حيث يقف مرشدى فى أقل من دقيقة.

كان حامل الرسالة رجلاً صينياً جامد الملامح يرتدى ثياباً أنيقة ورخيصة فى نفس الوقت، وقد انحنى وتحدث إلى، كانت لغته الإنجليزية جيدة لكنه كان يتكلم بطريقة منغومة وسألنى:

"هل أنت كابتن هاستنجز؟".

قلت: "نعم".

فقال لى: "أعطنى الرسالة إذا سمحت".

كنت قد توقعت ذلك، وبدون كلمة واحدة أعطيته الرسالة التى جاء بها، إلا أن ذلك لم يكن كل شيء فقد قال:

"لقد وصلت إليك اليوم برقية، أليس كذلك؟ وصلت الآن؟ من أمريكا الجنوبية، صحيح؟".

لاحظتُ من جديد طريقتهم الجيدة فى الجاسوسية أو ربما كان تخميناً صائباً جداً. كان من الضرورى أن يرسل برونسين برقية إلى، وقد انتظروا حتى تم تسليم البرقية وبعدها ضربوا بقوة.

لم تكن هناك أية فائدة من إنكار ما هو حقيقى فقلت:
"نعم. لقد تلقيتُ برقية".

قال: "هل أحضرتها؟ أحضرها الآن".

ضغطت على أسناني. ماذا يمكننى أن أفعل الآن؟ جريت صاعداً السلالم من جديد وبينما أنا أصعد فكرتُ فى أن أخبر سيدة بيرسون بما جرى، فمهما تكن الظروف فأنا المسئول عن اختفاء سندريلا. كانت فى إحدى زوايا السلم، إلا أنه خلفها تماماً كانت تقف الخادمة فترددتُ. فإذا كانت الخادمة جاسوسة للأربعة الكبار.... تراقصت أمام عينيّ كلمات الرسالة "فإنها سوف تعانى" فدخلت إلى حجرة المعيشة دون كلمة واحدة.

أخذتُ البرقية وبينما أنا أخرج من جديد إذ خطرت لى الفكرة، يمكننى أن أترك علامة لا يفهمها الأعداء ولكنها تكون ذات مغزى بالنسبة لـ "بوارو" نفسه، ذهبت إلى مكتبتى وأوقعت 4 كتب على الأرض. لا يمكن ألا يراها بوارو فسوف تقتحم عينيه فوراً. وبعيداً عن توبيخه فإنه سوف يجد الأمر غير طبيعى. بعد ذلك وضعتُ ملء جاروف من الفحم فى المدفأة وتعمدتُ أن أضع 4 قطع فى الموقد، لقد فعلتُ كل ما أستطيع وأتمنى من الله أن يقرأ بوارو تلك الإشارات بالصورة الصحيحة.

أسرعت لأسفل من جديد. أخذ الصينى البرقية منى وقرأها ثم وضعها فى جيبه وبهزة من رأسه طلب منى أن أتبعه.

كان مشواراً طويلاً مرهقاً ذلك الذى سرناه معاً، فى مرة أخذنا حافلة، وفى مرة أخرى استقللنا قطاراً سار بنا مسافة كبيرة. سرنا فى ضواح غريبة لم أكن أحلم بوجودها. كنا قد نزلنا عند الميناء الآن. كنت أعرف، ولاحظت أننا فى الحى الصينى.

وعلى الرغم منى، فقد ارتجفت. فيما استمر مرافقى فى السير يدور ويلف فى شوارع وضيقة وطرق فرعية حتى توقف فى النهاية عند منزل متهدم، وطرق الباب أربع مرات.

فتح الباب فوراً صينى آخر وقف جانباً ليسمح لنا بالدخول. كان صوت غلق الباب خلفى أشبه بصوت غلق باب آخر آمالى. كنت بالفعل بين يدي العدو.

الآن قد تم تسليمى إلى الصينى الآخر، والذى قادنى إلى الأسفل عبر درجات مهدمة إلى قبو ملئ بالأجولة والبراميل الخشبية التى تصاعدت منها رائحة حادة لتوابل آسيوية. شعرتُ بأننى محاط بجو الشرق الأقصى... جو ملتوٍ مآكر شرير.

فجأة أزاح مرافقى اثنين من البراميل فرأيتُ فتحة تشبه النفق فى الحائط وأشار إلى أن أتقدم. كان النفق طويلاً وكان منخفض السقف بصورة استحال معها أن أسير منتصب القامة. وعلى الرغم من ذلك فقد اتسع ليصبح مثل الممر وبعد دقائق قليلة كنا نقف فى قبو آخر.

تقدم مرافقى الصينى للأمام وطرق أربع مرات على أحد الحوائط فاهتز قطاع كامل من الحائط وتحرك كاشفاً عن ممر ضيق. عبرت الممر، ولدهشتى وجدت نفسى فى مكان يشبه قصور ألف ليلة وليلة. كان المكان عبارة عن حجرة تحت الأرض مزدانة بالحرير الشرقى الفخم شديدة اللمعان، وقد امتلأ جوها برائحة العطور والتوابل. كان هناك خمسة أو ستة من الأرائك فيما غطى بعض السجاد الفاخر الصينى يدوى الصنع الأرضية. وفى نهاية الحجرة كانت هناك فجوة تغطيها الستائر، ومن خلف الستائر تصاعد صوت قائلاً:

"هل أحضرت ضيفنا الكريم؟".

فأجاب مرافقى الصينى: "إنه هنا معاليك".

فجاءته الإجابة: "دعه يدخل".

وفى نفس اللحظة أزاحت يد خفية الستائر فطالعتنى أريكة ضخمة عليها وسائد، وقد جلس عليها رجل طويل يرتدى زيا شرقيا مطرزا بعناية، وبدا واضحاً من طول أظافره أنه رجل عظيم. قال الرجل وهو يلوح بيده:

"برجاء اجلس كابتن هاستنجز. لقد استجبت لطلبى فى الحال وأنا سعيد أننى أرى ذلك".

سألته: "من أنت؟ لى تشانج ين؟".

قال الرجل: "كلا بالطبع. أنا أحد خدمه المتواضعين. أنفذ أوامره فقط كما يفعل خدمه فى البلدان الأخرى. فى أمريكا الجنوبية على سبيل المثال".

تقدمت خطوة قائلاً:

"أين هى؟ ماذا فعلتم بها؟".

أجاب الرجل قائلاً: "إنها فى مأمن حيث لا يستطيع أحد الوصول إليها. وحتى الآن لم يصبها سوء ولعلك لاحظت أننى قلت حتى الآن!".

سرت قشعريرة باردة فى عمودى الفقرى وأنا أواجه هذا الشيطان الباسم.

صحت متسائلاً: "ماذا تريد؟ مالاً؟".

قال: "عزيزى كابتن هاستنجز. لا خطط لدينا بشأن مدخراتك الصغيرة. أطمئنك بهذا الخصوص. لم يكن هذا واعذرنى فيما أقول استنتاجاً ذكياً منك. أعتقد أن صديقك لم يكن ليقوله".

قلت فى ببطء: "أعتقد أنك تريد أن توقعنى فى شباكك. حسناً. لقد نجحت. لقد أتيت إلى هنا وعيناي مفتوحتان. هل تأخذنى وتتركها؟ إنها لا تعرف شيئاً، لذا لن تكون

ذات نفع لكم. لقد استخدمتموها لكي تصلوا إلى، لقد حصلتم على، وهذا ينهى الأمر".
ربت الصينى الباسم على وجنته وهو يشاهدنى بعينيه الضيقتين قبل أن يقول بصوت
كمواء القطط:

"لقد انطلقت بسرعة. وهذا لا ينهى الأمر. فى الواقع إن "حصولنا عليك" ليس هو
هدفنا الحقيقى. لكن من خالك نريد أن نصل إلى زميلك السيد هيركيول بوارو".
قلتُ ضاحكاً: "أخشى أنكم لن تتمكنوا من ذلك".

استمر الرجل فى كلامه كما لو كان لم يسمعنى: "لدى اقتراح، وهو أن تكتب إلى
سيد هيركيول بوارو خطاباً، وهذا الخطاب سوف يجعله يلحق بك إلى هنا".

قلتُ فى غضب: "لن أفعل مثل ذلك الشئ".

قال: "عواقب رفضك لن تكون طيبة".

قلتُ: "اللعنة على عواقبك".

فقال: "قد يكون البديل هو الموت!".

سرت فى عمودى الفقرى رعدة بشعة لكننى حاولت أن أبقى وجهى جامداً وقلتُ:

"ليس من الجيد تهديدى أو استفزازى. احتفظ بتهديداتك للصينيين الجبناء".

لكنه قال: "تهديداتى جدية كابتن هاستنجز، وأنا أسألك من جديد: هل ستكتب
الخطاب؟".

قلتُ: "لن أكتبه. وما هو أكثر من ذلك، فأنت لا تجرؤ على قتلى. سوف تجد
الشرطة فى أثرك بمجرد أن تفعل ذلك".

صفق محدثى بسرعة، فظهر اثنان من المرافقين الصينيين بدون سابق إنذار وكَبَلْنِ
كل منهما بذراعيه الاثنتين. قال لهما سيدهما شيئاً ما بالصينية بسرعة فجرانى على
الأرضية إلى بقعة فى ركن الحجرة الكبيرة. انحنى أحدهما وفجأة وبدون أى تحذير
انسحبت الأرض من تحت قدمى ولولا يد مرافقى الآخر لكنت قد سقطت فى الفجوة
أسفل قدمى.

قال الزعيم من مكانه على الأريكة: "النهر، فَكَّرْ جيداً كابتن هاستنجز، إذا ما رفضت
من جديد فسوف تذهب مباشرة إلى الأبدية حيث ستلقى مصرعك فى المياه السوداء
بالأسفل. للمرة الأخيرة، هل ستكتب الخطاب؟".

لستُ أشجع من الكثير من الرجال. أعترف بكل صراحة أننى كنتُ خائفاً حتى
الموت. الرجل الصينى يعنى ما يقول. أنا متأكد من ذلك. إنه الوداع لهذا العالم
العزيز. وعلى الرغم من نفسى ارتجف صوتى وأنا أقول:

"وللمرة الأخيرة لا! إلى الجحيم أنت وخطابك!".
ولا إراديا أغمضت عيني ورددت صلاة قصيرة.

الفصل الثالث عشر

الفأر يدخل المصيدة

قليلاً ما يمر المرء فى حياته بلحظات يقف فيها على أعتاب الأبدية، لكننى عندما تفوهت بتلك الكلمات فى ذلك القبو الواقع فى الجزء الشرقى من لندن كنت متأكداً تماماً أنها كلماتى الأخيرة على وجه الأرض، استعددت لتلقى صدمة الارتطام بتلك المياه السوداء المندفعة بالأسفل وبدأت أختبر مقدماً رعب اختناق النفس الناجم عن السقوط.

إلا أنه لدهشتى سمعت ضحكة خفيضة، ففتحت عيني، وبأمر من الرجل الجالس على الأريكة قام سجاناى بإعادتى إلى مقعدى السابق أمامه.

قال الرجل: "أنت رجل شجاع يا كابتن هاستنجز. ونحن فى الشرق نقدر الشجاعة، ربما أقول لك إننى توقعت أن تتصرف كما تصرفت تماماً، وهذا يقودنا إلى الجزء الثانى من مأساتك الصغيرة. لقد استطعت أن تواجه موتك أنت، ولكن هل تستطيع أن تواجه موت شخص آخر؟".

سألته فى صوت أجش وقد تسلل الخوف إلى نفسى: "ماذا تعنى؟".

قال الصينى: "بالتأكيد أنت لم تنس السيدة التى فى قبضتنا، زهرة الحديقة".

حدقت فيه فى ألم صامت.

فتابع قائلاً: "أعتقد يا كابتن هاستنجز أنك سوف تكتب الخطاب. انظر، لدى وصلة تلغرافية هنا، البرقية التى سوف أبعثها من خلال تلك الوصلة تعتمد عليك، وتعنى الموت أو الحياة لزوجتك".

تفجر العرق على جبينى، فيما تابع معذبى مبتسماً فى ود وهو يتحدث بهدوء:

"الآن يا كابتن. هذا هو القلم فى يدك. كل ما عليك فقط هو أن تكتب. وإذا لم تفعل...".

رددت قائلاً: "إذا لم أفعل؟".

فأكمل هو: "إذا لم تفعل فإن زوجتك التى تحبها سوف تموت. سوف تموت موتاً بطيئاً. سيدى لى تشانج ين يستغل وقت فراغه فى ابتكار أساليب جديدة للتعذيب".

صحتُ فى هلع: "يا إلهى! أنت شيطان! لن تفعل ذلك، أنت لن تفعل ذلك..."

إلا أنه واصل قائلاً: "هل أخبرك ببعض تلك الوسائل؟"

وبدون أن يبالى باعتراضاتى تدفق كلامه فى هدوء وصفاء حتى صرختُ فى هلع وأنا أضع يدي على أذنى فقال:

"يكفى ذلك، خذ القلم وابدأ فى الكتابة"

قلتُ: "أنت لن تجرؤ..."

قاطعنى قائلاً: "كلامك سخييف وغبى وأنت تعرف ذلك، خذ القلم واكتب"

سألتُهُ: "وإذا فعلتُ ذلك؟"

أجابنى: "سيتم إطلاق سراح زوجتك. سأرسل البرقية فى الحال"

عدتُ أسأله: "وكيف لى أن أعرف أنك سوف تحفظ وعدك لى؟"

قال: "أقسم لك بقبور أجدادى المقدسين، وبالإضافة إلى ذلك، أسأل نفسك: لماذا أؤذيها؟ لقد أتى احتجازها بثماره"

من جديد سألتُهُ: "...وبوارو؟"

قال: "سوف نحتفظ به فى مكان آمن حتى ننتهى من عملياتنا. بعدها سوف نطلق سراحه"

سألتُهُ: "هل تقسم على ذلك أيضاً بقبور أجدادك؟"

قال: "لقد أقسمتُ مرة واحدة وهذا كافٍ بالنسبة لك"

وقع قلبى، أنا أخون صديقى، ولماذا؟ لوهلة ترددتُ، إلا أن البديل المرعب برز أمامى عينى. سندريلا فى يد أولئك الشياطين الصينيين تموت موتاً بطيئاً بالتعذيب.

أخذتُ أئن وأمسكتُ القلم. ربما بكلمات مختارة بعناية يمكننى أن أرسل تحذيراً ويتمكن بوارو من الإفلات من الفخ. كان هذا هو الأمل الوحيد.

إلا أنه حتى ذلك الأمل لم يستمر فقد تعالى صوت الرجل الصينى يقول فى لطف وحكمة:

"اسمح لى بأن أملى عليك الرسالة"

توقف قليلاً ثم أمسك بحزمة من الأوراق كانت بجانبه وأملانى التالى:

"عزيزى بوارو. أعتقد أننى خلف رقم أربعة. جاءنى رجل صينى بعد ظهر اليوم ومعه رسالة زائفة. لحسن الحظ اكتشفتُ خدعته فى الوقت المناسب وفررتُ منه وقلبتُ

الطاولة عليه. وغيّرتُ مظهرى بعض الشيء إلا أنه كان تغييراً متقناً. لقد جعلتُ نفسى أبدو أفضل مما أنا عليه. وتمكنتُ من العثور على صبي ليوصل إليك تلك الرسالة، أعطه نصف كراون إذا سمحت، فهذا هو ما وعدته به فى حالة إيصاله الرسالة بأمان، فأنا أراقب المنزل ولا أجروّ على الرحيل. سأنتظرك حتى الساعة السادسة فإذا لم تأت سأحاول أن أدخل المنزل بمفردى. إنها فرصة جيدة لا تُعوّض. وبالطبع هناك احتمال ألا يجدها الصبي. لكن إذا عثر عليك، فدعه يقدرك إلى هنا فى الحال. وأزل شاربك تحسباً لوجود من يراقب الطريق من داخل المنزل فيتعرف عليك.

صديقك المتعجل

أ. مـ

كل كلمة كتبتها جعلتني أغوص فى الإحباط أكثر فأكثر. لقد تم إعداد الأمر ببراعة شيطانية. لقد أدركت الآن كيف أن أدق تفاصيل حياتنا معروفة. لقد دمرت تلك الرسالة كل خططى. إن الإقرار بأن هناك صينياً "قد خدعنى" يقضى على أية فائدة لـ "العلامة" التى تركتها بوضعى الكتب الأربعة على الأرض. سيعتقد بوارو أنه كان فحاً وأننى استطعتُ اكتشافه. كما تم اختيار التوقيت الموضوع فى الرسالة بعناية فهو لا يعطى بوارو بعد تسلمه الرسالة الوقت الكافى لفعل أى شىء إلا الإسراع مع مرشده برىء المظهر، وهو ما أعرف أنه سوف يفعله، وإصرارى على أن أدخل المنزل سوف يدفعه إلى المجئ بأقصى سرعة. على الدوام يسخر بوارو من قدراتى. سيبدو مقتنعاً أننى أتجه إلى الخطر دون القدرة على مواجهة الموقف، وبالتالي سيهرع لكى يتولى هو الأمر كله.

ورغم ذلك لم يكن هناك أى شىء يمكن عمله. كتبتُ كما أملانى الصينى، فأخذ أحد الرجلين اللذين يحيطان بى الورقة وقرأها، ثم هز رأسه فى رضا ثم سلمها إلى أحد المرافقين الصامتين الذى اختفى بها وراء إحدى الستائر الموضوعة على الحائط والتى كانت تخفى وراءها ممراً.

وبابتسامة التقط الرجل المواجه لى نموذج برقية وكتب عليه بعض الكلمات وسلمه لى.

كانت البرقية تقول: "أطلق سراح الطائر الأبيض بأقصى سرعة".

تنهدتُ فى ارتياح وقلت فى إلحاح:

"سوف ترسلها فى الحال؟".

فابتسم وهز رأسه نافياً وقال:

"عندما يقع سيد بوارو فى يدى سوف أرسلها. ليس قبل ذلك".
قلتُ: "لكنك وعدت..."

قاطعنى قائلاً: "إذا فشلتُ هذه الحيلة فسوف أستخدم الطائر الأبيض مرة أخرى لإقناعك ببذل المزيد من المجهود".
صحتُ قائلاً: "يا إلهى! إذا..."

قاطعنى من جديد وهو يلوح بيده الصفراء الطويلة النحيفة قائلاً: "كن مطمئناً. لا أعتقد أن تلك الحيلة سوف تفشل. وبمجرد أن يكون سيد بوارو فى يدينا فسوف أفى بوعدى".

عدتُ أقول فى تهديد: "إذا أخلفتُ وعدك معى..."

عاد يقاطعنى: "لقد أقسمتُ بأجدادى الشرفاء. لا تخش شيئاً وانتظر قليلاً. سوف يقوم خدمى بتلبية طلباتك فى غيابى".

تركنى وحيداً فى وكر الفخامة الغريب هذا. ظهر الخادم الصينى الثانى من جديد، وقدم لى طعاماً وشراباً إلا أننى أبعدتهما. كنتُ أشعر أننى عليل... عليل القلب...

وفجأة عاود سيد المكان الظهور. كان طويلاً ومهيبة فى ثيابه الحريرية. أعطى بعض الأوامر. وبمقتضى تلك الأوامر تمت إعادتى فى سرعة من القبو إلى المنزل الرئيسى الذى دخلته فى البداية. وهناك أخذونى إلى حجرة أسفل الأرض. كانت نوافذها مغلقة المصارع الخشبية، إلا أن المرء كان يمكنه أن يرى منها الشارع. على الجانب الآخر من الشارع كان هناك رجل رث الثياب يتسكع وعندما رأيتَه يشير إلى النافذة أدركتُ أنه أحد رجال العصابة يقوم بالمراقبة.

قال صديقى الصينى: "جيد. لقد وقع بوارو فى الفخ. إنه يقترب الآن وحيداً لا يرافقه أحد إلا الصبى الذى يرشده للمكان. الآن يا كابتن هاستنجز، يتبقى لك دور واحد لتقوم به. إذا لم تُظهر له نفسك فلن يدخل المنزل. عندما يأتى إلى الجهة المقابلة يجب أن تظهر على السلم وتخدعه لكى يدخل".

قلتُ فى ثورة: "ماذا؟".

إلا أنه واصل كلامه قائلاً: "سوف تقوم بهذا الدور وحدك، وتذكر ثمن الفشل، إذا ما تشكك بوارو فى شىء ما ولم يدخل المنزل فإن زوجتك ستموت سبعين ميتة بطيئة! آه! ها هو بوارو".

بقلب ينبض كالطبل وبشعور مميت بالإعياء نظرتُ من خلال شقوق خشب النافذة، وفى الحال تعرفتُ فى ذلك الرجل الذى كان يسير على الجانب المقابل من الشارع، على صديقى، على الرغم من أنه كان يرفع ياقة معطفه ويضع وشاحاً كبيراً مما أخفى

الجزء الأسفل من وجهه. إلا أن طريقة السير وشكل رأسه الشبيهة بالبيضة لم يدعأ أى مجال للشك.

كان بوارو قادماً لمساعدتى بكل نية طيبة ولا يشك فى أى شىء على الإطلاق. وبجواره كان يسير صبى لندنى كالشيطان بوجهه المتسخ وثيابه الرثة.

توقف بوارو ونظر إلى المنزل. حدثه الصبى فى حماسة وأشار إلى المنزل. حانت اللحظة التى يجب أن أقوم فيها بدورى. اندفعت عبر الردهة وبإشارة من القائد الصينى فتح أحد الرجال الباب.

قال لى عدوى فى صوت خفيض: "تذكر ثمن الفضل".

كنتُ على السلاالم ونجحت فى خداع بوارو، حيث دخل مسرعاً وهو يقول:

"آه! إذن أنت بخير يا صديقى، كنتُ قد بدأتُ أشعر بالقلق، هل تمكنتُ من الدخول؟ المنزل خال إذن؟".

قلتُ فى صوت خفيض جاهدتُ لكى يبدو طبيعياً: "نعم، يبدو أن هناك مدخلاً سرياً فى مكان ما، تعال نبحث عنه معاً".

عدتُ إلى داخل المنزل وبكل براءة استعد بوارو لكى يتبعنى.

وفى لحظة برق شىء ما فى رأسى. رأيتُ بكل وضوح الدور الذى أقوم به. لم يكن إلا دور يقوم به خائن.

صرختُ: "تراجع يا بوارو اهرب بحياتك. إنه فخ. لا تهتم بى. اهرب فى الحال".

وبينما أنا أتكلم - أو أصرخ صائحاً بالتحذير - جذبتنى أيدي مثل الكلابات إلى الداخل فيما كان أحد الخدم الصينيين يقفز ليجذب بوارو.

رأيتُ ذلك الأخير يتراجع إلى الخلف ويرفع ذراعه وفجأة بدأتُ تتصاعد حولى سحابة دخانية. كانت تخنقنى. تقتلنى.

شعرتُ بنفسى أسقط مختنقاً. كان ذلك هو الموت.

استعدتُ وعيى ببطء وبألم، حيث كانت كل حواسى مشوشة، كان أول شىء رأيته هو وجه بوارو. كان يجلس أمامى يراقبنى وقد بدت على وجهه معالم القلق. ثم أطلق صيحة فرح عندما رآنى أنظر إليه وقال:

"آه. أنت تستعيد وعيك. أنت تعود إلى نفسك. كل شىء بخير! يا صديقى... يا صديقى المسكين!".

قلتُ فى ألم: "أين أنا؟".

قال متعجباً: "أين؟ فى منزلك!".

نظرتُ حولى. كان الأمر حقيقياً. أنا وسط أشياءى العزيزة. عند الموقد الذى أسقطتُ حوله قطع الفحم الأربعة.

تتبع بوارو نظراتى وقال:

"لكن نعم. كانت فكرة جيدة منك. هذه القطع والكتب. انظر. إذا قالوا لى ذات يوم (إن صديقك هاستنجز هذا ليست لديه الخلايا العظيمة، أليس كذلك؟" فسأقول لهم أنتم مخطئون، لقد كانت فكرة عبقرية ورائعة تلك التى خطرت ببالك".

سألتُهُ: "هل فهمتَ المعنى إذن؟".

أجابنى قائلاً: "وهل أنا غبى؟ بالطبع فهمتُ. لقد أعطانى ذلك التحذير المطلوب والوقت لكى تنضج أفكارى. بطريقة أو بأخرى أخذتك عصابة الأربعة الكبار وبالتأكيد ليس من أجل جمال عينيك وبالتأكيد أيضاً ليس لأنهم يخشونك ويريدون إبعادك عن الطريق، لا. كان هدفهم واضحاً. كانوا يريدون أن يستخدموك كحيلة من أجل أن يقع هيركيول بوارو العظيم فى قبضتهم. لقد استعددت منذ زمن طويل لشيء كهذا. قمت ببعض الاستعدادات الصغيرة ثم حضر الصبى فى الموعد المحدد. مجرد صبى شوارع عادى. بالنسبة لى، تظاهرتُ بأننى ابتلعتُ الأمر وأسرعتُ معه ولحسن الحظ أن سمحوا لك بالظهور على الباب. كان هذا هو خوفى الوحيد فقد كنتُ أخشى ألا أتمكن منهم قبل أن أعرف المكان الذى يخفونك فيه حيث كان سيجب على أن أبحث عنك بعد ذلك بلا طائل".

سألتُهُ فى ضعف: "قلت: تتمكن منهم؟ بيدىك العاريتين؟".

قال بوارو: "لم يكن فى الأمر أية براعة. يكون الأمر سهلاً إذا ما استعد الإنسان مسبقاً. إنه شعار فتیان الكشفة أليس كذلك؟ إنه شعار رائع، كنتُ مستعداً منذ وقت ليس بالطويل كنتُ قد قدمت خدمة لأحد مشاهير الكيمائيين والذى ساهم بقدر كبير فى العمليات المرتبطة بأسلحة الغاز السام خلال الحرب. لقد أعد لى قنبلة دخانية صغيرة سهلة الحمل حيث يكفى أن يلقيها المرء فتنفجر ويبدأ عملها فى إفقاد وعى المحيطين بها. وفى الحال أطلقتُ صفارة فجاء رجال جاب البارعون - الذين كانوا يراقبون المنزل هنا قبل قدوم الصبى وتمكنوا من تتبعنا إلى لايمهاوس - وانتشروا وسيطروا على الموقف".

فسألتُهُ: "ولكن كيف لم تفقد وعيك أنت الآخر؟".

قال بوارو: "ضربة حظ أخرى. صديقنا رقم أربعة (الذى بالتأكيد صاغ هذا الخطاب العبقرى) سخر قليلاً من شاربى وهو الأمر الذى دفعنى إلى أن أغطيه بالوشاح الأصفر الثقيل الذى كنتُ أرتديه".

صحتُ فى حماس: "أتذكر". وبمجرد أن نطقت كلمة "تذكر" حتى عاد لى الخوف الأكبر والذى نسيته مؤقتاً. سندريلا...

سقطتُ وأنا أتألم.

لا ريب أننى فقدتُ وعيى للحظة أو اثنتين. أفقتُ وبوارو يدفع بعض الشراب بين شفتى وكان يقول:

"ما الأمر يا صديقى؟ ما الأمر إذن؟ أخبرنى بكل شيء".

أخبرته بكل ما جرى كلمةً فكلمةً فندتُ منه صيحة وهو يرتعد قائلاً: "يا صديقى! يا صديقى! ما هذا الذى عانيتَه! وأنا الذى لا يعرف أى شيء عن ذلك! لكن اطمئن! كل شيء على ما يرام!".

قلتُ: "هل ستجدها؟ لكنها فى أمريكا الجنوبية. وقبل أن نصل إليها ستكون قد ماتت. والله وحده يعلم بأية وسيلة فضيحة سوف تلقى مصرعها".

إلا أنه قال: "لا، لا. أنت لا تفهم. إنها فى أمان وبخير. إنها لم تكن للحظة واحدة بين أيديهم".

قلتُ معترضاً: "لكننى تلقيتُ برقية من برونسين؟".

عاد بوارو يقول: "لا، لا. أنت فقط تلقيتُ برقية من أمريكا الجنوبية عليها توقيع برونسين وهذا أمر مختلف تماماً، أخبرنى، ألم يخطر ببالك أن تحاول منظمة من هذا النوع بكل امتداداتها حول العالم أن تضربنا من خلال تلك الفتاة الصغيرة سندريلا التى تحبها؟".

أجبتُه قائلاً: "لا. إطلاقاً".

فقال بوارو: "لكن ذلك خطر ببالى. لم أخبرك بأى شيء لأننى لم أرد أن أزعجك بلا طائل، إلا أننى أخذتُ احتياطاتى. كل خطابات زوجتك كانت تبدو كما لو كانت مكتوبة من المزرعة إلا أنها فى الواقع مكتوبة فى مكان أمين أعددتُه أنا قبل 3 أشهر".

نظرتُ إليه طويلاً ثم سألتُه:

"هل أنت متأكد من ذلك؟".

أجابنى: "بالتأكيد. أعرف ذلك. لقد عذبوك بكذبة!".

أدرتُ رأسى جانباً، فيما وضع بوارو يده على كتفى، وقال بصوت كان به شيء لم أسمعه على الإطلاق قبل ذلك:

"أنت لا تحب أن أعانقك أو أظهر مشاعرى. أعلم ذلك. سأكون بريطانياً جداً. لن أقول شيئاً. لن أقول أى شيء على الإطلاق. فقط فى هذا الأمر... هذا الأمر المتعلق

بمغامرتنا الأخيرة... كل الشرف إليك، وسعيد هو ذلك الرجل الذى لديه صديق مثل صديقى!".

الفصل الرابع عشر

المرأة الشقراء

كنتُ فى غاية الإحباط من نتيجة هجوم بوارو بالقنبلة فى الحى الصينى بداية من أن زعيم العصاة قد هرب عندما اندفع رجال جاب إلى المنزل بعد صفارة بوارو حيث وجدوا أربعة رجال صينيين فاقدى الوعى فى الردهة إلا أن الرجل الذى هددنى بالموت لم يكن بينهم، تذكرتُ فيما بعد أنه بينما كنتُ أحاولُ أن أخدع بوارو وأجعله يدخل المنزل حرص الرجل على البقاء فى الخلف وهو ما يفترضُ أن يكون السبب فى أنه بقى بعيداً عن منطقة خطر القنبلة الغازية وجعله يتمكن من الفرار عبر واحد من المخارج المتعددة التى اكتشفناها فيما بعد.

ولم نستطع أن نعرف أى شيء من الأربعة الذين بقوا فى أيدينا لذا فقد فشل التحقيق الشامل الذى أجرته الشرطة فى أن تعثر على أية صلة بينهم وبين الأربعة الكبار. كانوا من أفراد الطبقة الدنيا من المقيمين فى الحى وأبدوا جهلاً كاملاً باسم لى تشانج ين، لقد أجرهم رجل صينى مهذب للقيام بخدمة فى منزل يقع على ضفة النهر ولا يعرفون أى شيء عن شئونه الخاصة.

بحلول اليوم التالى كنتُ قد تعافيتُ من أثر قنبلة بوارو الغازية إلا من بعض الصداق البسيط ولقد ذهبنا معاً إلى الحى الصينى وفتشنا المنزل الذى تم إنقاذى منه. كان المكان يتكون من منزلين آيلين للسقوط يتصلان مع بعضهما البعض بممر أسفل الأرض. كان الدوران الأرضيان والعلويان لكل منهما بلا أثاث ومهجورين تماماً فيما تمت تغطية النوافذ المكسورة بمزاليج بالية. كان جاب قد فحص القبوين واكتشف سر المدخل المؤدى إلى الحجرة السفلية التى قضيتُ فيها نصف ساعة غير سارة إطلاقاً. وقد أثبت تحقيق أكثر عمقا أن تلك الحجرة تم إعدادها فى اليوم الذى سبق اليوم الذى تم فيه اختطافى. كانت الستائر الحريرية والأرائك والسجاجيد المفروشة على الأرض من أفضل المنتجات، وعلى الرغم من أننى لا أفهم إلا القليل من الفن الصينى إلا أننى قدرت أن كل عنصر فى الحجرة كان الأفضل بين نظرائه.

وبمعاونة جاب وبعض رجاله استطعنا إجراء تفتيش عميق ودقيق للمنزل، وكان لدى الكثير من الآمال فى أننا سوف نجد وثائق على قدر كبير من الأهمية، فربما نجد قائمة بأسماء أبرز عملاء الأربعة الكبار أو ملاحظات بالشفرة حول بعض خططهم، إلا أننا لم نجد شيئاً من ذلك وكانت الوثيقة الوحيدة التى وجدناها هى الورقة التى استند

إليها الرجل الصينى فى إملأى الرسالة التى أرسلتها إلى بوارو، كان بها سجل كامل لحياتينا وتقييم لشخصيتينا وبعض المقترحات حول نقاط الضعف الممكن استغلالها للهجوم علينا.

فرح بوارو بشكل طفولى بهذا الاكتشاف، أما بالنسبة لى فلم أر فيه شيئاً ذا قيمة خاصة لأن من قام بإعداد تلك الوثيقة أخطأ بصورة مثيرة للسخرية فى بعض آرائه وقد أخبرتُ صديقى بذلك عندما عدنا إلى منزلنا حيث قلتُ له:

"عزيزى بوارو. الآن أنت تعلم كيف يفكر عدونا فينا فهو يُقدّر قدراتك العقلية بصورة كبيرة بينما لا يقدرنى حق قدرى. لكننى لست أدرى كيف يمكننا أن نستفيد من معرفة ذلك".

قهقهه بوارو بطريقة بدت فيها رنة هجومية وقال:

"ألا تفهم يا هاستنجز؟ الآن نحن نستطيع أن نُعدّ أنفسنا لمواجهة بعض وسائلهم بالإضافة إلى أننا أدركنا بعض عيوبنا. على سبيل المثال فقد أدركنا أنك يجب أن تفكر قبل أن تتحرك، ومرة أخرى إذا قابلت امرأة حمراء الشعر تمر بمشكلة فيجب أن تراقبها بدقة، ماذا تقول فى ذلك؟ كلام غير مقبول؟".

كانت فى تلك الأوراق بعض الإشارات السخيفة حول تهورى المفترض وحول افتتاحى بالنساء الصغيرات حمراوات الشعر بدرجة ما. اعتقدتُ أن إشارة بوارو كان يمكن أن تضايقنى كثيراً إلا أننى كنتُ مستعداً للمواجهة فقلتُ له:

"وماذا عنك؟ هل ستعالج غرورك المبالغ فيه أم حُبك المفرط للنظام؟".

كنتُ أقتبس بعضاً مما ورد فى الأوراق وقد لاحظتُ أن ردى السريع ضايقه فقال:

"أوه يا هاستنجز. بلا شك أنهم فى بعض الأحيان يخدعون أنفسهم، جيد جداً! سوف يتعلمون فى وقت معين وفى هذه الأثناء نكون قد تعلمنا شيئاً وعرفنا كيف نستعد".

كان هذا التعبير إحدى الحقائق التى دأب على تكرارها فى الفترة الأخيرة بصورة جعلتنى أبدأ فى كرهها.

واصل بوارو كلامه قائلاً: "نحن نعرف شيئاً ما يا هاستنجز وهذا أمر جيد، لكن هناك أشياء لا نعرفها وبالتالي يجب أن نعرف أكثر".

سألتُه: "كيف؟".

تراجع بوارو إلى مسند مقعده وقام بإعادة علبة ثقاب كنتُ قد ألقيتها بإهمال إلى مكانها واتخذ وضعاً أعرفه جيداً، فهو وضع لا يتخذه إلا إذا كان سوف يلقي خطبة طويلة وبدأ يتكلم قائلاً:

"تعلم يا هاستنجز أننا نواجه أربعة أعداء وهذا يعنى مواجهة أربع شخصيات مختلفة،

لم نلتق مباشرة مع رقم واحد ولا نعرفه إلا من خلال آثار عقله وبصورة عابرة. هاستنجز، سأقول لك إننى بدأت أفهم هذا العقل بصورة جيدة. عقل ماهر وشرقى. كل خطة ومؤامرة مررنا بها خرجت من عقل لى تشانج ين. رقم اثنان ورقم ثلاثة لهما شخصية قوية وفى مناصب رفيعة وفى الوقت الحالى هما فى مأمن من هجماتنا ومع ذلك فإن ملاذهما الآمن - بمصادفة عجيبة - هو نفس ملاذنا أيضاً. إنهما تحت أضواء الشهرة وبالتالي يفرض ذلك عليهما أن تكون تحركاتهما محسوبة بدقة، ونأتى إلى الفرد الرابع فى العصابة وهو الرجل الذى نعرفه برقم أربعة".

هنا تغير صوت بوارو قليلاً، وهو الأمر الذى يحدث دائماً عندما يتكلم عن هذا الشخص فقال:

"رقم اثنان ورقم ثلاثة قادران على النجاح وعلى أن يستمررا فى طريقيهما دون أن يخشيا التعرض لأى أذى وذلك بفضل سمعتهما ومواقعهما التى لا يمكن أن تهتز. أما رقم أربعة فهو ينجح لعكس تلك الأسباب، فهو ينجح من خلال إتباع طريق الغموض. من هو؟ لا أحد يعرف. كم مرة رأيناه أنت وأنا؟ خمس مرات، أليس كذلك؟ وهل يستطيع أى منا أن يقول واثقاً إنه سوف يتعرف على ذلك الرجل فى المرة القادمة؟".

كنتُ مجبراً على هز رأسى بالنفى وذلك بعدما عدتُ بذاكرتى إلى الأشخاص الخمسة المختلفين الذين قابلناهم والذين كانوا - وهو الأمر الذى لا يمكن تصديقه - شخصاً واحداً. حارس مستشفى الأمراض العقلية قوى البنية والرجل صاحب المعطف ذى الأزرار فى باريس والطبيب الهادئ فى قضية زهرة الياسمين الصفراء والأستاذ الروسى، كل تلك الشخصيات لا تتشابه فيها شخصيتان معاً.

قلتُ فى يأس: "كلا، لا توجد أماننا وسيلة على الإطلاق".

ابتسم بوارو وقال:

"أرجوك، لا تدع ذلك اليأس يعرف طريقه إليك. نحن نعرف شيئاً أو شيئين".

سألتُهُ فى شك: "مثل ماذا؟".

أجابنى قائلاً: "نحن نعرف أنه رجل متوسط الطول وأشقر البشرة أو متوسط اللون بين الأبيض والداكن لأنه إذا كان رجلاً طويلاً أو ذا بشرة داكنة فلم يكن ليستطع أن يتنكر فى صورة الطبيب القصير السمين. لن يكون من الذكاء أن يضيف إلى طوله بوصة أو ما شابه لكى يبدو فى صورة جيمس أو الأستاذ الروسى، وبنفس الطريقة فإنه يجب أن يكون لديه أنف مستقيم قصير. يمكن وضع إضافات على الأنف لكى يتغير شكله من خلال تنكر جيد إلا أنه لا يمكن التقليل من حجم أنف كبير فى لحظة. ومن جديد فإنه يجب أن يكون شاباً وبكل تأكيد لم يتجاوز الخامسة والثلاثين. أرأيت أن لدينا بعض الأشياء التى يمكن أن تقودنا إلى طريق ما؟ إنه رجل بين الثلاثين والخامسة والثلاثين متوسط الطول ولون بشرته بين الأشقر والداكن، خبير فى فن التنكر

والتجميل ولديه أسنان قليلة أو بلا أسنان على الإطلاق".
قلتُ متعجباً: "ماذا؟".

قال: "بالتأكيد يا هاستنجز. ففى شخصية حارس المستشفى كانت أسنانه مكسورة وملوثة وفى باريس كانت متساوية وبيضاء بينما كانت بارزة قليلاً فى شخصية الطبيب أما فى حالة سافارونوف فقد كانت له أنياب طويلة بصورة غير طبيعية. لا شيء يمكنه أن يغير من صورة الوجه بصورة كاملة إلا طاقم مختلف من الأسنان هل رأيت إلى أين يقودنا كل ذلك؟".

قلتُ فى حذر: "ليس تحديداً".

قال: "يقولون إنه رجل يحمل مهنته مكتوبة على وجهه".
صحتُ: "إنه مجرم".

لكن بوارو قال: "إنه خبير فى فن انتحال الشخصيات".
قلتُ: "الأمر مماثل".

فقال: "إنها عبارة حادة يا هاستنجز. إنه رجل يحظى بالتقدير فى عالم المسرح. ألا ترى أن هذا الرجل يمكن أن يكون - أو كان فى وقت من الأوقات - ممثلاً؟".
تساءلتُ: "ممثلاً؟".

أجابنى بوارو: "نعم. إنه يجيد كل فنيات المهنة. الآن هناك نوعان من الممثلين، الأول يعيش الدور بكل أحاسيسه والثانى يستطيع أن يفرض شخصيته على الدور، ومن النوع الثانى يأتى الرواد فى عالم التمثيل، إنهم يفهمون الدور بصورة كاملة ويشكلونه وفق شخصياتهم. أما النوع الأول فإنهم أولئك الذين يقضون حياتهم فى تمثيل سيد جورج لويد فى القاعات الموسيقية المختلفة أو يلعبون أدوار الرجال العجائز ذوى اللحي فى المسرحيات. إنه النوع الأول الذى يجب أن نبحث فيه عن ضالتنا. إنه فنان عظيم بطريقته التى يغرق بها فى كل دور يلعبه".

بدأ الاهتمام يستولى علىّ فقلتُ:

"إذن هل ترى أنك قادر على تتبع آثاره من خلال ارتباطه بالتمثيل؟".

قال بوارو: "طريقتك فى الاستنتاج دائماً مبهرة يا هاستنجز".

قلتُ فى برود: "ربما كان من الأفضل لو كانت تلك الفكرة قد جاءتك فى وقت مبكر، لقد أهدرنا الكثير من الوقت".

لكن بوارو قال: "أنت على خطأ يا صديقى، لم نهدر أى وقت إلا الذى كنا مضطرين إلى إهداره. لبضعة أشهر وعملائى ينشطون بشأن تلك المهمة. جوزيف أرونز واحد

منهم. هل تتذكره؟ لقد أعدوا لى قائمة بالرجال الذين تتوافر فيهم تلك الشروط. شاب فى حوالى الثلاثين من العمر لا يوجد شيء مميز فى مظهره ويمكنه أن يقوم بالتمثيل، وقد ركزوا على الرجال الذين تركوا الساحة الفنية خلال السنوات الثلاث الأخيرة".

قلت وقد وصل اهتمامى بالأمر مبلغه: "حسناً؟".

تابع بوارو قائلاً: "كانت القائمة طويلة إلى حد ما كما هو متوقع، ومنذ فترة من الوقت ونحن نعمل على تقليص حجمها وفى النهاية استطعنا أن نختصرها إلى أربعة أسماء. ها هى القائمة يا صديقى!".

ثم أعطانى ورقة وقرأت ما فيها من أسماء بصوت عالٍ:

"إيرنست لوتريل ابن رجل دين من نورث كاونتري. كان لديه خلل أخلاقى وتم طرده من المدرسة العامة. اتجه إلى التمثيل فى سن الثالثة والعشرين. (بعد ذلك وردت قائمة بأسماء الأدوار التى قام بها بالتواريخ والأماكن) أدمن المخدرات. من المرجح أنه ذهب إلى أستراليا قبل أربع سنوات. لم يمكن تتبع آثاره بعدما غادر بريطانيا. السن 32 عاما والطول 5 أقدام و10.5 بوصة وحليق اللحية بنى الشعر مستقيم الأنف أبيض البشرة رمادى العينين".

"جون سان مور وهو اسم الشهرة، أما الاسم الحقيقى فغير معروف وهو يمثل منذ أن كان طفلاً، كما قام بالتقليد فى بعض الصالات. لم يسمع عنه شيء منذ 3 سنوات. فى حوالى الثالثة والثلاثين من العمر. طوله 5 أقدام و10 بوصات. نحيف البنية، أزرق العينين أبيض البشرة".

"أوستين لى وهذا اسم الشهرة أما الاسم الحقيقى فهو أوستين فولى ينحدر من عائلة طيبة، دائماً ما كان لديه ميل للتمثيل وقد برز فى هذا المجال فى أوكسفورد. لديه سجل لامع فى الحرب. قام بالتمثيل فى العديد من المسرحيات الحرة، وهو مهتم جداً بعلم الإجرام. مر بانهييار عصبى حاد نتيجة لحادثة سير تعرض لها قبل ثلاثة أعوام والنصف ولم يظهر على المسرح منذ ذلك التاريخ. لا توجد مؤشرات على المكان الذى يعيش فيه الآن، العمر 35 عاماً. الطول 5 أقدام و9.5 بوصة. أبيض البشرة، أزرق العينين، بنى الشعر".

"كلود داريل وهو اسم يُفترض أنه حقيقى. يكتنف الغموض أصوله. قام بالتمثيل فى الصالات وفى المسرحيات الحرة. يبدو بدون أصدقاء مقربين. كان فى الصين فى العام 1919 وعاد عن طريق الولايات المتحدة. قام بتمثيل عدة أدوار فى نيويورك ومنذ ذلك الحين لم يظهر على خشبة المسرح ليلة واحدة ولم يسمع به أحد. تقول شرطة نيويورك إن اختفائه هو أحد أكثر حالات الاختفاء غموضاً. يبلغ من العمر 33 عاماً، بنى الشعر أبيض البشرة رمادى العينين، طوله 5 أقدام و10.5 بوصة".

قلت وأنا أضع الورقة: "مثير جداً. وهل هذه نتيجة التحريات التي استمرت شهوراً؟ أربعة أسماء. أى اسم تميل إلى الشك فى صاحبه؟".

اتخذ بوارو وضعاً بليغاً وقال:

"صديقى، حتى هذه اللحظة يبقى هذا سؤالاً مفتوحاً. أريد فقط أن أشير إلى أن كلود داريل كان فى الولايات المتحدة والصين وهى حقيقة ليست بلا دلالة، ربما، إلا أننا يجب ألا نسمح لأنفسنا بأن نتخذ موقفاً استناداً إلى تلك النقطة. ربما تكون مصادفة بحتة".

سألته فى حماس: "والخطوة التالية؟".

قال بوارو: "لقد تحركت الأمور بالفعل. كل يوم سوف تظهر إعلانات حذرة التعبيرات. تطلب من أصدقاء ومعارف كل واحد من هؤلاء أن يتصلوا بمكتب المحامى الخاص بى، وحتى اليوم فإننا ربما... أها، الهاتف! ربما يكون ذلك مثل كل مرة رقماً خاطئاً. سوف أجعلهم يندمون على إزعاجنا. لكن ربما... نعم... ربما يكون ذلك شيئاً ما برز على السطح".

عبرتُ الحجرة والتقطتُ السماعه قائلاً:

"نعم. نعم. هنا منزل سيد بوارو. نعم كابتن هاستنجز يتكلم. أوه. إنه أنت سيد ماكنيل. (ماكنيل وهودجسون هما محاميا بوارو). سأخبره. نعم. سوف نأتى فى الحال".

وضعت السماعه والتفت إلى بوارو وعيناي ترقصان من الفرحه وقلتُ له:

"بوارو، يقولون إن هناك سيدة. صديقة لـ "كلود" داريل. آنسة فلوسى مونرو. ماكنيل يريدك أن تذهب".

صاح بوارو: "فى التو!" قالها وهو يجرى إلى حجرته وعاد ليظهر وقد ارتدى قبعة.

أخذتنا إحدى سيارات الأجرة إلى وجهتنا. وأرشدونا إلى المكتب الشخصى لـ "ماكنيل". وفى مواجهة المحامى كانت تجلس فى مقعد ذى ذراعين امرأة شديدة الشحوب تجاوزت مطلع الشباب بقليل. كان شعرها من لون أصفر يستحيل وجوده وقد أخذ شكل دوائر عديدة كل منها فوق الأخرى فيما كانت عيناها مليئتين بمساحيق التجميل السوداء ولم تنس بأى حال من الأحوال أن تضع أحمر الخدين والشفاه.

قال سيد ماكنيل: "آه. سيد بوارو هنا. هذه آنسة مونرو. لقد اتصلت بنا بكل صدر رحب لكى تعطينا بعض المعلومات".

صاح بوارو: "منتهى التعطف وسعة الصدر!".

ثم تقدم للأمام فى ترحيب واضح وصافح المرأة بحرارة وقال:

"إنك تبدين كالزهرة فى ذلك المكتب الجاف مثل التراب"، قالها دون أى اهتمام بمشاعر سيد ماكنيل.

لم يكن هذا الشناء الفائق بلا أثر فقد تورّد خدَا آنسة مونرو وأبتَسَمَتْ ابتسامةً مجاملة ثم هتفت:

"أوه، ادخل فى الموضوع سيد بوارو، أنا أعرفكم أيها الفرنسيون".

عاد يقول: "آنستى. نحن لا نستطيع أن نقف صامتين أمام الجمال مثل الإنجليز. وبالمناسبة، أنا لستُ فرنسيّاً وإنما أنا بلجيكي".

قالت آنسة مونرو: "لقد ذهبتُ أنا نفسى إلى أوستيند".

كان الأمر يسيراً - كما كان سيقول بوارو - بصورة رائعة وتابع قائلاً:

"هل تستطيعين أن تخبرينا بشيء عن كلود داريل؟".

قالت الآنسة موضحة: "لقد عرفت سيد داريل جيداً لفترة من الوقت. لقد رأيتُ إعلانكم وكنْتُ وقتها خارجة من أحد المحال ولم يكن هناك ما يشغلنى، فقلت: إنهم يريدون أن يعرفوا شيئاً ما عن كلودى المسكين، وهناك محامون أيضاً لذلك ربما تكون هناك ثروة تبحث عن الوريث الحقيقى. سأذهب فى الحال".

هنا نهض ماكنيل وقال:

"حسنًا سيد بوارو. هل يمكننى أن أتركك لتتبادل حديثك القصير مع آنسة مونرو؟".

لكن بوارو قال: "أنت لطيف جداً لكن ابق مكانك. لقد أتتني فكرة صغيرة. إنه وقت الغداء وأعتقد أن الآنسة لن تمانع فى أن تشرفنى بتناول طعام الغداء معي".

تلاّأت عينا آنسة مونرو، فخطر ببالى أنها فى أدنى الدرجات الاجتماعية وبالتالي لا يمكن أن تتجاهل وجبة جيدة مثل تلك.

بعد ذلك كنا جميعاً نستقل إحدى سيارات الأجرة متجهين إلى أحد أغلى مطاعم لندن وبمجرد أن وصلنا طلب بوارو وجبة من أفخم الوجبات ثم التفت إلى ضيفته وقال:

"هل تريدين بعض الشراب يا آنستى؟".

لم تقل آنسة مونرو أى شيء.. أو بمعنى أصح قالت كل شيء.

بدأت الوجبة بصورة ممتعة ودأب بوارو على ملء كوب آنسة مونرو كلما فرغ ثم أخذ يسير نحو الموضوع تدريجياً وقال:

"للأسف، ليس معنا سيد داريل المسكين".

قالت آنسة مونرو: "نعم. حقاً. يا له من صبي مسكين. إننى أتساءل عما حلَّ به؟".

سألها بوارو: "لقد مر وقت طويل منذ أن رأيته آخر مرة، أليس كذلك؟".

قالت: "أوه. منذ مدة طويلة. ليس منذ الحرب. كان فتى طيباً، كلودى كان مرهف الحس ولم يكن يتكلم كثيراً عن نفسه. لكن كل ذلك بالطبع سيكون مناسباً إذا ما كان أحد الورثة المفقودين، هل هو وريث للقب سيد بوارو؟".

قال بوارو فى كذب صريح:

"للأسف. مجرد ميراث. لكن بالطبع - كما تفهمين - ربما يتحول الأمر إلى مسألة تعرف على هوية داريل وهذا هو ما يجعل من الضروري أن نجد شخصاً يعرفه جيداً جداً، أنت تعرفينه جيداً، أليس كذلك يا آنستى؟".

قالت: "ليس هناك مانع فى أن أخبرك. أنت رجل لطيف، تعرف كيف تطلب غداء لامرأة، وليس مثل شباب هذه الأيام التافهين. وكما كنت أقول لن أندesh إذا ما كنت فرنسياً. آه منكم أيها الفرنسيون! أشقياء... أشقياء!". قالتها وهى تحرك إصبعها فى الهواء أمام وجهها على شكل أقواس ثم تابعت قائلة: "حسناً. كان الأمر كذلك. كنا أنا وكلود. شابين صغيرين. ماذا تتوقع غير ما حدث؟ فى الواقع لا زلت أحمل الكثير من المشاعر الطيبة لـ "كلود". على الرغم من أنه - وانتبه لذلك - لم يكن يعاملنى بصورة جيدة. لا. لم يكن يفعل. لم يعاملنى بصورة جيدة إطلاقاً. إنهم كلهم يتشابهون عندما تصل الأمور إلى المال".

قال بوارو معترضاً وهو يملأ لها الكأس مرة أخرى: "لا. لا. يا آنستى. لا تقولى ذلك. هل يمكنك الآن أن تصفى لى سيد داريل هذا؟".

قالت فلوسى مونرو فى لهجة حاملة: "لم يكن شيئاً جميلاً جداً لتنظر إليه. لم يكن طويلاً ولا قصيراً. إلا أنه كان معتدلاً بصفة عامة وأنيق المظهر. كان لعينيه لون وسط بين الرمادى والأزرق وبصفة عامة كان شعره أشقر. أعتقد ذلك، لكنه كان فناناً! لم أر أحداً يباريه فى مهارته! كان من المفترض أن يكون قد حضر لنفسه الآن اسماً لولا الغيرة. آه سيد بوارو. إنها الغيرة. لن تصدق ذلك. لن تصدق بالفعل ما الذى يجب علينا نحن الفنانين أن نعانیه بسبب الغيرة، ولماذا؟ أنا أتذكر ذات مرة فى مانشستر...".

أبدينا كل ما فى جعبتنا من صبر ونحن نسمع قصة طويلة معقدة عن عرض للبانثومايم وما جرى خلاله من بطل العرض. بعد ذلك أعادها بوارو بلطف إلى موضوع كلود داريل قائلاً:

"كل ما يمكنك قوله حول كلود داريل هو مثير للاهتمام يا آنستى. إن النساء يتمتعن بملاحظة حادة. إنهن يرين كل شيء ويلاحظن التفاصيل التى قد تفلت من الرجال. لقد رأيت امرأة تتعرف على رجل من بين دسنة رجال آخرين. كيف تعتقدين

أنها تعرّفتُ عليه؟ لقد لاحظتُ أن لديه عادة حك أنفه عندما يكون متوتراً. والآن، هل كان أى رجل يمكنه أن يلاحظ أمراً مثل ذلك؟".

صاحتُ أنسة مونرو: "أنت على حق! أنا أعتقد أننا نلاحظ كل شيء. أتذكر كلودى. الآن بدأتُ أفكر فيه من جديد. كان دائماً يعبث فى الخبز أمامه على المائدة. كان يأتى بقطعة الخبز بين أصابعه ويلويها بمهارة لكى يلتقط لبابها. لقد رأيته يفعل ذلك مئات المرات، بهذه العادة يمكننى أن أتعرف عليه فى أى مكان".

عاد بوارو يقول: "أليس هذا ما كنتُ أقوله؟ القدرة النسائية المدهشة على الملاحظة. وهل تكلمتِ معه حول تلك العادة الصغيرة يا آنستى؟".

أجابته قائلة: "لا. لم أفعل سيد بوارو. أنت تعرف كيف يكون الرجال! إنهم لا يحبونك أن تلاحظ الأشياء بخاصة إذا ما بدا أنك تلومهم على ما يفعلونه، لم أقل أية كلمة إطلاقاً إلا أننى كثيراً ما كنتُ أبتسم فى نفسى. إنه لم يعرف قط أنه كان يقوم بذلك".

هز بوارو رأسه موافقاً فى لطف، ولاحظتُ أن يده كانت تهتز قليلاً بينما كان يمدّها ليتناول كوبه وهو يدلى بملاحظة قائلاً:

"كما أن هناك الخط كوسيلة للتعرف على الهوية بلا شك أنت تحتفظين بخطاب كتبه سيد داريل؟".

هزّتُ أنسة مونرو رأسها فى أسف وقالت:

"لم يكن يحب الكتابة. لم يكتب لى خطاباً واحداً فى حياته".

قال بوارو: "هذا أمر مؤسف".

لكنّ أنسة مونرو قالت فجأة: "سأقول لك. لدى صورة فوتوغرافية له إذا كان من الممكن أن تكون ذات نفع؟".

تقريباً قفز بوارو من مقعده فى انفعال وهو يقول: "لديك صورة؟".

قالت: "إنها صورة قديمة. تقريباً قبل ثمانى أعوام".

قال: "هذا لا يصنع فارقاً! لا يهم درجة قدمها وعدم وضوحها! آه، يا إلهى! يا له من حظ مذهل! هل تسمحين لى بفحص تلك الصورة يا آنستى؟".

قالت له: "بالطبع".

عاد بوارو يقول لها: "ربما سوف تسمحين لى بالحصول على نسخة منها، لن يستغرق هذا الكثير".

قالت له: "بالتأكيد إذا كنتُ ترغب فى ذلك".

ثم نهضت آنسة مونرو وقالت فى خبث:

"يجب أن أذهب. سعيدة جداً للقائك أنت وصديقك سيد بوارو".

سألها بوارو: "والصورة؟ متى يمكننى الحصول عليها؟".

قالت: "سوف أبحث عنها اليوم، أعرف أين أضع يدي عليها، وسوف أرسلها لك على الفور".

فقال بوارو: "ألف شكر لك آنستى. أنت بذلك تكونين فى منتهى اللطف. أتمنى أن نلتقى قريباً فى غداء صغير آخر".

قالت آنسة مونرو: "بمجرد أن ترغب فى ذلك. سوف أكون مستعدة".

قال بوارو: "دعيني أر، لا أعتقد أن لدى عنوانك".

وبأسلوب به فخامة أخرجت من حقيبة يدها بطاقة وأعطتها له. كانت بطاقة متسخة إلى حد ما وتمت إزالة العنوان الأصلي وكتابة عنوان آخر بقلم رصاصى.

بعدها وبعد الكثير من الانحناءات والإيماءات من جانب بوارو ودعائها ورحلت.

سألت بوارو: "هل تعتقد أن تلك الصورة مهمة؟".

قال لى: "نعم، يا صديقى. الكاميرا لا تكذب. يستطيع المرء أن يكبر حجم الصورة ويلتقط الأجزاء التى تبقى بعيداً عن دائرة الملاحظة قبل ذلك. وعندها سوف تجد آلاف التفاصيل مثل شكل الأذنين والتى لا يستطيع أحد أن يصفها بالكلام. أوه. نعم. فرصة عظيمة تلك الفرصة التى جاءت فى طريقنا. وهذا ما يجعلنى أتخذ احتياطاتي".

وبمجرد أن أنهى كلامه توجه إلى الهاتف وأعطاهم رقم هاتف يخص وكالة تحر خاصة أحياناً يتعامل معها. كانت تعليماته واضحة ومحددة. على رجلين أن يذهبا إلى العنوان الذى أعطاه لهما وبتعبيرات أوضح كان عليهما أن يحميا آنسة مونرو. كان عليهما أن يتبعها حيثما ذهبت.

وضع بوارو السماعة وعاد إلى.

سألت بوارو: "هل تعتقد أن هذا ضرورى بالفعل؟".

أجابنى قائلاً: "ربما. لا شك فى أننا مراقبون. أنت وأنا. ولما كان الوضع هكذا فسيعرفون قريباً مع من تناولنا الغداء اليوم ومن الممكن أن يشتم رقم أربعة رائحة الخطر فى ذلك".

بعد حوالى 20 دقيقة رن جرس الهاتف فرددت أنا فجاءنى صوت جاف يقول:

"سيد بوارو؟ مستشفى سانت جيمس يتحدث. حضرت إلينا امرأة شابة قبل حوالى 10 دقائق مصابة فى حادث سير. إنها آنسة فلوسى مونرو. إنها تريد حضور سيد بوارو

بأقصى سرعة، يجب أن يأتى فى الحال فقد تموت فى أية لحظة".

كررتُ تلك الكلمات على مسامع بوارو فامتقع وجهه وقال:

"بسرعة يا هاستنجز. يجب أن نذهب كالريح".

أخذتنا سيارة أُجرة إلى المستشفى فى أقل من 10 دقائق وسألنا على آنسة مونرو فأخذونا بسرعة إلى قسم الحوادث إلا أن ممرضة استقبلتنا فى الممر.

قرأ بوارو الأخبار فى وجهها فسألها:

"لقد انتهى الأمر، أليس كذلك؟".

فقلت: "لقد ماتت قبل 6 دقائق".

وقف بوارو مصعوقاً.

فتابعت الممرضة وقد أساءتُ فهم سبب صدمته:

"لم تعان. كانت فاقدة الوعى حتى لحظة النهاية. لقد دهستها سيارة ولم يتوقف حتى سائقها. شرير. أتمنى أن يكون أحد قد استطاع تسجيل رقم السيارة".

قال بوارو فى صوت خفيض: "إن الحظ ليس فى جانبنا".

سألته الممرضة: "هل ترغب فى رؤيتها؟"

ثم تقدّمنا ونحن خلفها.

كانت فلوسى مونرو ترقد بمساحيق التجميل على خديها وشعرها المصبوغ فى سلام هناك وقد اعتلت شفيتها ابتسامة صغيرة.

غمغم بوارو: "نعم، النجوم تحارب ضدنا. لكن أهى النجوم حقاً؟" ثم وضع يده على رأسه وكأنما جاءتة فكرة مفاجئة وقال: "أهى النجوم حقاً يا هاستنجز؟ ماذا لو لم يكن... ماذا لو لم يكن... أوه. أقسم لك يا صديقى وأنا أقف بجوار جثمان تلك المرأة المسكينة أننى لن أتحدى بالرحمة عندما يحين الوقت!".

سألتُهُ: "ماذا تعنى؟".

إلا أن بوارو استدار إلى الممرضة وسألها فى لهفة عن بعض المعلومات. فقدمت له قائمة ببعض ما تم العثور عليه فى حقيبة يدها. فصرخ بوارو صرخة مكتومة عندما قرأ القائمة وقال:

"هل ترى يا هاستنجز، هل ترى؟".

فسألتُهُ: "أرى ماذا؟".

فأجاب: "لا يوجد ذكر لمفتاح المنزل. لكنها يجب أن يكون لديها مفتاح للمنزل. لا. لقد دهسها سائق السيارة بدم بارد وأول شخص ذهب لفحصها بعد الحادث أخذ المفتاح من الحقيبة، لذلك يجب أن نكون هناك في الوقت المناسب فربما لم يتمكن من العثور على ضالته".

أخذتنا سيارة أجرة أخرى إلى العنوان الذي أعطته لنا فلوسى مونرو. كان في تجمع سكنى قدر في حى ردىء. استغرق الأمر منا وقتاً قبل أن نتوصل إلى الشقة التي كانت تقيم فيها آنسة مونرو، إلا أننا على الأقل تأكدنا من أن أحداً لم يغادرها بينما كنا نحن في الخارج.

ولما دخلنا كان واضحاً أن أحداً دخل قبلنا، فقد كانت محتويات الأدراج والدواليب ملقاة على الأرض في كل مكان، تم كسر الأقفال وحتى المناضد الصغيرة انقلبت على الأرض. كان من قام بتفتيش الشقة عنيفاً ومتعجلاً جداً.

بدأ بوارو في التنقيب وسط الحطام وفجأة وقف صارخاً وقد أمسك في يده شيئاً ما. كان إطار صورة قديماً فارغاً.

بدأ يديره في بطاء. في الخلفية كان هناك ورقة مستديرة صغيرة. كانت ورقة سعر الإطار فَعَلَقْتُ قَائِلاً:

"ثمنه أربعة شلنات".

إلا أن بوارو صاح: "يا إلهى! هاستنجز. استخدم عينيك. إنها ورقة جديدة نظيفة. لقد وضعها هنا الرجل الذي أخذ الصورة. الرجل الذي كان هنا قبلنا، ولكنه كان يعلم أننا سوف نأتى أيضاً لذلك ترك لنا هذا، إنه كلود داريل - المعروف برقم أربعة".

الفصل الخامس عشر

الكارثة الرهيبة

بدأت أدرك التغيير الذى حدث لـ"بوارو" بعد الموت المأسوى للآنسة فلوسى مونرو، إذ أصبحت ثقته غير المتناهية فى نفسه تحت الاختبار. وقد ظهر ذلك واضحاً فى توتره، حيث أصبحت سلوكياته أكثر جدية وتسم بالاكنتاب، وصارت أعصابه على وشك الانهيار، فى تلك الأيام كان عصبياً مثل القط، وأخذ يتجنب كل المناقشات حول الأربعة الكبار قدر الإمكان، وأخذ ينغمس فى الأعمال العادية بنفس حماسه السابقة تقريباً. ومع ذلك، كنت أعرف أنه ينشط فى الخفاء فى الموضوع الكبير. كان هناك الكثير من الأشخاص الذين تبدو عليهم الملامح السلافية بوضوح يطلبون مقابلته، وعلى الرغم من أنه لم يتكرم بشرح أى شىء لى حول تلك الأنشطة السرية إلا أنني لاحظت أنه يبنى خط دفاع أو سلاحاً مضاداً بمساعدة أولئك الأجانب الذين يثير مرآهم الاشتمزاز إلى حد ما، وذات مرة - وبالمصادفة البحتة - حدث أن رأيت بيانات دفتر حسابه فى البنك حيث كان قد طلب منى أن أتأكد من أمر ما. فقد لاحظت أن هناك مبلغاً كبيراً من المال تم سحبه. كان المبلغ كبيراً حتى بالنسبة لـ"بوارو" الذى كان يدخر المال فى تلك الأيام، وقد تم دفع ذلك المبلغ إلى شخص كانت هويته الروسية واضحة من كل حرف فى اسمه.

إلا أن بوارو لم يعط أية إشارة حول الخطة التى ينوى العمل بها. إلا أنه مرة بعد مرة كان يكرر جملة واحدة هى: "من الخطأ أن تقلل من قدر خصمك، تذكر ذلك يا صديقي"، ولقد لاحظت أن هذه النقطة هى الأمر الذى كان يحاول أن يتجنبه بأى ثمن.

استمرت الأمور هكذا حتى نهاية مارس. وذات صباح أخبرنى بوارو بأمر أدهشنى تماماً حيث قال:

"فى هذا الصباح، يا صديقى، يجب أن نرتدى أفضل ثيابنا. لقد طلب منا وزير الداخلية الحضور".

قلت فى انفعال: "حقاً؟ إن هذا أمر مثير، هل طلبك لتتولى إحدى القضايا؟".

قال بوارو: "ليس تماماً. هذا اللقاء بناء على طلبى. هل تذكر ما قلته لك من قبل أنني أسديت له خدمة صغيرة، من بعدها صار متحمساً حماساً أعمى لقدراتى، وأنا الآن سوف ألعب على هذا التوتر. كما تعلم، فإن رئيس الوزراء الفرنسى ديجاردو فى لندن حالياً، وبطلب منى رتب وزير الداخلية أمر حضوره لقاءنا الصغير اليوم".

كان سيدنى كراوثر وزير الدولة للشئون الداخلية رجلاً معروفاً وذا شعبية. كان يبلغ من العمر حوالى 50 عاماً، يطل من وجهه تعبير ساخر وله عينان نافذتان. استقبلنا كأفضل ما يكون الاستقبال، وهو السلوك الذى يعتبر من عوامل شهرته.

كان هناك رجل طويل نحيف يجلس وقد أعطى ظهره للمدفاة، له لحية مدببة ووجه حاد القسمات.

قال كراوثر: "سيد ديجاردو، اسمح لى بأن أقدم لك السيد بوارو الذى ربما تكون قد سمعت عنه بالفعل".

انحنى رئيس الوزراء الفرنسى محيياً، وصافح بوارو قائلاً فى أسلوب مهذب:

"بالفعل سمعت عنه. ومن ذا الذى لم يسمع عن بوارو؟".

قال بوارو: "أنت لطيف جداً سيدي" قالها وانحنى محيياً بينما كان وجهه يتألق بالسعادة.

تعالى صوت هادئ من رجل كان فى ركن الحجرة بجوار مكتبة طويلة: "ولا كلمة لصديق قديم؟".

كان هذا هو صديقنا القديم السيد إنجلز.

صافحه بوارو فى حرارة.

قال كراوثر: "والآن سيد بوارو. نحن فى خدمتك. فهمتُ أن لديك أمراً على أقصى قدر من الأهمية تريد أن تبلغه لنا".

قال بوارو: "الأمر كذلك. توجد فى العالم اليوم منظمة واسعة الانتشار... منظمة إجرامية. يديرها أربعة أفراد يعرفون باسم الأربعة الكبار؛ رقم واحد هو رجل صينى يدعى لى تشانج ين، رقم اثنان مليونير يدعى آيب رايلاند، رقم ثلاثة سيدة فرنسية، رقم أربعة لدى ما يدعوني إلى الاعتقاد بأنه ممثل إنجليزى مغمور يدعى كلود داريل. هؤلاء الأربعة يتعاونون معاً من أجل تدمير النظام الاجتماعى القائم لتسود الفوضى التى يمكنهم من خلالها أن يستبدوا بحكم العالم".

غمغم الرجل الفرنسى: "غير معقول، رايلاند مرتبط بأمر مثل هذا؟ بالتأكيد تبدو هذه الفكرة خيالية جداً".

لكن بوارو قال: "ليسمح لى سيدى بأن أسرد له بعض أفعال الأربعة الكبار".

كانت قصة مذهلة. وعلى الرغم من أن كل تلك التفاصيل مألوفة بالنسبة لى إلا أن الشعور بالرعب عاد يملكنى لما سمعت قصص المغامرات التى خضناها وكيف هربنا منها.

نظر السيد ديجاردو بصمت إلى سيد كراوثر عندما انتهى بوارو من حديثه، فقال كراوثر مجيباً تلك النظرة:

"نعم سيد ديجاردو، أعتقد أن علينا أن نعترف بوجود شيء ما يسمى (الأربعة الكبار). لقد مالت سكوتلانديارد إلى السخرية من هذا الأمر في البداية، إلا أنهم اضطروا إلى الاعتراف بأن سيد بوارو على حق في كثير مما يقوله. إلا أنني أشعر بأن سيد بوارو يبالغ قليلاً".

ورداً على ذلك، قام بوارو بسرد 10 مواقف ليس مسموحاً لى حتى الآن بأن أصرح بها على الملأ، إلا أنها تتضمن الحادثة التي وقعت ذات شهر لإحدى الغواصات، وبعض كوارث الطيران، وأيضاً سلسلة من حوادث الهبوط الاضطرابي. ووفقاً لـ "بوارو" فإن كل تلك الحوادث كانت من صنع الأربعة الكبار كما قدم أدلة على أن تلك المنظمة لديها الكثير من الأسرار العلمية غير المعروفة للعالم.

كل ذلك قادنا مباشرة إلى السؤال الذي كنت أنتظر من رئيس الوزراء الفرنسي أن يلقيه حيث سأل بوارو:

"لقد قلت إن رقم ثلاثة هو امرأة فرنسية، هل لديك أية فكرة عن اسمها؟".

قال بوارو: "إنها صاحبة اسم معروف، اسم يحظى بالتكريم. إنها ليست إلا السيدة أوليفيه".

وبمجرد أن ذكر اسم تلك العالمة المشهورة عالمياً - والتي تعد خليفة الزوجين كورى مباشرة في الشهرة - حتى قفز سيد ديجاردو من مقعده وقد احمر وجهه من الانفعال وصاح:

"السيدة أوليفيه! مستحيل! غير معقول! إن ما تقوله يعد إهانة...".

هز بوارو رأسه نافياً في هدوء لكنه لم ينطق بكلمة.

نظر إليه ديجاردو في ذهول لعدة ثوان، ثم هدأ وجهه ونظر في صمت إلى وزير الداخلية وهو ينقر بأصابعه على جبهته قبل أن يقول:

"السيد بوارو رجل عظيم. لكن لكل جواد كبوة والسيد بوارو لديه بعض الهواجس الخيالية، أليس كذلك؟ ويأتى بسببها ليدخل إلى الأماكن رفيعة المستوى ليتحدث عن مؤامرات خيالية، أليس كذلك سيد كراوثر؟".

لم يرد وزير الداخلية لعدة دقائق قبل أن يقول أخيراً في لهجة بطيئة وعميقة:

"أقسم بروحي أنني لا أعرف. لقد كانت ولا تزال لدى ثقة مطلقة في السيد بوارو. لكن... حسناً. إن هذا الأمر به شيء من الصحة".

لكن ديجاردو واصل اعتراضاته بقوله: "وأيضاً لى تشانج ين هذا، من سمع باسمه؟".

"أنا سمعتُ" كان هذا هو صوت إنجلز الذى تكلم على نحو غير متوقع.

حدق الرجل الفرنسى إليه ثم عاد الهدوء إلى نظرته، وقد بدا على مظهره أنه تحول إلى تمثال خزفى.

هنا قال وزير الداخلية موضحاً: "هذا هو السيد إنجلز، مرجعنا العظيم فى كل الأمور المتعلقة بالشئون الصينية".

فسأله رئيس الوزراء الفرنسى: "وهل سمعتَ بـ"لى تشانج ين"؟".

أجابه السيد إنجلز قائلاً: "حتى جاءنى السيد بوارو، كنتُ أتخيل أننى الرجل الوحيد فى إنجلترا الذى يعرف بهذا الاسم. دون أدنى خطأ، سيد ديجاردو، يمكن القول بأن الشخص الوحيد الذى يحسبُ حسابه فى الصين اليوم هو لى تشانج ين، الذى ربما - وأقول ربما - يكون أذكى عقل فى العالم فى الوقت الحاضر".

جلس السيد ديجاردو وقد بدا كما لو كانت قد أصابته صاعقة، لكنه عاد بعد ذلك ليقول فى برود:

"ربما يوجد شيء ما فيما تقول يا سيد بوارو، لكن بالنسبة للسيدة أوليفيه فأنت مخطئٌ إلى أقصى حد. إنها ابنة حقيقية لفرنسا، وقد كرسَتْ كل وقتها للعلم".

هز بوارو كتفيه ولم يرد عليه.

مرت لحظة ساد فيها الصمت بين الاثنين قبل أن ينهض صديقى الضئيل فى ترفع بدا متعارضاً مع شخصيته الحقيقية، وقال:

"هذا هو كل ما لدى أيها السادة - أنا أحذركم. كنتُ أعتقد أنه من غير المحتمل أن يصدقنى أحد، لكنكم على الأقل سوف تأخذون حذركم. سوف تختفى كلماتى، إلا أن الأحداث القادمة سوف تدحض معتقداتكم الضعيفة. كان من الضرورى أن أتكلم الآن، فمن المحتمل ألا أستطيع ذلك فيما بعد".

سأله كراوثر وقد تأثر على الرغم منه بالجدية التى اصطبغت بها لهجة بوارو:

"هل تعنى...؟".

قاطعه بوارو قائلاً: "أعنى سيدى أنه منذ أن عرفتُ شخصية رقم أربعة فإن القضاء على لن يتطلب أكثر من ساعة، سوف يحاول أن يدمرنى بكل الوسائل فهو لم يحمل اسم "المدمر" دون سبب، لكم تحياتى أيها السادة. ولك يا سيد كراوثر، أقدم هذا المفتاح وهذا المظروف المغلق. لقد جمعتُ كل ملاحظاتى عن القضية وأفكارى حول الكيفية التى يمكن بها مواجهة هذا التحدى الذى قد ينفجر فى العالم فى أية لحظة، ووضعته فى مكان آمن. وفى حالة موتى، سيد كراوثر، فإننى أخوِّلك فى أن تأخذ تلك الأوراق وتستخدمها بالصورة التى تراها ممكنة. والآن أيها السادة، أتمنى لكم يوماً

طيباً".

انحنى ديجاردو ببرود تحيةً لـ "بوارو"، بينما قفز سيد كراوثر وأمسك بيد بوارو وقال له:

"لقد استطعتُ أن تغير من وجهة نظري، سيد بوارو. على الرغم من غرابة ما تقوله إلا أنني أومن تماماً بصحة ما أخبرتنا به".

انصرف إنجلز معنا.

وبينما نحن سائرون في الشارع قال بوارو: "لستُ محبطاً من نتيجة المقابلة، فأنا لم أتوقع أن أقنع ديجاردو، لكنني على الأقل تأكدتُ من أنه في حالة موتى فإن معلوماتي لن تموت معي. كما أنني نجحت في تغيير أمر أو اثنين، وذلك ليس سيئاً!".

قال إنجلز: "أنا أؤيدك كما تعرف، وبالمناسبة، سوف أذهب إلى الصين بمجرد أن أتمكن من ذلك".

سأله بوارو: "وهل هذه خطوة حكيمة؟".

أجابه إنجلز في لهجة جافة: "لا، إلا أنها ضرورية يجب على المرء أن يفعل ما يقدر عليه".

صاح بوارو في انفعال: "آه، أنت رجل رائع، لو لم نكن في الشارع لاحتضنتك".

أعتقد أنه بدا على إنجلز ملامح الارتياح، لكنه قال متذمراً:

"لا أعتقد أنني سأكون في خطر وأنا في الصين بنفس قدرك وأنت في لندن".

قال بوارو مقراً بصحة حديث إنجلز: "هذا صحيح، أمل ألا ينجحوا في قتل هاستنجز أيضاً بلا رحمة. هذا كل ما في الأمر، سيضايقني ذلك كثيراً".

قاطعتُ تلك المحادثة المبهجة قائلاً إنني ليست لدى أية نية لأن أقتل، وبعد ذلك بوقت قصير تركنا إنجلز.

خيم علينا الصمت لفترة من الوقت أثناء سيرنا قبل أن يقطعه بوارو قائلاً ملاحظة غير متوقعة:

"أعتقد، أعتقد بالفعل، أننا يجب أن ندخل شقيقى في الموضوع".

صحتُ مندهشاً: "شقيقك؟ لم أعرف قط أن لك شقيقاً".

لكنه قال: "لقد فاجأتني يا هاستنجز، ألا تعلم أن لكل المحققين المشاهير أشقاء كان من الممكن أن يكونوا أكثر شهرة لو لم يتعلق الأمر بطبيعة الشخصية والبنية؟".

لـ "بوارو" أحياناً أسلوب غريب لا يمكن أن تعرف منه ما إذا كان يمزح أم يتكلم

بجدية، كان هذا الأسلوب واضحاً جداً فى هذه اللحظة.

سألته محاولاً أن أبتلع تلك الحقيقة الجديدة: "وما اسم شقيقك؟".

قال بوارو: "أخيل بوارو إنه يعيش قرب بلدة سبا فى بلجيكا".

"وماذا يعمل؟" ألقيتُ عليه هذا السؤال فى فضول وقد وضعتُ جانبا دهشتى من طباع الراحلة السيدة بوارو، وذوقها الكلاسيكى فى اختيار أسماء أبنائها.

قال بوارو: "إنه بدون عمل. فهو كما قلتُ لك له طباع فردية، إلا أن قدراته لا تقل عن قدراتى وهو الأمر الذى يعنى الكثير".

فعدتُ أسأل: "وهل يشبهك؟".

أجابنى: "ليس كثيراً. إلا أنه ليس وسيماً جداً ولا شارب له".

واصلتُ الأسئلة: "هل يكبرك فى السن أم يصغرك؟".

قال بوارو: "لقد ولد فى نفس اليوم الذى وُلِدْتُ أنا فيه".

قلتُ صائحاً فى اندهاش: "توأملك".

قال بوارو: "تماماً يا هاستنجز. لقد قفزتُ إلى الاستنتاج الصحيح بدقة شديدة. الآن، وقد عدنا إلى المنزل، فدعنا نعمل قليلاً فى تلك القضية الصغيرة الخاصة بعقد الدوقة".

إلا أن عقد الدوقة كان مُقدَّراً له أن ينتظر قليلاً، فقد كانت هناك قضية من نوع آخر تنتظرنا.

صاحبة العقار سيدة بيرسون أخبرتنا فور أن شَاهَدَتْنَا أن هناك ممرضة قد أتت وتنتظر بوارو.

فى مقعد ذى ذراعين أمام النافذة جلست امرأة ذات وجه مريح فى أواسط العمر. كانت ترتدى زياً رسمياً أزرق. كانت مترددة قليلاً فى أن تدخل فى الموضوع، إلا أن بوارو استطاع أن يهدئها فبدأت تقول ما لديها:

"فى الواقع يا سيد بوارو، أنا لم أمر بأمر مثل هذا من قبل. لقد تم إرسالى من قبل جمعية لارك الطبية لعلاج حالة فى هيرتفوردشاير. كان سيداً عجوزاً يدعى السيد تيمبلتون، كان يمتلك منزلاً لطيفاً وأهله كانوا أيضاً لطفاء، كانت الزوجة السيدة تيمبلتون أصغر فى السن كثيراً من زوجها، وكان لديه ابن من زواج سابق يعيش معه، لم أكن أعلم أن الشاب وزوجة أبيه دائماً ما كانا على غير وفاق. ثم يكن تيمبلتون الصغير شاباً يمكن أن تقول عنه "طبيعى". ووصفهُ بأنه "ضعيف" ليس دقيقاً تماماً ولكن يمكن القول بلا تردد إنه كان ضعيفاً من الناحية العقلية. حسناً. بدا لى مرض السيد

تيمبلتون منذ اللحظة الأولى أمراً غامضاً. فى بعض الأوقات كان يبدو عليه أنه لا يعانى من شىء، وفجأة يصاب بوحدة من تلك النوبات فى معدته فيبدأ فى الصراخ والتقيؤ. إلا أن الطبيب كان يبدو عليه الرضا، ولم تكن من مهامى أن أدلى برأى، لكننى لم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير فى الأمر. وبعد ذلك..." ثم توقفت وقد احمر وجهها.

فقال بوارو مقترحاً: "حدث شىء ما أثار شكوكك؟".

أجابته قائلة: "نعم".

وعلى الرغم من إجابتها فقد بدا أنها لا تزال تجد صعوبة فى الاستمرار.

لكنها فى النهاية قالت: "لقد وجدت الخدم يتبادلون الأقاويل أيضاً".

سألها بوارو من جديد: "حول مرض السيد تيمبلتون؟".

قالت: "أوه. لا! حول ذلك الموضوع الآخر..."

فقال لها: "السيدة تيمبلتون؟".

قالت: "نعم".

فعاد يقول: "سيدة تيمبلتون والطبيب، ربما؟".

كان لدى بوارو قدرة غريبة على تمييز تلك الأمور فنظرت إليه نظرة شكر ثم واصلت حكايتها:

"كان الخدم يتحدثون عن الأمر. وفى يوم ما حدث أن رأيتهما أنا نفسى معاً... فى الحديقة..."

هنا بدا عليها الارتباك، وكان من الواضح أن عميلتنا كانت غير قادرة على أن تكمل كلامها، وبالتالي بدا أنه من اللياقة ألا يشعر أحد بأنه من الضروري أن يسألها عما شاهدته فى الحديقة. ثم ظهر عليها أنها اكتفت بما قالته لكى توضح فكرتها فى هذا الشأن فتابعت قائلة:

"أصبحت النوبات أسوأ وأسىء، فيما كان يقول دكتور تريفيز إنه أمر طبيعى ومتوقع وأنه من غير المحتمل أن يعيش السيد تيمبلتون طويلاً. إلا أننى لم أر شيئاً مثل هذا من قبل فى حياتى وطوال تاريخ عملى فى التمريض. يبدو لى أن ذلك نوع من..."

ثم توقفت مترددة.

فقال بوارو محاولاً مساعدتها: "تسميم بالزرنيخ؟".

هزت رأسها موافقةً على ما قال، وواصلت:

"وبعد ذلك أيضاً. قال - أقصد المريض - شيئاً غريباً (سوف يقتلوننى. أربعتهم.

سوف يفعلون بى ما هو أكثر مما فعلوا بى حتى الآن)".

قال بوارو فى سرعة: "ماذا؟".

قالت الممرضة: "كانت هذه هى نفس الكلمات التى نطقها سيد بوارو. كان وقتها يعانى أشد الألم، وبالطبع لا يمكنه أن يدرك بسهولة ما يقول".

قال بوارو مردداً الكلمات التى قالتها وهو يفكر: "سوف يقتلوننى. أربعتهم. سوف يفعلون بى ما هو أكثر مما فعلوا بى حتى الآن. ما الذى يعنيه بقوله "أربعتهم"؟ هل ترين شيئاً فى هذا التعبير؟".

نفت قائلة: "هذا ما لا يمكننى قوله سيد بوارو، أعتقد أنه ربما كان يقصد زوجته وابنه والطبيب وآنسة كلارك صديقة السيدة تيمبلتون. هذا يجعلهم أربعة، أليس كذلك؟".

قال بوارو فى شرود: "تماماً. تماماً. ماذا عن الطعام؟ ألا تتخذين أية احتياطات بشأنه؟".

قالت: "أنا أفعل أقصى ما أستطيع، لكن بالطبع فى بعض الأحيان تصر السيدة تيمبلتون على أن تحضر طعامه بنفسها، وهذه الأحيان تكون فى أوقات راحتى".

قال بوارو: "بالتأكيد. ألسنت متأكدة تماماً مما لديك لكى تذهبى إلى الشرطة؟".

كشفت ملامح وجه الممرضة عن حجم الرعب الذى اعتراها لمجرد سماعها بالفكرة وقالت:

"ما فعلته سيد بوارو كالآتى: أصابت السيد تيمبلتون نوبة حادة بعدما تناول طبقاً من الحساء. أخذت بعضاً مما تبقى فى قاع الطبق بعد ذلك وأحضرتة معى. أنا اليوم فى إجازة لكى أزور أما مريضة؛ لأن حالة سيد تيمبلتون كانت جيدة بما يسمح بأن أتركه وحده".

وأخرجت زجاجة صغيرة بها سائل داكن وأعطتها إلى بوارو الذى قال:

"ممتاز يا آنستى. سوف نقوم بتحليل هذا السائل فوراً. إذا أردت أن تعودى فأخبرينى حتى نحدد موعداً يمكننا فيه أن نعيد ترتيب شكوكك".

فى البداية أخذ بوارو اسمها ومؤهلاتها، وأراها طريق الخروج، وبعد ذلك كتب ورقة وأرسلها مع الزجاجة لكى يتم تحليلها، وبينما نحن ننتظر نتيجة التحليل أخذ بوارو يسلى نفسه بالتحقق من البيانات التى تركتها الممرضة وهو الأمر الذى أدهشنى إلى حد ما فقال:

"لا، لا، يا صديقى، سأفعل ما بوسعى لكى أكون على حذر، فلا تنس أن الأربعة الكبار يتعقبوننا".

ومع ذلك، فسرعان ما أشار إلى أن الأوراق تؤكد أن الممرضة تدعى مابيل بالمر، وهي أحد أفراد جمعية لارك وقد تم إرسالها للعناية بحالة صعبة.

قال بوارو ووجهه يتألق: "جيد جداً".

والآن جاءت الممرضة بالمر من جديد فى نفس وقت مجيء تقرير تحليل العينة.

سألت الممرضة وقد احتبست أنفاسها: "هل هناك زرنخ فى الحساء؟".

هز بوارو رأسه نافياً وهو يعيد طى التقرير: "لا".

أصابته الدهشة كلا من الممرضة وأنا، بينما كان بوارو يواصل كلامه قائلاً:

"لا يوجد أثر للزرنخ فى العينة. لكن هناك آثاراً لمعدن الأنتيمون، وهكذا تصبح هناك قضية. سوف نتوجه فوراً إلى هيرتفوردشاير وندعو الله ألا يكون قد فات الأوان".

كان القرار هو أن يقدم بوارو نفسه على أنه بالفعل محقق، يهدف من زيارته إلى سؤال سيدة تيمبلتون عن إحدى الخادמות التى حصل بوارو على اسمها من الممرضة بالمر، ويشتبه فى أن تكون تلك الخادمة متورطة فى قضية سرقة مجوهرات.

كان الوقت متأخراً عندما وصلنا إلى المستيد وهو اسم المنزل وتركنا الممرضة بالمر تسبقنا بحوالى 20 دقيقة حتى لا يثير وصولنا معاً شكوكاً من أى نوع.

استقبلتنا سيدة تيمبلتون، وكانت طويلة القامة داكنة البشرة ثعبانية الحركات، ولها عيناان غير مريحتين. وقد لاحظت أنه عندما صرح بوارو بهويته كمحقق أنها زفرت فى استهجان كما لو أن ذلك كان مفاجأة غير سارة بالنسبة لها، إلا أنها أجابت على تساؤلات بوارو حول الخادمة بسرعة كافية. بدأ بوارو يحكى عن قضية تدور حول جريمة قتل بالسم كانت الزوجة هى الفاعلة فيها ولم تغادر عيناها وجهها بينما كان يتكلم، وقد بلغ توترها مبلغاً نجحت معه بصعوبة فى إخفاء قلقها المتزايد حتى إنها غادرت الحجرة فجأة دون أن تنطق بعبارة استئذان واحدة مفهومة.

لم يدم بقاءنا بمفردنا كثيراً، فقد دخل رجل ذو جسد ضخم، له شارب أحمر ويرتدى نظارة صغيرة، وقال معرفاً بنفسه:

"دكتور تريفيز. طلبت منى السيدة تيمبلتون أن أقدم لكما اعتذارها. إنها فى حالة سيئة كما تعلمون. إجهاد عصبى، قلقه بشأن زوجها وبشأن كل ما يحدث حولها. لقد طلبت منها الذهاب إلى النوم ووصفت لها دواء مسكناً. لكنها تطلب منك أن تبقى وتأخذ واجب الضيافة. سأقوم أنا بدور المضيف. لقد سمعنا بك هنا سيد بوارو، وسوف نبذل أقصى جهدنا فى إكرام ضيافتك. آه، ها هو ميكى!".

دخل شاب متناقل الخطوات إلى الغرفة. كان وجهه مستديراً جداً ولديه حاجبان يعطيان انطباعاً بالغباء حيث كانا مرفوعين كما لو كان مندهشاً دائماً. ابتسم ببلاهة

ابتسامة واسعة وهو يصفحنا، كان واضحاً أن هذا هو الابن الضعيف.

بعدها توجهنا جميعاً إلى العشاء. ترك دكتور تريفيز الغرفة ليحضر لنا بعض الشراب كما أعتقد. وفجأة تغيرت ملامح وجه الصبي ومال إلى الأمام محدقاً في بوارو وقال وهو يهز رأسه علامة على الفهم:

"لقد أتيت من أجل والدي. أنا أعرف... أعرف الكثير من الأشياء، ولكن لا أحد يعتقد أنني أعرف. أمي ستكون سعيدة إذا مات والدي لأنها سوف تتمكن من الزواج من دكتور تريفيز، إنها ليست والدي الحقيقية كما تعلم. أنا لا أحبها. إنها تريد لأبي أن يموت".

كان هذا أمراً مربعاً. ولحسن الحظ - وقبل أن يبدأ بوارو في الرد دخل الطبيب واضطربنا إلى أن ننقل الحديث إلى محادثة متكلفة.

وفجأة وضع بوارو ظهره على مقعده وأخذ يطلق أنيناً مكتوماً وقد تغيرت ملامح وجهه من الألم.

صاح الطبيب: "سيدي العزيز، ماذا جرى؟".

قال بوارو: "تقلص مفاجئ. أنا معتاد على مثل تلك النوبات. لا، لا. لا أحتاج إلى أية مساعدة منك. فقط إذا تمكنت من الرقاد على ظهري في الأعلى".

تمت الموافقة فوراً على طلبه واصطحبته إلى الدور العلوى حيث رقد على الفراش وهو يئن من الألم.

للحظة أو اثنتين انخدعت في الأمر، إلا أنني سرعان ما فهمت أن بوارو كان يتظاهر بذلك طبقاً لخطة بالتأكيد وضعها مسبقاً لكي يصعد إلى الدور العلوى، ويكون قريباً من حجرة المريض.

لذلك كنت متأهباً عندما قفز من الفراش بمجرد أن أصبحنا وحدنا. قال بوارو:

"بسرعة يا هاستنجز. النافذة. هناك نبتة لبلاب بالخارج يمكننا أن ننزل منها قبل أن ينتابهم الشك".

سألته: "ننزل؟".

قال بوارو: "نعم. يجب أن نخرج من هذا المنزل بأقصى سرعة. ألم تره أثناء العشاء؟".

سألته من جديد: "الطبيب؟".

لكن بوارو قال: "لا، بل تيمبلتون الصغير. ما كان يفعل بالخبز. ألا تذكر ما أخبرتنا به فلوسى مونرو قبل أن تموت؟ قالت إن كلود داريل كانت لديه عادة تفتيت الخبز على المائدة لكي يأخذ اللباب، هاستنجز. إن هذا الأمر خطة كبيرة وذلك الشاب

صاحب النظرة الخاوية هو عدونا الرئيسى. رقم أربعة. أسرع!"

لم أنتظر لكى نناقش الأمر. كان الأمر صعب التصديق إلى درجة صار معها من الحكمة ألا يتأخر أحد. زحفنا نازلين على اللباب بأقصى ما استطعنا من هدوء، وتوجهنا مباشرة إلى المدينة الصغيرة ومحطة السكك الحديدية. وهناك استطعنا أن نلحق بأخر قطار وهو قطار الثامنة والنصف الذى سيوصلنا إلى لندن فى الحادية عشرة.

قال بوارو وهو يفكر: "خطة، أتساءل كم من الأشخاص اشتركوا فيها؟ أشك فى أن كل عائلة تيمبلتون هم من عملاء الأربعة الكبار. هل كانوا يريدون الإيقاع بنا هناك؟ هل كانوا يريدون أن تستمر المسرحية الكوميديّة ويضمنون انشغالى بها حتى ينتهوا من... من ماذا يا ترى؟ إننى أتساءل الآن".

استمر غارقاً فى أفكاره.

وصلنا إلى منزلنا وهناك عند مدخل غرفة الجلوس أوقفنى وقال:

"احترس يا هاستنجز، لدى شكوكى. دعنى أدخل فى البداية".

دخل فى البداية وشعرتُ ببعض الدهشة عندما احتاط أثناء ضغطه مفتاح الإنارة حيث استخدم فى ذلك حذاء مطاطياً قديماً. ثم دار حول الغرفة مثل قط غريب بحذر، وقد أرهف حواسه وتأهب للخطر. راقبته لبعض الوقت مطيعاً أوامره إذ استمرت واقفاً فى المكان الذى أبقانى فيه بجوار الحائط قبل أن أقول فى نفاذ صبر:

"يبدو كل شيء على ما يرام يا بوارو".

قال بوارو: "يبدو ذلك يا صديقى. يبدو ذلك. لكن دعنى فقط أتأكد".

صحتُ فى ضيق: "بلا طائل. على أية حال سوف أدخن الغليون. لقد أمسكتُ لك خطأ لأول مرة. لقد استخدمتُ علبة الثقاب آخر مرة ولم تعدها إلى مكانها وهو أمر كثيراً ما لمتنى عليه".

مددتُ يدي لكى أخذها فسمعتُ صيحة تحذير من بوارو ورأيتُ يقفز باتجاهى فيما لمستُ أصابعى علبة الثقاب.

بعد ذلك التمع لهب أزرق اللون ودوى صوت يصم الأذان لشيء ما يتحطم ثم حل ظلام دامس.

استعدتُ وعيى ورأيتُ وجه صديقنا القديم دكتور ريدجواى ينحنى فوقى. سرت علامات الارتياح فى وجهه، وقال فى هدوء:

"لا تتحرك. أنت بخير. لقد كانت حادثة".

تساءلتُ فى صوت خفيض: "بوارو؟".

فقال الطبيب: "أنت فى غرفتى. كل شيء بخير".

اعتصر خوف بارد قلبى. لقد أيقظت مراوغته فى الحديث خوفاً رهيباً فى نفسى
فعدتُ أكرر السؤال:

"بوارو؟ ماذا عن بوارو؟".

رأى أننى مُصرٌّ على أن أعلم، وأن أية مراوغات أخرى من جانبه ستكون بلا طائل
فقال:

"بمعجزة نجوتَ أنت. أما بوارو فلم ينج!".

خرجت من بين شفتى صرخة وأنا أقول:

"لم يمت؟ لم يمت؟".

حتى ريدجواى رأسه وقد امتلأ وجهه بالحزن.

وبقوة يائسة استطعتُ أن أجبر نفسى على الجلوس وقلتُ فى ضعف:

"ربما يكون بوارو قد مات. إلا أن روحه لا تزال بيننا. سوف أكمل ما بدأه! الموت
للأربعة الكبار!".

ثم سقطتُ فاقد الوعى.

الفصل السادس عشر

الصينى المحتضر

حتى الآن لا أستطيع الكتابة عن تلك الأيام من شهر مارس إلا بصعوبة بالغة.

بوارو - هيركيول بوارو الفريد الفذ مات - مات! كانت هناك لمسة شيطانية فى مسألة وضع علبة الثقاب فى غير مكانها بصورة كان من المؤكد أنها سوف تلفت نظره، وبالتالي سوف يسرع لكى يعيدها مكانها فيحدث الانفجار. وبطبيعة الحال لم أتوقف للحظة واحدة عن الشعور بالندم الذى لا حدود له، نظراً لأن تهورى كان السبب الرئيسى وراء الكارثة، كان عدم مقتلى فى الحادث - كما قال الدكتور ريدجواى - معجزة حقيقية، حيث خرجت من الحادث فقط بارتجاج خفيف.

وعلى الرغم من أننى شعرتُ أننى استعدت وعيى على الفور، إلا أن الأمر تطلب فى الواقع أكثر من 24 ساعة قبل أن أعود إلى الحياة؛ فلم أستطع أن أمشى مترنحاً فى ضعف إلى حجرة مجاورة إلا فى مساء اليوم التالى على وقوع الحادث، وفى تلك الحجرة استطعت أن أرى النعش المصنوع من خشب الدردار الذى يضم بقايا رجل من أكثر الرجال الذين عرفهم العالم روعة.

ومنذ اللحظة الأولى التى استعدتُ وعيى فيها لم أفكر إلا فى فكرة واحدة، وهى الانتقام لمقتل بوارو والإمساك بالأربعة الكبار.

كنتُ أعتقد أن الدكتور ريدجواى سيكون عقلاً يساعد عقلى فى تحقيق هذا الهدف، إلا أنه لدهشتى وجدته فاطر الحماسة بشكل غير مبرر، وكانت جملة "عد إلى أمريكا الجنوبية" هى النصيحة التى دأب على ترديدها على مسامعى فى كل مناسبة. لماذا تحاول تحقيق المستحيل؟ وبأكثر الأساليب رقة أخبرنى برأيه، وهو أنه إذا كان بوارو - بوارو الفريد - فشل، فماذا عسانى أن أفعل؟

لكننى كنتُ عنيداً. فبعيداً عن مسألة أننى لا أتمتع بالقدرات اللازمة لهذه المهمة (وهو الرأى الذى يمكننى أن أشير إلى أننى لا أتفق معه تماماً) فإننى قد عملتُ مع بوارو لفترة طويلة وعرفتُ خلالها الأساليب التى يتبعها، وبالتالي أصبح لدى شعور بأننى قادر على إتمام المهمة من حيث انتهى فيها بوارو. كان الأمر بالنسبة لى مسألة شعور. لقد قتل صديقى بأسلوب قذر، فهل أعود أنا بكل هدوء إلى أمريكا الجنوبية دون أية محاولة لتقديم قتلته إلى العدالة؟

قلتُ كل ذلك وأكثر إلى ريدجواى الذى استمع إلى بانتباه كاف قبل أن يقول، بعدما أنهيتُ كلامى:

"مع ذلك فإن نصيحتى لم تتغير. أنا مقتنع تماماً أن بوارو نضسه إذا كان هنا فإنه كان سوف يدعوك إلى العودة. باسمه أرجوك يا هاستنجز أن تتخلى عن أفكارك الحماسية وتعود إلى مزرعتك".

أمام هذا الطلب كانت هناك إجابة واحدة متاحة من جانبى، فهز رأسه فى أسف ولم يقل المزيد.

استعدتُ عافيتى بعد ذلك بشهر، وعند نهاية أبريل طلبتُ مقابلة وزير الداخلية، وتمت بالفعل الاستجابة لمطلبى.

كان موقف السيد كراوثر مشابهاً لموقف دكتور ريدجواى، حيث حاول تهدئتى لكنه أعلن رفضه لنوايى. فبينما أعرب عن تقديره لعرضى خدماتى إلا أنه رفض قبولها بأسلوب فى منتهى التهذيب، وحرص فيه على مراعاة شعورى. كانت الأوراق التى أشار إليها بوارو قد وصلتُ وأكدها لي أنه سوف يتم اتخاذ الخطوات اللازمة من أجل التعامل مع ذلك التهديد القادم.

بهذه الطريقة الباردة - فى تهدئة خواطرى وتطيينها كنت مضطراً إلى أن أشعر بالرضا. وأنهى سيد كراوثر المقابلة بأن طلب منى أن أعود إلى أمريكا الجنوبية، وهو الأمر الذى وجدته غير مرضٍ على الإطلاق.

أعتقد أنه حان الوقت أن أصف جنازة بوارو. كانت جنازة مهيبة تثير المشاعر وكان عدد باقات الزهور التى وصلت من المعزين يفوق الخيال. لقد جاءت من مختلف الطبقات، ومثلت دليلاً على المكانة التى تبوأها صديقى فى ذلك المجتمع الذى اختار هو أن يعيش فيه. بالنسبة لى، فقد غلبتني مشاعرى وأنا أقف بجوار المقبرة، وأتذكر كل التجارب المختلفة والأيام السعيدة التى مررنا بها سوياً.

مع بداية مايو كنتُ قد وضعتُ خطة للحملة ضد الأربعة الكبار. رأيتُ أن أفضل شئ يمكن فعله هو الاستمرار فى خطة بوارو بالإعلان عن طلب معلومات عن كلود داريل. وقد نشرتُ إعلاناً بهذا المعنى فى عدد من صحف الصباح، وبينما كنتُ أجلس فى أحد المطاعم فى حى سوهو أدرس تأثير هذا الإعلان إذ قرأت - فى جزء آخر من الصحيفة التى كنتُ أمسك بها - فقرة صدمتني بشدة.

كان الموضوع مختصراً جداً، وقد أشار إلى الاختفاء الغامض للسيد جون إنجلز من الباخرة إس. إس. شنغهاى بعد أن تركت تلك الباخرة مرسيليا بوقت قصير. وعلى الرغم من أن الطقس كان جيداً إلا أن هناك مخاوف من أن يكون السيد جون إنجلز قد سقط من على سطح الباخرة، وانتهت الفقرة بالإشارة إلى عمله الطويل والبارز فى الصين.

كانت الأخبار غير سارة. شعرت أن وراء اختفاء إنجلز دافعاً شريراً، فلم أصدق للحظة واحدة نظرية أن ما جرى كان حادثاً عرضياً. لقد تم اغتيال إنجلز، ومن الواضح أن ذلك الاغتيال تم على يد عصابة الأربعة الكبار الملعونة.

وبينما كنتُ أجلس في مكاني وأنا أشعر بالصدمة وأدير الأمر في رأسي فإنني شعرت بالاندهاش من سلوك الرجل الذي كان يجلس في مواجهتي. لم أكن قد أعطيته الكثير من الاهتمام من قبل. كان نحيفاً ذاكن اللون في أواسط العمر، شاحب البشرة، له لحية صغيرة مدببة. كان جالسا أمامي في هدوء إلى درجة أنني لم ألحظ وصوله.

إلا أن تصرفاته الآن كانت غريبة جداً، وهذا أقل وصف يمكن استخدامه. فقد مال إلى الأمام وقدم لي الملح بأن وضعه على شكل أربعة أكوام حول طبقى، وقال لي في صوت كئيب:

"معذرة. يقولون إنك إذا ساعدت شخصاً غريباً على رش الملح فإن ذلك يعنى أنك تقدم له ما يحزنه. ويقولون إن ذلك أمر لا يمكن تفادى حدوثه، ومع ذلك فاعذرني وأتمنى أن تكون من العقلانيين".

بعد ذلك - وفي أمر ذي دلالة - كرر ما فعله حول طبقه هو. كان الرمز 4 واضحاً جداً إلى درجة لا يمكن تجاهلها. نظرتُ إليه نظرة فاحصة فلم أجد أى تشابه بينه وبين تيمبلتون الصغير أو جيمس الخادم أو أى من الشخصيات التى قابلناها، إلا أنني كنتُ مقتنعاً بأننى يجب أن أتصرف كما لو كنتُ في مواجهة رقم أربعة نفسه. كان في صوته نبرة متشابهة مع صوت الرجل الذي كان يرتدى المعطف مغلق الأزرار الذي قابلناه في باريس.

نظرتُ حولى دون أن أحدد لنفسى خطة عمل، فقال لي مبتسماً وهو يهز رأسه كأنما كان يقرأ أفكارى:

"لا أنصحك بذلك. تذكر ما حدث بسبب تسرعك في باريس، دعنى أؤكد لك أن طريقتى في الانسحاب لا تخيب. أفكارك تبدو غير ناضجة يا كابتن هاستنجز، إذا كان لي أن أقول ذلك".

قلتُ وأنا أختنق من الغضب: "أنت شيطان. أنت شيطان متجسد!".

قال: "منفعل، منفعل تافه. صديقك الراحل كان سيقول لك إن الشخص الهادئ هو الذى يمسك بزمام الأمور".

صرختُ: "هل تجرؤ على أن تتحدث عنه بعدما قتلته بكل قذارة. وتأتى إلى هنا..."

قاطعنى قائلاً: "لقد أتيتُ إلى هنا لكى أقدم لك عرضاً ممتازاً وهادئاً. نصيحة بالعودة فوراً إلى أمريكا الجنوبية. إذا فعلت ذلك فإن فيه نهاية الأمر من وجهة نظر الأربعة الكبار. ولن يتعرض أحد لك ولا لمن يهتمك أمرهم. أعطيك وعدى فى هذا الشأن".

ضحكتُ فى ازدراء وقلتُ:

"وإذا رفضتُ أمرى الاستبدادى؟".

أجاب قائلاً: "من الصعب أن نسميه أمراً. ماذا لو أسميناه... تحذيراً؟".

كان فى لهجته نبرة تهديد باردة، وواصل قائلاً فى نعومة: "إنه التحذير الأول، وأقدم لك نصيحتى ألا تتجاهله".

بعدها وقبل أن ألحظ ما ينوى القيام به، نهض من مكانه وانسل بسرعة ناحية باب المطعم، وفى ثانية نهضتُ من مكانى وأسرعْتُ خلفه، إلا أننى - لحظى السيئ - لم أستطع تجاوز رجل ضخّم جداً حال بينى وبين المنضدة التالية، وبمجرد أن استطعتُ أن أتخلص من ذلك الموقف كان طريدى قد وصل إلى الممر. ثم كانت العقبة الثانية التى واجهتنى، وهى نادل كان يحمل جبلاً من الأطباق اصطدم بى دون سابق إنذار، وبمجرد أن وصلتُ إلى الباب لم يكن هناك أى أثر لذلك الرجل النحيل ذى اللحية الداكنة.

أخذ النادل يعتذر بصورة مثيرة للاشمئزاز فيما كان الرجل البدين جالساً على منضدته بهدوء يطلب غداءه. لم يكن هناك أية دلائل على أن ما جرى من هذين الرجلين لم يكن إلا حادثاً عارضاً، إلا أننى مع ذلك واصلت التمسك برأى فى أن عملاء الأربعة الكبار فى كل مكان.

لا حاجة بى إلى أن أقول إننى لم أعط ذلك التهديد أى اهتمام، وسأفعل ما فى رأسى أو أموت فى سبيل تلك القضية العادلة. لم أتلق إلا ردين فقط على الإعلان، ولم يعطنى أى منهما معلومات مهمة. كان صاحباً الردين اثنين من الممثلين الذين عملوا مع كلود داريل فى وقت ما. لم يكن أى منهما على معرفة قوية به. ولم يلق أى ضوء جديد على مشكلة هويته أو المكان الذى يعيش فيه فى الفترة الحالية.

لم تأت من الأربعة الكبار أى إشارة خلال حوالى 10 أيام بعد يوم المطعم. كنتُ أعبر هايد بارك غارقاً فى أفكارى عندما جاءنى صوت قوى به لكنة أجنبية قائلاً:

"كابتن هاستنجز، أهذا أنت؟".

كان الصوت قادماً من سيارة ليموزين كبيرة توقفت بجوار الرصيف تماماً وظهرت من داخلها امرأة. كانت ترتدى ثياباً سوداء أنيقة ولألى فخمة. عرفتُ فيها السيدة التى عرفناها لأول مرة باسم السيدة فيرا روساكوف وبعد ذلك بأسماء مستعارة مختلفة كأحد أعضاء الأربعة الكبار. لسبب أو لآخر كان بوارو يحمل إعجاباً خفيفاً بتلك السيدة. كان هناك شىء ما فى توهجها يجذب الرجل الضئيل. كانت تساوى ألف امرأة كما كان معتاداً أن يقول فى بعض لحظات حماسه، كانت ضدنا، لكن يبدو أنه لم يؤثر فى حكمه عليها أنها تقف فى جانب أكثر أعدائنا ضراوة.

قالت: "آه. لا تذهب. لدى أمر مهم جداً يجب أن أقوله لك، ولا تحاول أيضاً أن تحتجزنى لأن هذا سيكون عملاً غيبياً، أنت دوماً غيبى صغير. نعم، نعم، أنت كذلك. أنت الآن غيبى فى إصرارك على أن تتجاهل التحذير الذى قدمناه لك. إنه التحذير الثانى الذى أقدمه لك الآن. غادر إنجلترا فى الحال. لا يمكنك أن تفعل شيئاً هنا. أنا أكلمك بصراحة، لن تستطيع أن تنجز أى شىء".

قلتُ فى صرامة:

"طالما كان الحال هكذا فإن إصرارك على أن أغادر إنجلترا يبدو غريباً جداً".

هزت السيدة كتفها - كانت تملك كتفين رائعتين - وتابعت قائلة:

"بالنسبة لى أعتقد أنك فى منتهى الغباء. سأتركك تعبت هنا. إلا أن الكبار كما تعرف يخشون من أن تصدر منك كلمة ربما تكون خدمة عظيمة لأولئك الأكثر ذكاء منك لذلك يجب أن يتم إبعادك".

يبدو أن تلك السيدة كانت لديها فكرة رائعة عن قدراتى. تجاهلتُ ضيقى. بالتأكيد فإن أسلوبها هذا كان يهدف إلى إثارة ضيقى وإشعارى بأننى غير مهم.

واصلت كلامها: "من السهل جداً إزاحتك بالطبع. إلا أننى فى بعض الأحيان أكون عاطفية. لذلك دافعتُ عنك. لديك زوجة لطيفة فى مكان ما، أليس كذلك؟ وسوف يسعد ذلك الراحل المسكين الضئيل ألا تموتَ قتيلاً. تعرف؟ كثيراً ما شعرت بالإعجاب به. كان ماهراً، ماهراً جداً! لولا أن الأمر كان أربعة ضد واحد لقلتُ إن كفته أرجح من كفتنا. أعترف بكل صراحة أننى كنت أعتبره أستاذى! لقد أرسلتُ إكليلا من الزهور إلى جنازته كرمز لإعجابى به. كان إكليلا من الزهور القرمزية، الزهور القرمزية تعبر عن مزاجى وحساسيتى البالغة".

استمعتُ فى صمت وفى نضور متزايد فواصلتُ قائلة:

"أنت تشبه البغل حين يرجع أذنيه إلى الخلف ويرفس. حسناً، لقد وجهتُ لك تحذيرى. وتذكر ذلك، سوف يأتىك التحذير الثالث على يد المدمر...".

وأشارت بيدها ثم ابتعدت السيارة بسرعة. أخذتُ رقم السيارة بصورة آلية دون أمل فى أن يقود ذلك إلى شىء. ليس من عادة الأربعة الكبار أن يهملوا التفاصيل.

ذهبتُ إلى المنزل وقد استيقظت أفكارى قليلاً. حقيقة واحدة فقط ظهرت من طوفان الكلام الذى أغرقتنى به الكونتيسة. على الرغم من أنه ليست لدى أى نية فى أن أتخلى عن الصراع، فإننى يجب أن أتخذ كل الاحتياطات الممكنة.

وبينما كنتُ أراجع كل تلك الحقائق لتحديد أفضل طريق يمكن اتخاذه، دق جرس الهاتف. توجهتُ عبر الغرفة والتقطت السماعة وقلتُ:

"نعم. مرحباً. من يتكلم؟".

جاءنى صوت حازم يقول:

"هذا مستشفى سانت جايلز. لدينا رجل صينى هنا تعرض للطعن بالسكين فى الشارع وتم إحضاره. لا يمكن أن يعيش طويلاً. اتصلنا بك لأننا وجدنا فى جيبه ورقة عليها اسمك وعنوانك".

كنتُ فى غاية الدهشة، ومع ذلك بعد لحظة من التفكير قلتُ إننى قادم على الفور. كان مستشفى سان جايلز على حد علمى عند الميناء، فقلتُ فى نفسى إنه ربما يكون ذلك الرجل الصينى قد جاء على متن إحدى السفن.

بينما كنتُ ذاهباً إذ راودنى فجأة شك فى أمر ما. هل يمكن أن يكون الأمر كله فخاً؟ حيثما كان هناك رجل صينى فإنه ربما توجد أيدي لى تشانج ين. أتذكر مغامرة الفخ المغرى. هل يمكن أن يكون الأمر كله خدعة من جانب أعدائى؟

إلا أننى بقليل من التفكير اقتنعتُ بأن زيارتى إلى المستشفى لن تسبب أى نوع من الضرر، كان من المحتمل ألا يكون الأمر "خطة" بقدر ما يمكن أن يطلق عليه "خدعة" إذا استخدمنا أسلوباً غير مهذب فى الكلام. ربما يكشف لى الصينى المحتضر شيئاً ما يمكن أن يساعدنى على التحرك، أو يؤدى بى إلى أيدي الأربعة الكبار. كان الشئ الوحيد الذى يجب أن أفعله هو أن أتابع الأمر بذهن متيقظ فيما أظهار بالسذاجة.

عند وصولى إلى مستشفى سانت جايلز وتوضيحي أسباب زيارتى أخذت على الفور إلى قسم الحوادث لأقف إلى جوار الرجل محور الحديث. كان يرقد ساكناً بلا حراك، وقد انغلقت عيناه، وكان الدليل الوحيد على بقاءه على قيد الحياة هو حركة ضعيفة من صدره توضح أنه لا يزال يتنفس. كان هناك طبيب يقف بجوار السرير، وقد أخذ يقيس نبض الصينى ثم همس لى قائلاً:

"إنه ميت تقريباً. هل تعرفه؟ أليس كذلك؟".

هزئتُ رأسى نافياً وقلت:

"لم أره من قبل إطلاقاً".

عاد يسألنى: "إذن ماذا كان يفعل باسمك وعنوانك فى جيبه؟ أنت كابتن هاستنجز، أليس كذلك؟".

أجبتة قائلاً: "نعم، لكننى لا أستطيع تفسير الأمر بأكثر مما تستطيع أنت".

قال الطبيب: "أمر غريب. من أوراقه يمكننا أن نعرف أنه كان يعمل خادماً عند رجل يسمى إنجلز؛ موظف مدنى متقاعد". ثم أضاف فى سرعة بعدما لاحظ انتباهى إثر سماعى الاسم: "أه. أنت تعرفه، أليس كذلك؟".

خادم إنجلز! إذن أنا رأيته من قبل. لم أنجح أبداً فى تمييز رجل صينى من آخر. بالتأكد كان مع إنجلز فى طريقه إلى الصين، وبعد الكارثة عاد إلى إنجلترا ومعه رسالة، ربما كانت لى. إنه أمر حيوى وضرورى أن أعرف أمر تلك الرسالة.

سألت الطبيب: "هل هو واع؟ هل يمكنه الحديث؟ لقد كان السيد إنجلز صديقاً قديماً، وأعتقد أنه من المحتمل أن يكون ذلك المسكين يحمل رسالة منه إلى. يعتقد أن السيد إنجلز لقى مصرعه غرقاً بعدما سقط من على متن إحدى السفن قبل عشرة أيام".

أجاب الطبيب: "إنه واع، إلا أنني أشك فى أنه قادر على الحديث. لقد فقد كمية كبيرة من الدماء. من الممكن أن أعطيه منشطاً، إلا أننا فعلنا كل ما يمكننا أن نفعل فى هذا الاتجاه".

ومع ذلك أعطاه حقنة منشطة، ووقفت بجانب السرير وآمالى تتصارع فى الحصول على كلمة أو إشارة يمكن أن تكون ذات فائدة لى فى تحقيق هدفى.

وفجأة خطرت فكرة غير سارة على بالى. أليس من المحتمل أننى أقع فى الفخ الآن؟ ماذا لو كان هذا الصينى قد تظاهر بالقيام بدور خادم إنجلز بينما هو، فى الحقيقة، عميل للأربعة الكبار؟ ألم أقرأ ذات مرة أن الرهبان الصينيين قادرون على تمثيل الموت؟ أو لنذهب بعيداً بعض الشيء، ألا يحتمل أن يكون لدى لى تشانج ين عدد قليل من الأتباع المتعصبين الذين يرحبون بالموت إذا أمرهم به سيدهم؟ يجب أن أحترس إذن.

وبينما كانت الأفكار تعتمل داخل رأسى تحرك الرجل الراقد فى الفراش، وفتح عينيه وغمغم ببعض الكلمات المفككة. ثم رأيت عيناه تتركزان على دون أية إشارة على أنه يعرفنى، إلا أنني لاحظت أنه كان يريد أن يتكلم معى. مهما كان عدواً أم صديقاً فإننى يجب أن أستمع إليه.

ملت على الفراش إلا أنني لم أفهم أى شيء من صوته المتحشرج. أعتقد أنني التقطت كلمة "يد" إلا أنني لا أستطيع أن أعرف فى أى سياق استخدمها. ثم تكرر الأمر ثانية، وفى هذه المرة استطعت سماع كلمة "البطء". حدقت فى ذهول لأن ترتيب الكلمات طرح نفسه على ذهنى فقلت متسائلاً:

"هاندلز لارجو؟".

رمش جفنا الصينى كما لو كان يوافق على ما قلت، وأضاف كلمة إيطالية أخرى وهى "كاروتزا"، بعدها وصلت إلى مسامعى كلمتان أو ثلاث بالإيطالية أيضاً ثم سقط فجأة للخلف.

دفعنى الطبيب جانباً. كان الأمر قد انتهى. لقد مات الصينى.

خرجت فى الهواء الطلق وأنا فى حالة كاملة من الارتباك وتششت الفكر.

"هاندلز لارجو" و"كاروتزا". إذا لم تخنى ذاكرتى فإن "كاروتزا" تعنى عربة نقل

بضائع. ما هو المعنى الممكن أن يكون كامنا وراء تلك الكلمات البسيطة؟ كان الرجل صينياً لا إيطالياً، فلماذا يتكلم بالإيطالية؟ بالتأكيد، إذا هو كان خادماً إنجليزياً فقد كان يجب أن يتكلم الإنجليزية! كان الأمر غامضاً تماماً. أخذتُ أفكر فيه طوال الطريق إلى المنزل. أه لو كان بوارو هنا ليحل ذلك اللغز بعبقريته اللامعة!

فتحتُ الباب ودخلتُ ببطء إلى المنزل. كان هناك خطاب موضوع على المائدة، ففتحتُه بلا اهتمام كافٍ لكن في لحظة تسمرت في مكانى وأنا أقرأ.

كان الخطاب من شركة محامين، وكان فحواه:

"سيدى العزيز.... وفقاً للتعليمات التى أعطاها لنا عميلنا الراحل سيد هيركيول بوارو فإننا أرسلنا لك الخطاب المرفق. هذا الخطاب جاء إلينا قبل أسبوع من الوفاة بتعليمات تقول إنه فى حالة وفاة العميل فإنه يتم إرساله لك فى تاريخ معين منذ الوفاة.

المخلص...."

فتحتُ الرسالة المرفقة، كانت بلا شك من بوارو. أعرف هذا الخط المألوف جيداً. وبقلب ملئ بالحزن، لكن بنفس متحمسة، فتحت الخطاب وكان يقول:

"صديقى العزيز (هكذا بدأ الخطاب)

عندما تتسلم هذا الخطاب سأكون قد توفيت. لا تبك على لكن اتبع أوامرى. بمجرد أن تتسلم هذا الخطاب ارجع إلى أمريكا الجنوبية. لا تكن عنيداً فى هذا الشأن. ليس لأسباب عاطفية أطلب منك هذا الطلب ولكن لأن الأمر ضرورى. إنه جزء من خطة وضعها هيركيول بوارو! بالطبع من له عقل ذكى مثل هاستنجز لن يقول كلمة لأى مخلوق.

ليسقط الأربعة الكبار! أحبيك يا صديقى من وراء القبر.

صديقك للأبد

هيركيول بوارو"

قرأتُ هذا الخطاب المدهش أكثر من مرة. كان الواضح شيئاً واحداً؛ هو أن ذلك الرجل كان مستعداً لكل الاحتمالات، بما يؤدي إلى ألا تتأثر خطته بأى شيء حتى بموته! كان دورى هو الدور الحركى بينما كان هو العقل الذى يوجه الأمر. بلا شك، سأجد تعليمات كاملة لى فيما وراء البحار. وفى نفس الوقت سيتخيل أعدائى أننى أطعتُ أوامره، وبالتالي سيكفون عن شغل بالهم بى سأتمكن من العودة دون أن يرتاب فى أحد وأقوم بتدميرهم وأنا فى وسطهم.

لم يكن هناك ما يعوق رحيلى. أرسلتُ برقية وحجزتُ مكاناً لنفسى وبعد أسبوع كنتُ أحتلُ فى أنسونيا فى طريقى إلى بيونس آيريس.

وبمجرد أن ترك القارب الرصيف أحضر لى أحد الخدم ورقة صغيرة بها بعض الملاحظات، وقال إن من أعطاهها له هو رجل ضخيم الحجم يرتدى معطفاً من الضرو غادر القارب فى اللحظة الأخيرة قبل أن تبدأ الرحلة.

فتحتها. كانت مهذبة ومباشرة وكان مكتوباً عليها:

"أنت حكيم" وفى النهاية توقيع بأربعة كبيرة.

ابتسمتُ فى نفسى!

كان البحر هادئاً، واستمتعتُ بعشاء جيد جعلنى أطلع على كل رفاق السفر وألعب شوتين من البريدج، بعدها عدتُ لأنام كالطفل، فهذه هى عادتى عندما أكون مسافراً بالبحر.

استيقظتُ مشوشاً ومرتبكاً على من يهزنى بإصرار. رأيتُ أحد ضباط السفينة يقف بجوار الفراش، وقد تنهد فى ارتياح عندما رآنى أعتدل جالساً وقال:

"الحمد لله الذى جعلنى أتمكن من إيقاظك أخيراً. لقد شعرتُ بأننى لن أنتهى من ذلك. هل تنام على الدوام بمثل هذه الطريقة؟".

سألتُهُ وأنا ما زلت مشوشاً ولم أستيقظ بصورة كاملة: "ما الأمر؟ هل هناك شىء ما بالسفينة؟".

قال الضابط بلهجة جافة: "حسبتُ أنك تعرف الأمر أفضل منى. لدىّ تعليمات خاصة من البحرية تقول إن هناك سفينة حربية تنتظر لكى تقلّك إلى الشاطئ".

صحتُ: "ماذا؟ فى عرض البحر؟".

قال الضابط: "يبدو الأمر غامضاً، إلا أن ذلك ليس من شأنى، لقد أرسلوا شاباً لكى يحل محلّك. هلا نهضتُ معى وارتديتُ ثيابك؟".

فعلتُ ما طلب منى وأنا لا أستطيع أن أخفى دهشتى التامة من الأمر. تم اقتحام القارب وتم إرسال السفينة الحربية لكى تقلّنى. هكذا قيل لى دون المزيد من المعلومات. تقول تعليمات قائد السفينة إنه سيتم إنزالى فى نقطة ما على الساحل البلجيكى، وهنا تتوقف معلوماته ومسئوليّاته.

كان الأمر كله أشبه بالحلم. كان التفسير الوحيد الذى خطر ببالى هو أن ذلك جزء من خطة بوارو. يجب أن أنفذ الأوامر بطاعة عمياء وثقة.

نزلتُ كالأعمى فى البقعة المحددة من ساحل بلجيكا. كانت هناك سيارة فى

انتظارى، وسرعان ما كنا نسير فى السهول الفلمنكية المنبسطة. نمتُ فى تلك الليلة فى فندق صغير فى بلجيكا. فى اليوم التالى تواصلت رحلتنا أيضا وبدأت الطبيعة تختلف حيث بدأت الأشجار والهضاب تتزايد. لاحظتُ أننا بدأنا نتقدم فى أردينز، وفجأة تذكرتُ أن بوارو قال إن له شقيقا يعيش فى سبا.

إلا أننا لم نذهب إلى سبا نفسها حيث تركنا الطريق الرئيسى وانحرفنا فى طريق ملء بالتلال ذات الأشجار المورقة، حتى وصلنا إلى قرية صغيرة بها فيلا بيضاء معزولة فى مكان مرتفع على جانب أحد التلال. هنا توقفت السيارة عند باب الفيلا الأخضر.

انفتح الباب بينما كنتُ أنزل من السيارة وفتح خادم عجوز انحنى لنا فى تحية وقال بالفرنسية:

"كابتن هاستنجز؟ ننتظر حضورك، هلا تبعتنى؟".

قادنى عبر الردهة ثم فتح باباً فى نهايتها، وتنحى جانباً ليُسمح لى بالدخول. طرفتُ عيناى قليلاً لأن الحجرة كانت تواجه الغرب مما أدى إلى دخول ضوء شمس العصر فيها. بعدها بدأت عيناى تعتادان الرؤية، ورأيت شخصاً ينتظرنى وقد مد ذراعيه لى فى ترحاب.

إنه... أوه... لا مستحيل... لا يمكن أن يكون... لكن نعم!

صحتُ: "بوارو!" ولم أبدل أية محاولة لكى أتجنب احتضانه لى بشدة.

قال بوارو:

"نعم، نعم، إنه أنا حقاً! ليس من السهل أن تقتل هيركيول بوارو!".

قلت فى نفس الدهول: "لكن يا بوارو... لماذا؟".

قال بوارو: "إنها خدعة حرب يا صديقى. خدعة حرب. كل الأمور الآن مهيأة لضربتنا الكبرى".

قلتُ له: "ربما كان يجب أن تخبرنى بالأمر كله".

لكنه قال: "لا يا هاستنجز. لم أكن أستطيع أبداً من الآن وحتى آلاف السنين. هل كنت سوف تستطيع أن تقوم بدورك فى الجنازة كما لو كان طبيعياً؟ لأنه كان دوراً طبيعياً فلن يسمح بتسرب أى نوع من الشك للأربعة الكبار".

عدتُ أقول له: "لكن ما فكرتُ فيه...".

قاطعنى بوارو قائلاً: "لا تحسب أننى بلا شعور. لقد كان أحد أهداف عملية الخداع هو أنت. أنا قادر على أن أخاطر بحياتى، لكننى كنتُ أشعر بتأنيب الضمير لاستمرار

تعريض حياتك للخطر. لذلك بعد الانفجار جاءتنى فكرة على قدر عظيم من التألق، وقد ساعدنى الطبيب ريدجواى فى تنفيذها. أنا ميت وأنت تعود إلى أمريكا اللاتينية. لكن هذا هو ما لم تكن ستفعله، لذلك فى النهاية قمتُ بترتيب حيلة خطاب المحامى الخاص بى وباقى تلك الإجراءات المعقدة الطويلة. ولكن على أية حال ها أنت هنا وهذا هو الشيء العظيم. والآن سوف نستقر هنا دون أن يعرف أحد مكاننا حتى تحين لحظة الضربة الكبرى وتنقلب الأمور فى وجه الأربعة الكبار، ويتلقون الهزيمة النهائية".

الفصل السابع عشر

رقم أربعة ينجح فى خدعة

فى مقرنا الهادئ فى أردينز تابعنا تطورات الشئون العالمية، كانت الجرائد تأتينا بوفرة. وفى كل يوم كان بوارو يتلقى مظلوماً سميماً يضم بالتأكيد تقريراً من نوع ما. لم يخبرنى إطلاقاً بما فى تلك التقارير، إلا أننى كنت أستطيع من سلوكه أن أعرف ما إذا كان محتوى التقرير مرضياً أم غير ذلك، لم يكن لدى بوارو أدنى شك فى أن خطتنا الحالية سوف تتكفل بشيء غير النجاح.

وقال لى ذات يوم: "كأمر رئيسى، كان لدى على الدوام خوف من أن أجذك ميتاً على باب منزلى. وهذا ما أثار أعصابى وجعلنى مثل القط المتحفز. لكن الآن أنا فى منتهى الرضا. فإذا ما اكتشفوا أن كابتن هاستنجز الذى نزل فى أمريكا الجنوبية هو شخص آخر (وهذا ما لا أتوقعه لأنهم لن يرسلوا عميلاً يعرفك شخصياً) فإنهم سوف يعتقدون أنك تحاول أن تبعدهم عنك بطريقة من طرقك الحاذقة، ولن يشغلوا بهم بمحاولة معرفة مكانك. ومن بين الحقائق المهمة أنهم مقتنعون الآن بموتى المزعوم، سوف يواصلون طريقهم ويحاولون تنفيذ خططهم".

سألته فى لهفة: "وبعد ذلك؟".

أجابنى: "وبعد ذلك يا صديقى تكون العودة الكبيرة لـ "هيركيول بوارو"! فى آخر لحظة سوف أظهر وهو ما سوف يلقي بهم فى دوامة من الارتباك وأحقق الانتصار الكبير بطريقتى الفريدة!".

لاحظتُ أن غرور بوارو كان قد ازداد بصورة سوف تجعله قادراً على التصدى لكل الهجمات، ذكرته مرة أو اثنتين بأن مفاتيح اللعبة فى أيدي أعدائنا إلا أننى كنت أعرف أنه من المستحيل أن تقلل من حماس هيركيول بوارو لأساليبه الخاصة.

علق بوارو: "انظر يا هاستنجز. الأمر يشبه الخدعة التى تقوم بها فى لعب الورق. لقد رأيتها بلا شك؟ تأخذ الأولاد الأربعة وتقسمهم؛ واحد فى أعلى مجموعة أوراق اللعب، وواحد بين الأوراق، وهكذا. أنت تقسم الورق وتخلطه فيتداخل الورق من جديد، هذا هو هدفى. فى السابق واجهت أحد الأربعة الكبار والآن أواجه آخر وثالثاً. لكن دعنى أواجههم معاً مثل الأولاد فى الورق، وهنا، وبضربة واحدة، أدمرهم كلهم!".

سألته: "وكيف تخطط لأن تجمعهم كلهم معاً؟".

رد على قائلاً: "بانتظار اللحظة الكبرى. بالانتظار فى الخفاء حتى يكونوا مستعدين للضرب".

غمغمت قائلاً: "ولكن هذا يعنى انتظاراً طويلاً".

علق بوارو قائلاً: "دوما أنت متعجل يا هاستنجز. لكن، لا، لن يكون انتظاراً طويلاً. فالرجل الوحيد الذى يخشونه، وهو أنا، قد ابتعد عن الطريق. سوف أمنحهم شهرين أو ثلاثة على أقصى تقدير قبل الضربة الكبرى".

ذكرتنى كلماته عن الرجل الذى ابتعد عن الطريق بـ "إنجلز" وموته المأساوى، كما تذكرتُ أنني لم أخبر بوارو عن الرجل الصينى المُحتضر فى مستشفى سانت جايلز. فاستمع إلى باهتمام كبير لما قلتُ ثم قال:

"خادم إنجلز، حقاً؟ ونطق بعض الكلمات بالإيطالية؟ غريب".

قلتُ: "هذا ما جعلنى أشك فى أن الأمر خدعة من جانب الأربعة الكبار".

إلا أنه قال: "منطقك خاطئ يا هاستنجز. استخدم الخلايا الرمادية الصغيرة. إذا كان الأربعة الكبار يريدون أن يخدعوك فقد كانوا سوف يجعلون الصينى يتكلم بإنجليزية تشوبها الصينية، لا. كانت الرسالة حقيقية. قل لى مرة أخرى ماذا سمعت".

قلتُ: "فى البداية أشار إلى هاندلز لارجو ثم بعد ذلك أشار إلى ما بدا أنه (كاروتزا)، وهى تعنى عربة النقل بالإيطالية، أليس كذلك؟".

سألنى: "ألم يقل شيئاً آخر؟".

قلتُ: "حسناً. فى النهاية تمتم بشيء ما مثل "كارا" ثم اسم شخص آخر أو تحديداً اسم امرأة وهو زيا. إلا أنني لا أعتقد أن لذلك أى معنى".

لكن بوارو قال: "لا يجب أن تعتقد ذلك يا هاستنجز، إن كارا زيا اسم مهم جداً، مهم جداً بالفعل".

قلتُ معترضاً: "لكننى أرى...".

قاطعنى قائلاً: "صديقى العزيز. أنت لا ترى. وعلى أية حال فإن الإنجليزى دوماً يجهل الجغرافيا".

صحتُ: "جغرافيا؟ وما شأن الجغرافيا بما نتحدث عنه؟".

قال بوارو: "أجرؤ على القول إن السيد توماس كوك كان سيفهم ما أقوله أكثر".

وكالعادة رفض بوارو أن يضيف شيئاً وهو أمر مثير للتوتر، إلا أنني لاحظتُ أن سلوكه بدا أكثر مرحاً كما لو كان قد حقق نقطة إيجابية أو أكثر.

مر اليوم بصورة لطيفة، وإن كان قد شابه بعض الملل. كان فى الضيلا الكثير من

الكتب، بالإضافة إلى الأماكن العديدة التي يمكن التنزه فيها حول المكان، إلا أنني في بعض الأحيان كنتُ أشعر بالغضب بسبب عدم قيامنا بأية نشاطات في القضية، كما كنتُ أتعجب من هدوء بوارو وباله المستريح، إلا أن تلك الحالة لم تدم حتى نهاية يونيو - وهي الفترة التي تتضمنها المهلة التي حددها بوارو - حيث سمعنا خبراً عن الأربعة الكبار.

ف ذات صباح وصلت إلى الفيلا سيارة وهو حدث غير مألوف في حياتنا الهادئة فنزلتُ لكي أشبع فضولي فرأيتُ بوارو يتكلم مع شخص له وجه مشرق في مثل سنى وقدمه إلى قائلاً:

"هذا كابتن هارفى يا هاستنجز، وهو واحد من أكثر رجال المخابرات البريطانية شهرة".

قال الشاب فى أسلوب لطيف: "أخشى ألا أكون مشهوراً".

فعاد بوارو يقول: "كان يجب أن أقول إنك مشهور فى الدوائر المعنية بعملك. كل أصدقاء ومعارف الكابتن هارفى يرون أنه ودود، لكنه غبى ولا يهتم بأى شيء إلا برقصة الثعالب أو أيا كان الاسم الذى يطلق على تلك الرقصة".

ضحكنا جميعاً، ثم قال بوارو بعدها موجهاً كلامه إلى الكابتن هارفى:

"والآن إلى العمل. أنت تعتقد أن الوقت قد حان؟".

فأجابه هارفى: "تماماً، نحن متأكدون من ذلك تماماً، سيدى. لقد عُرِلت الصين سياسياً أمس، ما الذى يحدث؟ لا أحد يعلم. لا توجد أية أخبار من أى نوع سواء كانت بالبرقيات أم غيرها. فقط حالة من انقطاع الأخبار... والهدوء!".

قال بوارو: "لقد ظهرت أيدي لى تشانج ين، فماذا عن الآخرين؟".

قال هارفى: "لقد وصل آيب رايلاند إلى إنجلترا الأسبوع الماضى وغادر إلى إيطاليا أمس".

عاد بوارو يسأل: "والسيدة أوليفيه؟".

أجابه هارفى: "السيدة أوليفيه غادرت باريس ليلة أمس".

سأله بوارو: "إلى إيطاليا؟".

فقال هارفى: "نعم سيدى، إلى إيطاليا. وحتى الآن فإننا يمكننا أن نقول إنهما قد توجهتا إلى المنتجع الذى أشرتُ إليه. كيف عرفت بهذا الأمر...".

فقال بوارو: "هذا ليس من مجهودى! إنه من عمل هاستنجز. لقد استخدم ذكاه على الرغم من أن الأمر كان عميقاً جداً".

نظر إلى هارفى بكثير من التقدير بينما انتابنى شعور بعدم الراحة، فيما تابع بوارو قائلاً وقد امتنع وجهه قليلاً وبدأ عليه إمارات الجدية:

"لقد سارت الأمور إلى وجهتها إذن، لقد حان الوقت، هل كل الترتيبات جاهزة؟".

أجابه هارفى: "لقد تم تنفيذ كل ما طلبته، إن حكومات إيطاليا وفرنسا وإنجلترا خلفك، وكلها تعمل فى تناغم معاً".

قال بوارو معلقاً: "إنه تحالف دولى جديد. أنا سعيد لأن ديجارو اقتنع بالأمر فى النهاية، حسناً. والآن سوف نبدأ، أو بالأحرى أنا سوف أبدأ. سوف تبقى أنت هنا يا هاستنجز. أرجوك بكل صدق. أنا جاد فيما أقول يا صديقى".

كنتُ أصدقه إلا أننى لم يكن من الممكن أن أوافق على أن يتركانى بهذه الطريقة، كانت مناقشتنا قصيرة لكنها قاطعة.

بعد ذلك أخذنا القطار متوجهين إلى باريس، وقد اعترف بوارو لى أنه فى قرارة نفسه يشعر بالسعادة لقرارى وقال:

"إن لك دوراً فى الخطة يا هاستنجز، دوراً مهماً. فبدونك ربما أفضل، لكننى شعرتُ أنه من واجبى أن أطلب منك البقاء بعيداً...".

سألتُهُ: "هناك خطر إذن؟".

قال: "صديقى، حيثما كان الأربعة الكبار فإن الخطر دائماً هناك".

عند وصولنا إلى باريس أخذنا سيارة إلى جار دى ليست، وفى النهاية صرَحَ بوارو بوجهتنا، كنا ذاهبين إلى بولتزانو وجبال التيرول فى إيطاليا.

وفى غفلة من هارفى سألتُ بوارو عن السبب الذى دعاه إلى أن يقول لـ "هارفى" إننى أنا من اكتشف أن هناك موعداً.

أجابنى قائلاً: "لأن هذا هو ما جرى بالفعل يا صديقى. لستُ أدري كيف توصل إنجلز إلى تلك المعلومة، إلا أنه فعل ذلك، وقد أرسلها إلينا عن طريق خادمه. نحن الآن يا صديقى متجهون إلى كاريرسى، وهو الاسم الجديد لبحيرة كاريتزا. هل رأيت إلى أين قادتنا كلمة (كارا زيا) التى قلتها؟ وكذلك كلمتا (كاروتزا) و(لارجو)؟ إن كلمة (هاندل) كانت من وحي خيالك. ربما يكون الخادم كان يريد أن يقول إن هذا الأمر جاء من أيدي سيد إنجلز وهو الأمر الذى أوجد فى عقلك ذلك الارتباط".

تساءلتُ: "كاريرسى؟ لم أسمع بهذا الاسم من قبل".

قال بوارو: "كثيراً ما قلتُ لك إن الإنجليزى لا يعرف شيئاً عن الجغرافيا. إلا أنها فى الواقع منتجع صيفى شهير جداً، وفى غاية الجمال ويقع على ارتفاع 4 آلاف قدم فى قلب منطقة الدولوميت".

عدتُ أتساءل: "وفى هذه البقعة البعيدة عن الشكوك سوف يلتقى الأربعة الكبار؟".

فقال بوارو: "ومن المحتمل أن يكون المكان مقر قيادتهم، إن الإشارة واضحة، كما أنهم يريدون أن يختفوا عن أنظار العالم ويلقوا أوامرهم من خلف تلك الجبال البعيدة، لقد أجريت بعض التحريات، فوجدت أن هناك الكثير من المناجم وأنشطة التعدين تجرى هناك، وتقوم بها شركة إيطالية يديرها فى الحقيقة آيب رايلاند، وأكاد أقسم أنه تم إعداد مأوى فى قلب الجبل، مأوى سرى لا يمكن الوصول إليه. ومن هناك سوف يوجه قادة المنظمة أوامرهم بالبرقيات إلى أتباعهم الذين يقدرّون بالآلاف فى مختلف أنحاء العالم. ومن صخور الدولوميت سوف يظهر ديكتاتوريو العالم، أو لنقل إنهم كانوا سوف يظهرون لولا وجود هيركيول بوارو".

سألتُه: "هل أنت مؤمن بكل ذلك بالفعل يا بوارو؟ ماذا عن جيوش وآلة الحضارة؟".

قال بوارو: "وماذا كان عنها فى روسيا يا صديقى؟ سوف يصبح العالم تكراراً للنموذج الروسى على نطاق أوسع، مضافاً إليه التهديد الجديد المتمثل فى التقدم الذى حققته السيدة أوليفيه فى تجاربها، وهو التقدم الذى يفوق أى مستوى أعلنت عنه. أعتقد أنها - إلى حد ما - قد نجحت فى تحرير الطاقة الذرية وإخضاعها لأغراضها. كانت تجاربها الخاصة بنيتروجين الهواء جديرة بالملاحظة. كما أنها أجرت تجارب على تكثيف الطاقة اللاسلكية بحيث يمكن تركيز حزمة من تلك الطاقة بقوة معينة على بقعة بعينها. لا أحد يعرف تحديداً مقدار التقدم الذى تحقق، إلا أنه من المؤكد أنه أكبر مما سبق الإعلان عنه، إنها عبقرية تلك المرأة. إن آل كورى لا شىء بالنسبة لها. ضع عبقريتها بجوار النفوذ الذى تمنحه ثروة آيب رايلاند التى لا حدود لها، إلى جانب عقل لى تشانج ين صاحب أفضل عقل إجرامى عرفته، وهو العقل الذى يقوم بالتوجيه والتخطيط. وبعد ذلك تقول إن الأمر لا يشكل خطراً على الحضارة".

جعلتنى كلماته أغرق فى التفكير، وعلى الرغم من أن بوارو أحياناً ما يلجأ إلى المبالغة فى الألفاظ، فإنه لم يكن يحب إثارة المخاوف، أما الآن فإننى لأول مرة ألاحظ الصراع الفظيع الذى سوف نقتحمه.

بعد ذلك بقليل انضم إلينا هارفى وواصلنا الرحلة.

وصلنا إلى بولتزانو فى منتصف النهار تقريباً، ومن هناك تابعنا رحلتنا بالسيارة. كانت هناك العديد من السيارات الزرقاء الكبيرة تنتظر فى ساحة المدينة وقد دخلنا نحن الثلاثة فى واحدة منها. وكان بوارو متخفياً عن الأنظار بمعطف كبير ووشاح وهو ما لم يكن يتفق مع حرارة الطقس فى ذلك اليوم. كانت عيناه وطرفا أذنيه هى الأجزاء الوحيدة التى يمكن رؤيتها منه.

ولم أدر ما إذا كان ذلك راجعاً إلى خوف مبالغ فيه من الإصابة بالبرد أم لا، وقد استمرت رحلتنا بالسيارة لساعتين. كانت رحلة ممتعة، وفى أول جزء من الطريق أخذنا

نلف وندور بين المنحدرات الشاهقة، فيما كان على أحد الجوانب مسقط مائى بسيط. ثم دخلنا بعد ذلك فى وادٍ خصب امتد لبضعة أميال، ثم بعد ذلك - بينما نحن مستمرّون فى الصعود - بدأت قمم الصخور فى الظهور وقد امتلأت بتجمعات من أشجار الصنوبر. كان المكان كله هادئاً وفاتناً. بعد ذلك جاءت سلسلة من الانحناءات سارت فيها السيارة، فيما كان الطريق نفسه لا يزال يخترق أشجار الصنوبر على الجانبين. وأخيراً وصلنا فجأة إلى فندق كبير، اكتشفنا عنده أننا قد وصلنا إلى وجهتنا.

كانت هناك حجرات محجوزة لنا، وبإرشاد من هارفى توجهنا إليها. كانت تلك الحجرات تطل مباشرة على القمم الصخرية والانحناءات الصنوبرية التى تقود إليها مال بوارو ناحيتها وقال فى صوت خفيض:

"هل هى هناك؟".

أجابه هارفى قائلاً: "نعم. هناك مكان يطلق عليه متاهة "فيلسين" حيث تجمعت العديد من الجلاميد الصخرية بصورة مذهلة بينما يخترقها طريق، وهناك محجر على يمين ذلك المكان، إلا أننا نعتقد أنه من المحتمل أن يكون المدخل فى المتاهة".

هز بوارو رأسه موافقاً وقال:

"تعال يا صديقى نجلس فى الحديقة ونستمتع بالشمس الساطعة".

سألتُهُ: "هل تعتقد أن ذلك سيكون من الحكمة؟".

هز كتفيه دون تعليق.

كانت الشمس رائعة... فى الواقع كان لمعانها يفوق قدراتى على التعبير. شربنا بعض القهوة باللبن بدلاً من الشاي، وذهبنا بعد ذلك إلى حجرتنا وأخرجنا أمتعتنا القليلة. كان بوارو فى حالة مزاجية غريبة، حيث كان غارقاً فى أحلام اليقظة، ولمرة أو مرتين هز رأسه ثم أطلق زفرة.

كنتُ أشعر بالريبة تجاه رجل كان يستقل القطار المتجه إلى بولتزانو معنا، ثم غادره واستقل سيارة خاصة كانت تنتظره. كان رجلاً ضئيلاً، وكان الشيء الذى جذب انتباهى إليه هو أنه كان متخفياً فى ثيابه بنفس الطريقة التى كان يتخفى بها بوارو. وكان هناك ما هو أكثر من ذلك، حيث كان يرتدى نظارة زرقاء كبيرة إلى جانب المعطف والوشاح. كنتُ مقتنعاً أن هذا الرجل جاسوس للأربعة الكبار. لم يبدُ على بوارو أى رد فعل تجاه فكرتى، إلا أنه بينما كان بوارو يطل من النافذة فقد أوضحتُ له أن ذلك الرجل كان يتنزه بالقرب من الفندق، وقد اعترف بوارو أنه ربما كان هناك شيء ما فى هذا الأمر.

رجوتُ صديقى ألا ينزل لكى يتناول العشاء، إلا أنه أصرَّ على ذلك، دخلنا حجرة الطعام متأخرين، وأجلسنا النادل على مائدة بالقرب من النافذة، وبينما نحن جالسين إذ

سمعنا صيحات اندهاش وصوت قطعة من الخزف الصيني تتحطم؛ فقد سقط طبق من الفاصوليا على الرجل الجالس إلى المائدة التي تجاور مائدتنا. ثم جاء كبير الخدم وأخذ لسانه يلهج بالاعتذار.

فيما بعد جاء النادل الذي تسبب فى الحادثة إلى مائدتنا ليضع أطباق الحساء فتحدث معه بوارو قائلاً:

"حادثة سيئة، إلا أن الأمر لم يكن خطأك".

قال النادل: "هل رأى سيدى ما جرى؟ لم يكن خطئى. لقد قام السيد فجأة من مكانه، وقد اعتقدت أنه ينوى القيام بهجوم ما ثم لم أستطع منع الكارثة".

رأيتُ عينا بوارو تلتمعان بذلك البريق الأخضر الذى أعرفه جيداً، وعندما غادرنا النادل، قال لى بوارو فى صوت خفيض:

"هل رأيت يا هاستنجز تأثير عودة بوارو حياً؟".

قلتُ: "هل تعتقد...".

لم أجد أى وقت للاستمرار إذ شعرتُ بيد بوارو على ركبتى وسمعتُهُ يقول فى انفعال:

"انظر يا هاستنجز. انظر. إنها حركته الخاصة بالعبث فى الخبز! إنه رقم أربعة".

كان الأمر أكيداً، فقد كان الرجل الذى يجلس على المائدة المجاورة للمائدة التى نجلس عليها - وقد اكتسى وجهه بشحوب غير طبيعى - يعبث فى بعض قطع الخبز الصغيرة بصورة آلية.

درستُ ملامحه جيداً. كان وجهه حليقاً وممتلئاً قليلاً. كان شاحباً جداً... شاحباً بصورة تدل على المرض، وقد تجعد جلده أسفل عينيه، فيما جرت خطوط عميقة من أنفه وحتى جانبيه فمه، كان عمره يتراوح ما بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين. ولم يكن يشبه فى شيء أية شخصية من الشخصيات التى تنكر فيها رقم أربعة فى السابق، وبالتأكيد لولا حركته اللاإرادية التى يقوم بها مع الخبز والتى لا يشعر هو نفسه بأنه يقوم بها لكنتُ على استعداد لأن أقسم على أننى لم أر ذلك الرجل من قبل.

غمغمتُ قائلاً: "لقد رآك. ما كان ينبغى أن تهبط للأسفل".

قال بوارو: "هاستنجز يا صديقى الممتاز، لقد ادعيتُ الموت لثلاثة أشهر من أجل ذلك الغرض".

سألتُهُ: "كى تشير دهشة رقم أربعة؟".

لكن بوارو أجاب قائلاً: "أن أثير دهشته فى وقت ينبغى عليه فيه إما أن يتحرك بسرعة أو لا يتحرك على الإطلاق. ونحن لدينا هذه الميزة العظيمة، إنه يعتقد أنه آمن فى تنكره الجديد، إننى أترحم على روح فلوسى مونرو عندما أتذكر أنها أخبرتنا بهذه الحركة".

عدتُ أسأل بوارو: "ما الذى سوف يجرى الآن؟".

قال بوارو: "ما الذى يمكنه أن يحدث؟ لقد تعرف على الرجل الوحيد الذى يخشاه، والذى عاد بمعجزة من عالم الأموات، وفى اللحظة التى لم تتقرر بعد فيها خطط الأربعة الكبار. السيدة أوليفيه وآيب رايلاند تناولوا طعام الغداء هنا اليوم ومن المعتقد أنهما توجهتا إلى كورتينا. كل ما نعرفه هو أنهما تراجعا إلى مخبئهما. ما مدى ما نعرفه؟ هذا هو السؤال الذى يطرحه رقم أربعة على نفسه الآن. إنه لا يجرؤ على القيام بأية مخاطرات. يجب أن يتم إسكاتى بأى ثمن. حسناً. دعه يحاول أن يخمد صوت هيركيول بوارو! سأكون مستعداً له".

وبينما كان بوارو ينهى كلامه، نهض الرجل الذى كان جالساً على المائدة المجاورة وغادر المكان فقال بوارو فى رباطة جأش:

"لقد ذهب لكى يقوم بترتيباته الصغيرة. هل يمكننا أن نأخذ قهوتنا فى الحديقة يا صديقى؟ سيكون الأمر أفضل، أعتقد أنه من المناسب أن أصعد إلى حجرتى وآتى بمعطف".

ذهبتُ إلى الحديقة وعقلى مرتبك قليلاً. لم تنجح تطمينات بوارو فى تهدئتى، إلا أنه طالما التزمنا الحذر فلا شيء يمكنه أن يحدث لنا. لقد قررت أن أبقى على حذر بصورة كاملة.

بعد ذلك بحوالى خمس دقائق جاء بوارو وقد اتخذ احتياطاته المعتادة ضد البرد. كان مغطى بالثياب حتى أذنيه، جلس بجانبى وأخذ يحتسى قدح القهوة فى تلهذ وقال:

"فقط فى إنجلترا تكون القهوة فى منتهى البشاعة. أما فى باقى أوروبا فهم يفهمون أهمية القهوة لعملية الهضم، لذلك يقومون بإعدادها بصورة جيدة".

وبمجرد أن انتهى من كلامه ظهر الرجل الذى كان جالساً على المائدة المجاورة فى الحديقة، وبدون أى تردد توجه إلى مائدتنا وجذب مقعداً وجلس، قائلاً بالإنجليزية:

"أتعشم ألا تكونا قد تضايقتما من مشاركتى لكما المائدة".

قال بوارو: "على الإطلاق سيدى".

انتابنى شعور بعدم الراحة، حقيقة كنا فى حديقة الفندق والناس من حولنا، إلا أننى مع ذلك لم أشعر بالرضا، بل شعرتُ بحضور الخطر.

بينما كان رقم أربعة يثرثر بصورة طبيعية بدا أنه من المستحيل أن يعتقد المرء أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون إلا سائحاً حقيقياً. لقد وصف الرحلات منخفضة السعر والرحلات بالسيارة، وبدا مرجعاً حقيقياً للمناطق السياحية المجاورة.

أخذ غليوناً من ثيابه وبدأ فى إشعائه وأخرج بوارو علبة سجائره الصغيرة وبعدما وضع بوارو سيجارة بين شفتيه مال عليه الغريب وقد حمل عود ثقاب، قائلاً:
"دعنى أشعل لك".

وبينما كان يتكلم إذ انطفأت كل الأنوار دون أدنى تحذير، وكان هناك صوت كسر شىء زجاجى، وشعرت بشىء ما حاد الرائحة أسفل أنفى يخنقنى...

الفصل الثامن عشر

فى متاهة فيلسين

لا ريب أننى لم أفقد وعيى إلا لدقيقة، لذا فإننى عدتُ إلى وعيى لأجد نفسى بين رجلين يدفعاننى بخشونة، وقد أمسكاني كل من ذراع، بينما كانت هناك كمامة تغطى فمى، وكان الظلام حالكاً، إلا أننى استطعتُ إدراك أننا لسنا فى الخارج لكننا نمر عبر الفندق. وفى كل مكان حولى كان الكل يتساءل بكل اللغات المعروفة عما جرى للأضواء، أنزلنى من يحملاننى بعض السلالم ثم مررنا فى سرداب تحت الأرض ثم عبرنا أحد الأبواب وبعدها خرجنا مرة أخرى خارج الفندق عبر باب زجاجى فى نهايته. وفى لحظة كنا قد تواريها وسط أشجار الصنوبر.

استطعتُ أن ألمح شخصاً آخر فى نفس وضعى، وميزتُ فيه بوارو الذى كان ضحية أيضاً لتلك الضربة الجريئة.

لقد استخدم كما أعتقد مخدراً سريعاً ربما يكون كلوريد الإيثيل، حيث كسر زجاجة منه أسفل أنفينا. بعد ذلك تم استغلال الارتباك الذى أحدثه انقطاع التيار الكهربائى حيث اندفع شركائوه - الذين ربما كانوا جالسين على مائدة مجاورة - ووضعوا الكمادات فوق فمينا، ثم أسرعوا هاربين بنا من الفندق بتلك الطريقة المحيرة.

لا أستطيع أن أصف الساعة التى تلت ذلك. سرنا وسط الأشجار بطريقة متعبّة وكنا نصعد التل طيلة الوقت. وفى النهاية وصلنا إلى مكان مفتوح فى جانب الجبل ثم شاهدتُ تجمعاً مذهلاً من الصخور والجلاميد.

لا بد أن هذه هى متاهة فيلسين التى تحدث عنها هارفى، وسرعان ما كنا نسير فى منحنياتنا. كان المكان كما لو أنه متاهة من صنع جنى شرير.

فجأة توقفنا حيث اعترضت طريقنا كتلة ضخمة من الصخور، فتوقف أحد الرجال وبدأ كأنه قد ضغط على شىء ما، وبدون صوت تحركت الكتلة حول نفسها وكشفت عن فتحة - تشبه نفقاً صغيراً - كانت تقود إلى داخل الجبل.

سرنا بسرعة فى ذلك النفق الذى كان فى بعض الأوقات ضيقاً بينما كان يتسع فى أوقات أخرى، وبعد مسيرة طويلة وصلنا إلى غرفة صخرية واسعة مضاءة بالكهرباء، وهنا نزعنا الكماتان بإشارة من يد رقم أربعة، الذى وقف فى مواجهتنا وقد لاحظت على

وجهه ملامح الانتصار والسخرية فيما كان يتم تفتيشنا حيث تم أخذ كل ما كان فى جيوبنا حتى مسدس بوارو الآلى الصغير.

أفزعنى الصوت الذى أحدثه إلقاء المسدس على المائدة، كنا مهزومين... مهزومين بلا أمل وكانوا يفوقونا عددا. كانت النهاية.

قال رقم أربعة فى لهجة ساخرة: "مرحباً بك فى مقر قيادة الأربعة الكبار يا سيد هيركيول بوارو. إنه أمر مبهج غير متوقع أن ألقاك من جديد، لكن أكان هذا الأمر يستحق أن ترجع إليه من القبر؟".

لم يردّ بوارو ولم أجرؤ على النظر إليه، فواصل رقم أربعة كلامه قائلاً:

"والآن، والأمر كذلك، فإن وصولك سوف يكون مفاجأة من نوع ما لزملائى". ثم أشار إلى باب ضيق فى الحائط فعبرنا من خلاله ووجدنا أنفسنا فى حجرة أخرى. وفى نهايتها كانت هناك منضدة وقد أحاطت بها أربعة مقاعد، كان المقعد الأخير فارغاً، إلا أنه كان عليه رداء السادة الصينيين، وفى الثانى جلس السيد آيب رايلاند يدخل سيجاراً، وفى المقعد الثالث جلست السيدة أوليفيه وقد مالت إلى الخلف بعينيها اللامعتين ووجهها الشبيه بوجه الراهبات، واحتل رقم أربعة المقعد الرابع.

كنا فى حضرة الأربعة الكبار.

لم أشعر من قبل بأن وجود الصينى لى تشانج ين هو أمر حقيقى مثلما شعرتُ فى تلك اللحظة وأنا أواجه مقعده الخالى، فعلى الرغم من وجوده بعيداً فى الصين إلا أنه كان يتحكم فى تلك المنظمة الشريرة ويوجهها.

أطلقت السيدة أوليفيه صيحة خافتة عندما رأتنا، بينما اكتفى رايلاند - وهو أكثر الجميع تحكماً فى أعصابه - بتحريك سيجاره ورفع حاجبيه الكثين ثم قال فى ببطء:

"سيد هيركيول بوارو، إنها مفاجأة سارة. لقد نجحت فى خداعنا تماماً. كنا نعتقد أنك الآن فى حالة جيدة فى مدفك، ولكن لا مشكلة فقد انتهت اللعبة الآن".

كانت هناك رنة معدنية فى صوته، أما السيدة أوليفيه فلم تقل شيئاً، وإن اشتعلت عيناها ولم تعجبني الطريقة التى ابتسمت بها ببطء.

هنا قال بوارو فى هدوء: "سيدتى وسادتى، أتمنى لكم أمسية سعيدة".

كان هناك شىء غير متوقع فى صوته... شىء لم أتوقع سماعه جعلنى أنظر إليه. كان متمالكا لنفسه تماماً بينما كان هناك شىء ما مختلف بشأن مظهره.

بعد ذلك اهتزت الستائر التى كانت خلفنا ثم دخلت السيدة فيرا روساكوف فقال رقم أربعة:

"آه! ها هى قائدتنا الأمينة القديرة. هناك صديق قديم لك هنا سيدتى العزيزة".

دارت السيدة روساكوف بحركتها السريعة العنيفة وصاحت: "يا إله السماوات! أهو ذلك الرجل الضئيل! آه! إن له سبعة أرواح مثل القطط. أوه أيها الرجل الضئيل! أيها الرجل الضئيل! لماذا ورطت نفسك فى مثل هذا الأمر؟".

انحنى بوارو وقال: "سيدتى، أنا مثل نابليون؛ أقف فى جانب المعارك الكبرى". بينما كان يتكلم شعرتُ بالشك يلتصق فى عينيها، وفى نفس تلك اللحظة أدركتُ الحقيقة التى أحسستها بلا وعى.

إن الرجل الذى يقف بجوارى ليس هيركيول بوارو.

كان يشبهه. يشبهه إلى أقصى حد. كان له نفس الرأس الشبيه بالبيضة ونفس المشية المتبخثرة والجسد الممتلئ قليلاً. إلا أن الصوت كان مختلفاً فيما كانت العينان سوداوين بدلاً من أن تكونا خضراوين، وبالتأكيد الشارب... الشارب الشهير؟

قطع صوت السيدة روساكوف حبل أفكارى، حيث واصلت الكلام بصوت ملء بالانفعال:

"لقد خُدعتم. إن هذا الرجل ليس هيركيول بوارو!".

تمتم رقم أربعة بعبارة تعجب، إلا أن السيدة روساكوف انحنت للأمام وجذبت شارب بوارو فخرج فى يدها، وهنا أصبحت الحقيقة واضحة. كانت شفة الرجل العليا مشوهة بجرح، الأمر الذى أدى إلى تغير تعبيرات الوجه تماماً.

غمغم رقم أربعة قائلاً: "ليس هيركيول بوارو. لكن من يكون إذن؟".

صحتُ فجأة قائلاً: "أنا أعرف"، ثم توقفتُ وقد خشيتُ أن أدمر كل شىء.

إلا أن الرجل الذى كنتُ سأستمر فى الإشارة إليه على أنه بوارو نظر إلىّ مشجعاً وقال:

"قل إذا كنتَ تريد أن تقول، لن يصنع ذلك فارقاً الآن فقد نجحت الخدعة".

فقلتُ: "هذا آخيل بوارو شقيق هيركيول بوارو التوأم".

قال رايلاند بحدة ولكن فى اهتزاز ثقة: "مستحيل".

فقال آخيل بكل برود: "لقد نجحتُ خطة هيركيول إلى حد مذهل".

قفز رقم أربعة إلى الأمام وقال فى لهجة غليظة منذرة:

"نجحت؟ ألا تلاحظ أنه قبل أن تمر عدة دقائق سوف تكون ميتاً؟ ميتاً؟".

قال آخيل فى صرامة: "نعم، ألاحظ ذلك. إنه أنت الذى لم يلاحظ أن الرجل قد يكون قادراً على شراء نجاحه بدفع حياته ثمناً له، لقد قدم الكثير من الرجال أرواحهم من أجل

الوطن فى الحرب وأنا على استعداد لأقدم روحى مثلهم فى سبيل العالم".

خطر ببالى وقتها أنه على الرغم من أننى كنتُ مستعداً لبذل حياتى، إلا أنه كان يجب أن تتم استشارتى فى الأمر، ثم تذكرتُ بعد ذلك أن بوارو رجانى أن أبتعد عن الأمر فهدأت نفسى.

وفى تهكم سأله رايلاند: "وبأية وسيلة سوف تضحى بحياتك من أجل العالم؟".

أجابه آخيل: "أعتقد أنك لا تدرك مضمون خطة هيركيول، كبداية فإن مكان اختفائكم معروف منذ بضعة أشهر، وفى الواقع فإن كل الزائرين والموظفين والنزلاء والرجال الآخرين هم من رجال المخابرات، كما تم فرض طوق أمنى حول الجبل. ربما كان لديكم أكثر من مخرج إلا أنكم مع ذلك لن تستطيعوا الهرب، بوارو بنفسه يقود العملية فى الخارج، لقد تم تلويث حذائى بمستحضر من بذر اليانسون الليلة الماضية قبل أن أنزل إلى الحديقة وأحل محل أخى. والآن فإن كلاب الصيد تتبع الأثر وسوف تقودهم دون أدنى خطأ إلى الصخور فى متاهة فيلسين حيث يقع المدخل، والأمر كما ترونه الآن، لذلك افعلوا ما تريدون بنا. لقد ضاقت الشبكة حولكم ولن تستطيعوا الفرار".

ضحكت السيدة أوليفيه فجأة وقالت:

"أنت مخطئ. هناك طريقة واحدة يمكن الهروب من خلالها. ومثل شمشون، فسوف نهدم المكان على رءوس أعدائنا فى نفس الوقت. ماذا تقولان الآن يا صديقى؟".

كان آيب رايلاند يحدق إلى آخيل بوارو، ثم قال فى صوت أجش:

"وماذا لو كان يكذب؟".

فهز آخيل كتفيه وقال: "بعد ساعة واحدة سوف يحل الضجر وهنا يمكنك أن تختبر بنفسك مصداقية كلماتى، لقد تعقبوا أثرى بالفعل إلى مدخل المتاهة".

وفيما كان يتكلم سُمِعَ دوى أصوات من بعيد ورجل يجرى صارخاً بكلمات غير مفهومة، فقفز رايلاند من مكانه وخرج فيما اتجهت السيدة أوليفيه إلى نهاية الحجرة وفتحت باباً لم ألاحظه من قبل. وفى الداخل لمحت معملاً مجهزاً بكل الإمكانيات ذكرنى بالمعمل الذى رأيته فى باريس، وكان رقم أربعة قد انتفض أيضاً وخرج، ثم عاد وقد حمل مسدس بوارو وأعطاه إلى السيدة روساكوف قائلاً لها فى حنق:

"لا يوجد خطر من هروبهما، لكن من الأفضل أن يكون معك هذا".

ثم غادر المكان من جديد.

تقدمت السيدة روساكوف باتجاهنا وأخذت تنظر فى تمعن إلى رفيقى ثم ضحكت وقالت فى سخرية:

"أنت بارع جداً سيد آخيل بوارو".

لكنه قال لها:

"سيدتى، دعينا نتكلم بلغة الأعمال، فمن حسن الحظ أنهم تركونا وحدنا معاً، ما هو ثمنك؟".

قالت: "لا أفهم، أى ثمن؟".

قال: "سيدتى. يمكنك أن تساعدنا على الهرب. أنت تعرفين الطرق السرية فى المكان، أنا أسألك: ما هو ثمنك؟".

ضحكت من جديد وقالت:

"أكثر مما يمكنك أن تدفعه أيها الرجل الصغير! لا يمكن لأموال الدنيا أن تشترينى!".

عاد آخيل بوارو يقول: "سيدتى، أنا رجل ذكى. ومع ذلك فإن ذلك حقيقة واقعة؛ لكل شخص ثمنه! فى مقابل حياتنا وحریتنا سوف أحقق لك رغبات قلبك".

قالت ساخرة: "أنت ساحر إذن!".

قال لها: "يمكنك أن تقولى هذا".

فجأة فقدت السيدة روساكوف أسلوبها المرح وقالت فى ألم ومرارة:

"غبى! رغبات قلبى؟ هل يمكنك أن تنتقم من أعدائى؟ هل يمكنك أن تعيد لى شبابى وجمالى وقلبى المرح؟ هل يمكنك أن تعيد الحياة للموتى؟".

كان آخيل بوارو يراقبها بفضول ثم قال:

"أى من هذه الأمور الثلاثة؟ اختارى".

ضحكت من جديد وقالت ساخرة:

"ربما سوف تعطينى إكسير الحياة؟ حسناً. سأعقد صفقة معك. يوماً ما كان لىّ طفل، اعثر لى على طفلى وسوف أعطيك حريتك".

قال آخيل بوارو: "سيدتى. أنا أوافق. إنها صفقة. سوف يعود طفلك إليك. بشرف... بشرف هيركيول بوارو نفسه".

من جديد ضحكت تلك المرأة الغريبة... فى هذه المرة ضحكت طويلاً دون توقف ثم قالت فى النهاية:

"عزيزى سيد بوارو. أخشى أن أكون قد أعددتُ لك فخاً صغيراً. إنه لطف منك أن تعد بإعادة طفلى لى، لكن كما ترى فأنا أعلم أنه لن يمكنك النجاح وستكون تلك

الصفقة من جانب واحد، أليس كذلك؟".

عاد يقول: "سيدتى، أقسم لك على أننى سوف أستعيد ابنك".

لكنها قالت: "لقد سألتك من قبل، سيد أخيل بوارو: هل تستطيع أن تعيد الحياة للأموات؟".

قال: "إذن طفلك...".

قالت: "ميت؟ نعم".

تقدم أخيل بوارو للأمام وأمسك رسغها وقال:

"سيدتى، أنا الذى يتحدث إليك الآن أقسم مرة أخرى أن أعيد الميت إلى الحياة".

نظرت إليه كما لو كانت مفتونة فقال لها:

"أنت لا تصدقيننى، سأبرهن على كلماتى، أحضرى لى كتاب الجيب الخاص بى الذى أخذوه منى".

خرجت من الغرفة وعادت والكتاب فى يدها، وطوال الوقت كانت لا تزال تقبض على المسدس فى يدها. شعرت أن فرص خداع أخيل بوارو لها ضعيفة، فالسيدة فيرا روساكوف ليست غبية.

قال لها: "افتحيه سيدتى، غطاء الكتاب على الناحية اليسرى، تماماً. والآن خذى الصورة وانظرى إليها".

فى تعجب أخذت الصورة التى بدت كما لو كانت لقطة فوتوغرافية، وبمجرد أن نظرت إلى الصورة أطلقت صيحة وترنحت كما لو كانت سوف تسقط، تقريباً طارت إلى رفيقى وهى تصرخ:

"أين؟ أين؟ سوف تخبرنى أين؟".

فقال لها: "تذكرى صفقتنا يا سيدتى".

أجابته قائلة: "نعم، نعم. سوف أثق بك، بسرعة قبل أن يعودوا".

أمسكته من ذراعه بيدها وقادته بسرعة وهدوء إلى خارج الحجرة. تبعتهما. من الحجرة الخارجية قادتنا إلى النفق الذى دخلنا منه أول مرة إلا أنه بعد مسافة قصيرة تشعب فاستدارت جهة اليمين. ومرة بعد أخرى أخذ ينقسم الممر إلا أنها استمرت فى طريقها دون أن تخطئ أو تتردد مرة على الإطلاق بينما كانت سرعتها تتزايد.

قالت وهى تلهث: "آه لو نصل فى الوقت المناسب، يجب أن نكون فى الخارج قبل أن يحدث الانفجار".

واصلنا طريقنا فيما فهمتُ أن هذا الممر يمر عبر باطن الجبل وينتهى خارجه على الجهة الأخرى، أى أننا سوف نخرج منه إلى وادٍ آخر، فتصيب العرق على وجهى إلا أننى استمررت فى الجرى.

بعد ذلك رأيتُ من بعيد لمحة من ضوء النهار تقترب وتقترب ثم رأيتُ شجيرات خضراء تنمو فأبعدناها بأيدينا وشققنا طريقنا عبرها. ومن جديد صرنا فى الهواء الطلق فيما صبغ ضوء الفجر الضعيف كل شئ باللون الوردى.

كان الطوق الذى فرضه بوارو حقيقياً، فبمجرد أن ظهرنا من الجبل انقض علينا ثلاثة رجال إلا أنهم أطلقوا سراحنا من جديد وهم يطلقون صيحات التعجب فصاح رفيقى:

"أسرعوا. أسرعوا. لا يوجد وقت لنهدره..."

إلا أنه لم يكن مقدراً له أن يكمل كلماته، فقد اهتزت الأرض من تحت أقدامنا ثم كان ذلك الصوت المرعب، وبدا أن الجبل كله سوف ينهار وشعرنا بأنفسنا نطير فى الهواء لمسافة طويلة.

أخيراً عدتُ إلى وعيى، كنتُ أرقد على سرير غريب فى حجرة غريبة. كان هناك شخص يجلس بجوار النافذة. استدار وأتى ووقف بجانبى.

كان آخيل بوارو. أو... انتظر... هل كان...

إلا أن الصوت الساخر المألوف بدد أية شكوك ربما كانت تراودنى:

"نعم يا صديقى، إنه أنا. لقد ذهب أخى آخيل إلى بيته من جديد فى أرض الأساطير، لقد كنتُ أنا طيلة الوقت، ليس رقم أربعة فقط هو الذى يستطيع أن يمثل دوراً. عدسات لاصقة فى العينين وتضحية بالشارب وجرح حقيقى فى شفتى آلمنى بشدة وأنا أصنعه قبل شهرين، فأنا لم أكن لأغامر بأمر مزيف وأنا تحت نظر رجل عيناه كعيني الصقر مثل رقم أربعة. وكانت اللمسة الأخيرة هى اعتقادك بوجود شخص يدعى آخيل بوارو! لقد كانت خدمة لا تقدر بثمن تلك التى أسديتها لى، إن نصف النجاح يعود إليك! لقد كان لب الموضوع هو أن نجعلهم يعتقدون أن هيركيول بوارو لا يزال طليقاً يدير العملية. وما عدا ذلك كان حقيقياً؛ مستحضر بذر اليانسون والطوق الأمنى... إلخ".

سألته: "ولكن لماذا لم ترسل حقاً بديلاً؟"

أجابنى قائلاً: "وأتركك تذهب إلى الخطر دون أن أكون بجوارك؟ إن لديك فكرة جيدة عنى إذن! وبالإضافة إلى ذلك فقد كان عندى دائماً أمل فى أن أجد مخرجاً عن طريق السيدة روساكوف".

من جديد سألتُه: "ولكن كيف تمكنتُ من إقناعها؟ لقد كانت قصة هزيلة جداً لا يمكن للسيدة روساكوف أن تبتلعها؛ أقصد قصة الطفل المتوفى".

قال بوارو: "إن السيدة روساكوف لديها سرعة فهم وبديهة أعلى منك يا عزيزي هاستنجز. لقد خدعها تنكرى فى البداية إلا أنها سرعان ما اكتشفت الحقيقة. عندما قالت أنت بارع جداً سيد آخيل بوارو، وقد عرفت أنها خمنت الحقيقة. وكان إما أن أنتهز هذه اللحظة أو لا، لكى أستخدم ورقتى الرابعة".

قلت: "كل هذا الكلام حول إعادة الموتى إلى الحياة؟".

قال بوارو: "تماماً، إلا أنك يجب أن تعرف أن الطفل كان معى طوال الوقت".

قلت فى انفعال: "كيف؟".

قال بوارو مُجيباً: "نعم! تعرف شعارى... كن مستعداً. بمجرد أن عرفت أن السيدة روساكوف على صلة بالأربعة الكبار أخذتُ أجمع كل المعلومات اللازمة عن أصولها، وعلمت أنه كان لها ولد وتم تسجيله على أنه قتل ثم وجدت تناقضات فى القصة التى تحدثت عن مقتله، الأمر الذى جعلنى أعتقد أن هناك احتمالاً بأن يكون على قيد الحياة رغم كل شيء. وفى النهاية استطعتُ أن أصل إلى أثر الولد وبعد أن دفعتُ مبلغاً كبيراً من المال استطعتُ أن أصل إلى الولد. كان الطفل الصغير ميتاً تقريباً من الجوع، فوضعتُه فى مكان آمن مع أناس لطفاء، والتقطت له صورة فى وضعه الجديد. وبذلك، وعندما حانت اللحظة المناسبة فقد كان معى بالفعل ما يمكننى أن أُغير به مجرى الأحداث بهذه الصورة!".

صحتُ فى إعجاب: "أنت مدهش يا بوارو. مدهش جداً!".

قال بوارو: "أنا سعيد لأننى فعلتُ ذلك، فأنا معجب بالسيدة روساكوف. كنتُ سأشعر بكثير من الأسف لو كانت قد لقيت حتفها فى الانفجار".

قلت: "كنتُ أخشى أن أسألك. ماذا حدث للأربعة الكبار؟".

قال بوارو: "الآن تم التوصل إلى كل الجثث. جثة رقم أربعة كانت فى وضع لا يسمح بالتعرف عليها. انفجر الرأس إلى قطع. كنتُ أتمنى... فعلاً كنتُ أتمنى ألا يحدث ذلك، كنتُ أريد أن أكون واثقاً لا أكثر، انظر إلى هذا".

ثم أخرج لى جريدة كانت بها علامة على إحدى الفقرات. كانت تشير إلى انتحار لى تشانج ين الذى رتب للثورة الأخيرة التى فشلت فشلاً ذريعاً.

قال بوارو فى هدوء: "خصمى العظيم. إنه القدر الذى جعلنا - هو وأنا - لا نلتقى وجهاً لوجه. عندما تلقى أخبار الكارثة هنا اختار الطريقة السهلة، عقل عظيم يا صديقى، عقل عظيم. لكننى كنتُ أتمنى أن أرى وجه الرجل الذى كان رقم أربعة، لنفترض أن ذلك قد حدث... حسناً يبدو أننى أبالغ رغم كل شيء. لقد مات. نعم يا صديقى. لقد واجهنا واقتلعنا معا عصاة الأربعة الكبار من جذورها. وسوف تعود أنت إلى زوجتك اللطيفة. وأنا... سوف أتقاعد. لقد انتهت أعظم قضية فى حياتى، من المحتمل أن أعمل

فى زراعة القرع! ربما أيضا أتزوج وأقوم بتنظيم شئون حياتى".

ثم ضحك من قلبه لتلك الفكرة، إلا أن تلك الضحكة شابها شيء من الإحراج، فالرجال ضئيلو الحجم دوما يعجبون بالنساء المتبرجات كبيرات الحجم...

ثم عاد يقول: "أتزوج وأرتب حياتى، من يعلم؟".

جدول المحتويات

نبذة عن المؤلفة

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر